العدد الثامن والخمسون - السنة الخامسة عشرة - ربيع الثاني ١٤٤٠هـ - ديسمبر ٢٠١٨م

رسالة القلم

إسلامية . ثقافية . شاملة

المؤسّسات الدينيّة

أهمية العمل المؤسّساتي

حوار مع سماحة الشيخ محمد منسي شبيب حفظه الله

- المسجد في الإسلام
- المؤسسة الدينية غير المستقلة.. الأخطار والنتائج (المسجد مثالاً)
- المؤسسة الدينية في فكر الشيخ آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم حفظه الله
- العزوف عن العمل الديني (الأسباب ـ الآثار ـ الحلول)

رسالة القلم

مجلّة طلابيّة فصليّة

تهدف إلى نشر الثقافة الإسلامية

تصدر عن طلاب البحرين في الحوزة العلميّة

بمدينة قم المقدسة

برعاية مكتب البيان للمراجعات الدينيّة

علماً بأنّ المقالات لا تعبّر بالضرورة عن رأي المجلّة

الهيئة الاستشارية

الشيخ عبدالله علي الدقاق

الشيخ علي فاضل الصددي

المشرف العام

الشيخ عبدالرؤوف حسن الربيع

رئيس التحرير

الشيخ محمد علي خاتم

مدير التحرير

الشيخ عباس علي الصايغ

المدير المساعد

الشيخ جعفر عبدالنبي الجبوري

هيئة التحرير

الشيخ عزيز حسن سلمان

الشيخ جاسم بدر المطوع

الشيخ علي عقيل الجمري

الشيخ منصور إبراهيم حسين

السيد جلال عدنان علوي

رسالة القلم
العدد ٥٨

المحتويات

كلمة العدد

٥ **نقد المؤسّسة الدينيّة**
رئيس التحرير

حوار العدد

٩ **أهمية العمل المؤسّساتي**
حوار مع سماحة الشيخ محمد منسي شبيب حفظه الله

محور العدد: المؤسّسات الدينيّة

٢٧ **المسجد في الإسلام**
آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم حفظه الله

٤٥ **المؤسسة الدينية غير المستقلة.. الأخطار والنتائج** (المسجد مثالاً)
الشيخ عزيز حسن الخضران

٦٧ **المؤسسة الدينية في فكر آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم** حفظه الله
السيد حسن السيد احمد الغريفي

٩١ **العزوف عن العمل الديني** (الأسباب ـ الآثار ـ الحلول)
الشيخ منصور إبراهيم الجبيلي

بحوث ومقالات اخرى

١٢٣ **الموروث الاجتماعي وتحديات التغيير**
الشيخ علي أحمد الجفيري

١٣٩ **أدب الأنبياء من القرآن**
الشيخ مجيد عبد الرسول السهلاوي

١٧٧ **المتشابه في القران**
الشيخ محمود حسن آل الشيخ العالي

١٩٩ **دية اللّطمة**
الشيخ علي فاضل الصددي

نقد المؤسّسة الدينيّة

رئيس التحرير

من السهل أن يوجِّه اليوم أحدهم نقداً إلى المؤسسة الدينيّة؛ لِما قد يراه من تراجع في بعض المواضع في الجانب الديني وفي بعض آخر من انمساخ في هذه المؤسسة عمّا هي عليه، وفي مواقع أخرى تحوّلها إلى معول هدم للمجتمع وتاريخه إذا ما حملت السلاح!

لكن ما ينبغي التوقّف عنده من المنصف هو أنّ المؤسسة الدينية التي يسهل نقدها هل هي المؤسسة الدينية المعوّل عليها من قبل أهل الدين أم أنّها مؤسسة أخرى لا تمتّ إلى الدين بصلةٍ إلا في الاسم ولا ينتمي إليها إلا من كان موظّفاً برتبة عالم؟!

الحق أنّ ما يُعَنْوَن بعنوان المؤسسة الدينيّة يمكن تقسيمه إلى قسمين:

مؤسسات دينية مرتبطة بالدول، ومؤسسات دينية ليست مرتبطة.

والأولى: في الأعمّ الأغلب تكون لها وظائف محدّدة من قبيل إصدار بيانات مكررة إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، وغمض النّظر عن القضايا الأساس التي تعصف بالأمّة سواء على المستوى المحلّي أو العالمي.. ولا يحرّك شيء إلا في إطارات محدودة وقيود مرصودة، وقد تدعو الحاجة إلى أن يتحوّل موظّفوها إلى مساحيق تجميل لمواقف القويّ الذي يضع يده على دنياهم، وقد يحتاج إليهم في تأثيث بعض المواقع السياسية وما شاكل.

والثانية: وهي في الغالب مؤسّسات أهليّة يسعى المنتمون إليها للعمل بروح المؤسّسة –خروجاً عن عمل الفرد– لتحقيق أهداف الإسلام في إيجاد الإنسان الصالح على هذه الأرض، ولكي يعيش الفرد همّ المجتمع فيسعى إلى رفده بالطاقات والإبداعات ليكون خير مجتمع في علمه وحضارته وما إلى ذلك، ولكي يعيش المجتمع همّ الفرد فيوفّر له أجواء الإيمان والطاعة في كلّ مجالات الحياة فيتحوّل هذا الفرد بتديّنه مندفعاً نحو العلم وخدمة المجتمع بكلّ ما أوتي من قوّة.

ومن هنا فإنّا لا نرفض النّقد الموجّه للمؤسسة الدينيّة من القسم الأول؛ لأنّها في واقعها ليست دينية وإن عُنونت بعنوانه وأُلبست لباسه. فهي الأخرى عليها ما عليها من قيود حريّ بمن يريد نقدها أن يرفع القيود عنها ليرى أنّها تعمل كما هو المأمول أم لا؟!

أما ما كان من القسم الثاني فهي الأخرى تتحمّل ما قد يفوق حجمها واستيعابها متجاهلة الضغوط المختلفة في سبيل تحقيق شيء من وظائفها المأمولة، وهي الأخرى حري بمن يرفع راية نقدها أن يساهم في دعمها ورفع ما يمكن من قيود قد تفرض عليها وتعبيد الطريق لها.

فيتّضح أنّ هاهنا واقعاً للمؤسسة وافتراء قائماً عليها.

قوّة المؤسّسة الدينية:

من المطلوب جدّاً أن توجد عندنا في عالم اليوم -لا سيّما في ظلّ التحدّيات العالميّة والسهام الموجّة إلى الإسلام ومحاولة إضعافه في نفوس المسلمين لا سيّما الشباب والشابات منهم- مؤسّساتٌ دينيةٌ قويّةٌ قادرةٌ على مواجهة الانحرافات العقدية والأخلاقية وغيرها، وتكون ساعية إلى تصحيح مسار الأمّة ليكون نهج الإسلام هو المتّبع القائم على رعاية حقوق الخلق والخالق ليصل الإنسان إلى الكمال الذي هو مؤهّل إليه.

وهذا يُوجِد الوظيفة بثقلها على الجميع نُخَباً وأفراداً لإيجاد الطاقات القادرة على إدارة هذه المؤسّسات وتمهيد الأرضيّة الصالحة للعمل.

مؤسّستنا الدينيّة:

إنّ مؤسّستنا الدينية -عند الشيعة- تتمثّل في الحوزات ومن فوقها المراجع العظام ومنابر الجمعة، والمنبر الحسيني ومراكز التعليم المنتشرة وأمثالها.. هذه لا بد من السعي دون المساس بها وإضعافها.. إذ لا شكّ أنّ في إضعافها يسبّب الفصل بينها وبين جمهورها مما يؤدّي إلى تحجيم دورها في إصلاح الأمّة.

ومما يؤسف له؛ أن تظهر الأصوات هنا وهناك، بين الحين والآخر ليس لها همّ إلا أن تدّعي نقد المؤسّسة الدينيّة وليس واقعهم إلا كيل التهم والاصطياد في الماء العكر بما لا واقع له في كثير من الأحيان!

وإذا ما وجدوا سكوتاً من المؤسّسة الدينيّة ظنّوا أنّ الحجة أفحمتها وسكتت عن المزيد من افتضاح أمرها.. وما ظنّهم إلا في سراب فإنّ عدم السِّجال معهم لا لوجود الحجّة لديهم، بل لحكمة المؤسّسة المانعة من إتلاف العمر معهم، وإن

لزم الخوض في سجالٍ في بعض الحالات، وعلى الله المستعان.

وهذا لا يعني أن لا يوجد في المؤسّسة الدينيّة ما يحتاج إلى تقويم وإصلاح- بالنّصح والتسديد والكشف عن نقاط الضّعف لعلاجها- إلا أنّ الإصلاح والتقويم لا يكون أبداً بالنّقد السلبي أو الاتّهام المتلوّن بألوان النّقد بدعاوى الغيرة فضلاً عن التقصّد في الإضعاف والتوهين، بل يكون هذا التقويم عن طريق **"النّقد الموجّه المسؤول الذي يطلب فيه صاحبه نقاط الضعف ويوضّحها للتسديد والنّصح وليس للتسقيط والإلغاء"**[1].

(١) الاجتهاد والتقليد وسلطات الفقيه، الشيخ محمد مهدي الآصفي، ص ٢٤.

أهميّة العمل المؤسّساتي

حوار مع سماحة الشيخ محمد منسي شبيب حفظه الله[1]

حاوره: الشيخ عبّاس علي الصائغ

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين محمد وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

في ظلّ هذا التّطوّر الهائل الحاصل في زماننا على مستوى التنظيمات والهيئات والمؤسّسات في كافّة مجالات الحياة لم يعد خافياً على أحدٍ ما أحدثه العمل المؤسّساتي من قفزة نوعية في التّنظيم والبرمجة والتّخطيط والإنتاج، فلم يعد الآن

---

(١) سماحة الشيخ محمد منسي شبيب حفظه الله، من مواليد عام١٩٧٠م، ولد في مملكة البحرين في قرية شهركان، وقد درس المقدّمات في البحرين ثم انتقل إلى قم المقدّسة ليتمّ دراسته حتى البحث الخارج.

وهو أستاذ في الحوزة العلمية في البحرين، ومشغول حالياً بالتدريس في الحوزة العلمية في قم المقدّسة. وهو خطيب حسيني، وعضو في المجلس الإسلامي العلمائي في البحرين، وله إسهامات علميّة وعمليّة في المجتمع البحرانيّ.

العمل الفردي ناجحاً ومؤدّياً إلى المطلوب، فما كان يواجهه العمل الفردي من مشاكل وعقبات قد تمّ تجاوزه بمراحل شاسعة عن طريق رسم الخطط والدراسات المؤسّسية، فليس من الصحيح أن تبقى مراكزنا الدينية بعيدة عن هذه التّنظيمات والدراسات، بل ينبغي لها أن تكون هي السبّاقة في هذا المضمار؛ إذ المطلوب منها بحسب المنظور الإسلامي أن تؤدّي عملها على أحسن وأفضل وجه، فقد ورد عن أبي عبد الله عليه السلام في حَدِيثٍ قال: «**لَمَّا مَاتَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله رَأَى النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله فِي قَبْرِهِ خَلَلاً فَسَوَّاهُ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً فَلْيُتْقِنْ**»[1]، فالإسلام دائماً ما يدعو إلى العمل بإتقان، خصوصاً وأنّ كلامنا عن المراكز المرتبطة بالدين، فلابدّ عليها من النّظر إلى العلوم التي تعنى بالإدارة المؤسّسية والتّخطيط الاستراتيجي، والسعي إلى تطبيقها عملياً على أرض الواقع؛ ليكون إنتاجها مرضيّاً عند الله وعند صاحب العصر والزمان أرواحنا لتراب مقدمه الفداء.

من هنا ارتأت (مجلّة رسالة القلم) عقد هذا الحوار مع سماحة الشيخ محمد منسي حفظه الله في هذا المجال؛ لما للشيخ من باع طويل في العمل المؤسّسي، ونشكره مقدّماً على إتاحته لنا هذه الفرصة الثمينة، والحوار في ضمن عدّة محاور.

المحور الأول:

*** حبذا شيخنا العزيز لو تعطونا نبذةً عامّة عن أهميّة العمل المؤسّساتي.**

من الواضح جدّاً لدى العقلاء في هذا الزمن وبمختلف التخّصصات

(١) وسائل الشيعة، الحر العاملي، ج٣، ص٢٢٩.

والتوجّهات والأهداف هو الانتقال في العمل لتحقيق الأهداف المرجوّة من حالة الارتجال والفرديّة إلى مرحلة العمل وفق مؤسّسات لها ترتيبها ولجانها وأعضاؤها، وهذا يسري في جميع المجاميع من الصغيرة إلى الكبيرة، وحتى إلى قيادة وإدارة الدول والحكومات؛ وذلك لازدياد أعداد البشر، وازدياد وتنوّع حاجاتهم الدينيّة والمعرفيّة والمعيشيّة، وتشعّبها كثيراً، ولوجود كثير من المشاريع المضادّة والمعاديّة، ولأنّنا كبقية البشر نعيش في عالم المؤسّسات فإنّه من الضروري جدّاً أن تعمل مشاريعنا الدينية وفق العمل المؤسّساتي؛ لتستطيع القيام بوظيفتها الدينيّة المرجوّة، وهذه الضّرورة تزداد إلحاحاً يوماً بعد يوم.

*** ما هو المقصود بالمؤسّسة الدينية؟**

نقصد بها الأفراد والجهات التي أخذت على عاتقها خدمة الدين والمؤمنين من ناحية تبليغ الدين ونشره، وتقويته وتثبيته، ورعاية المؤمنين وحمايتهم، وتحصينهم فكرياً وعملياً.

ومن أهم المواقع والجهات هي المساجد ومحاريبها، والحسينيات ومنابرها ومُواليها، والحوزات العلمية ومعاهدها وجامعاتها ومدارسها.

*** ما هو موقع المسجد بين المؤسّسات الدينية؟**

المسجد هو المحور الأول لانطلاق بقية المؤسّسات الدينية، فمنه تبدأ وتنطلق، ومنه تأخذ الشرعيّة والقدسيّة والانتماء، فإذا نظرت إلى الحوزات العلميّة مثلاً تجد في تاريخها أنّها في غالبها قد انطلقت من المساجد، بل من أحد المقامات والمدن

المقدّسة التي تشرّفت بأضرحة أولياء الله ولم تنفك عنها، وكذلك الحال والكلام في الحسينيات والمواكب.

ولذا يصرّ كثير من علماء ودعاة الدين على أن ترتبط المشاريع والمؤسّسات الدينية بالمساجد وأن تكون منطلقاً وانتماءً وهويةً مستمرة.

وهذا مأخوذ من سيرة الرسول ﷺ حيث إنّه عندما هاجر من مكة إلى يثرب وأسماها (طيبة) واتّخذها مقرّاً وعاصمةً للإسلام، فإنّ أوّل ما قام به هو تأسيس وبناء مسجده، ومنه انطلقت بقيّة المشاريع الدينية بل والحكومة الإسلامية.

وعلى هذا سار السلف الصالح والعلماء العاملون إلى يومنا هذا، ومن هنا نفهم أهميّة وموقعيّة ومحوريّة المساجد في عملنا الدينيّ، وكذلك نفهم ما يقوم ويحاول القيام به أعداء الدين من محاربة المساجد وتخريبها مادّياً ومعنوياً، وحرفها عن مسارها ووظائفها.

*** وهل يُفهم من ذلك ضرورة أن تنطلق المؤسّسات الدينية من المساجد؟**

نعم من الضروري ذلك، ومقصودي من الضرورة هو أنّ الغالب والأفضل أن تنطلق المؤسّسات الدينية من المساجد، أو لا أقل تكون مرتبطة بها بشكل من الأشكال؛ وذلك -لما ذكرت- لأجل التأكيد على الهويّة والانتماء، وضمان البقاء والاستمرار، وضمان الاستقامة وعدم الانحراف.

وليس معنى ذلك استحالة قيام مؤسّسة دينية وانطلاقها من غير المساجد، وذلك تبعاً للظروف الموضوعية التي قد تحيط ببعض المؤسّسات الدينية في بعض المواقع، ولكن إنّما نؤكّد على ضرورة ارتباط المؤسّسات الدينية بالمساجد للتأصيل في عملنا الديني.

بل إذا تسمحوا لي بأن أتوسّع قليلاً في هذه النقطة وأقول: في هذا الزمن ليس فقط من الضروري ارتباط المؤسّسات بالمساجد وانطلاقها منها، وإنّما أصبح من الضروري أن تتحوّل المساجد في مشروعها الديني إلى العمل بنظام المؤسّسات.

*** وكيف ذلك شيخنا العزيز؟ نرجو التوضيح أكثر.**

كانت المساجد -سابقاً في بعض الأوقات- في أغلبها مقتصرة على إقامة الصلاة فرادى، وإن تيسّر لبعضها وتوفّر إمام الجماعة فإنّه تقام صلوات الجماعة فيها، وبعضها تطوّر فيها الحال إلى إقامة برامج لتعليم الصلاة والقرآن والأحكام الشرعيّة، وذلك بحسب إمام الجماعة ونشاطه، وبحسب المصلّين ومرتادي المسجد وتفاعلهم واهتمامهم، وفي الغالب كانت برامج ومشاريع بسيطة الإعداد والعدد، وقد تكون أقرب إلى الفرديّة والارتجاليّة، إلى أن تطوّرت شيئاً فشيئاً فدخل فيها التخطيط والبرمجة، وانتقلت من حالة الفرديّة والارتجاليّة إلى حالة العمل الجماعي المرتّب والمنسَّق.

ولكن نتيجة تطوّر الزمان وزيادة الأعداد والاحتياجات الدينيّة، تطوّرت بعض المساجد وانتقلت إلى مرحلة العمل المؤسّسي والذي يحتوي على لجان متعدّدة لها تخصّصها ووظائفها وأهدافها، ومع مرور الزمن وتراكم التّجارب والخبرات تفرّعت اللجان وتشعّبت وتكثّرت، وذلك بحسب الحاجة لمؤسّسة المسجد وما تقدّمه من خدمات دينية واجتماعية للمجتمع.

ولدينا في هذا الجانب المهم نماذج رائدة ورائعة، ندعمها ونساندها ونثني عليها، ونقدّر القائمين عليها والعاملين فيها، وندعو بقية المساجد والمناطق للاحتذاء بها والاستفادة من تجاربها.

*** وهل يمكن أن تعرّفونا بالمسجد كمؤسّسة ولجانها؟**

نعم من خلال التجارب والواقع المعاش يمكن التعريف ببعض اللّجان العاملة في المسجد كمؤسّسة، مثلاً:

١ـ لجنة شؤون صلاة الجماعة:

وهي تعنى بتوفير صلاة الجماعة الدائمة والمستمرة، وإقامتها على أفضل وجه ممكن كأوّل وأهم مشروع ووظيفة في المسجد، ولها وظائف وأدوار كثيرة، منها:

أـ إكمال جدول صلاة الجماعة في كلّ الفرائض اليوميّة والمناسبات الدينيّة المهمّة كالعيدين وصلاة الآيات.

ب ـ الترتيب والتنسيق بين أئمة الجماعة في حال التعدّد.

ج ـ التواصل والمتابعة في حالات السفر والغياب وغيره.

د ـ تشكيل حلقة الوصل بين إمام الجماعة والمصلّين في التواصل والتفاعل بينهما.

هـ ـ حلّ الخلافات والإشكالات التي تقع في صلاة الجماعة أو بين المصلّين.

وـ توفير المؤذّنين وقارئي الأدعية والقرآن الكفوئين، وتنسيق وترتيب مشاركاتهم.

زـ ويمكن أن تنبثق منها لجنة خاصة تعنى بتأهيل المؤذّنين وقارئي القرآن والأدعية.

٢ـ لجنة التعليم الديني:

وهي تعنى بتوفير الدروس الدينية الكافية والمناسبة للأعمار، للأولاد والبنات، والآباء والأمهات، من تعليم الصلاة والقرآن والعقائد والأحكام الشرعية والمفاهيم والأخلاق، وذلك كثاني مشروع مهم للمسجد.

وتقوم بذلك من خلال إقامة الدروس المنتظمة والمستمرّة، إضافةً إلى الدورات والمواسم، ولها وظائف ومهام، منها:

أـ توفير الخطّة التعليميّة الشاملة.

ب ـ توفير المدرّسين الكفوئين وتأهيلهم.

ج ـ توفير المناهج الدراسية المناسبة والكافية.

د ـ التواصل بين الطلاب وأولياء أمورهم.

هـ ـ إقامة الأنشطة والفعاليات المفيدة للتعليم الديني، وربط الطلاب بالمسجد والتعليم الديني أكثر حتى من خلال إقامة البرامج الترويحية.

وـ ربط الطلاب بالمسجد وصلاة الجماعة والمشاريع الدينية حتى بعد تخرّجهم وإكمالهم للدراسة المقرّرة.

٣ـ اللجنة الاجتماعيّة:

وهي تعنى بالحالة الاجتماعية بين المصلّين فيما بينهم، وفيما بينهم والمجتمع، وذلك من خلال التواصل والتزاور الاجتماعي للمصلّين والمرتادين للمسجد، خصوصاً حالات الأفراح والأحزان والمواساة، وكذلك في حالات السفر والمرض وغيرها، وتفقّد أحوالهم واحتياجاتهم والمساعدة

بما يمكن في ذلك، والسؤال عن الغائب منهم.

وقد ترقّت في بعض المساجد إلى القيام برحلات وسفرات إلى المقامات المقدّسة وأداء العمرة أو الزيارات.

٤ـ لجنة الاحتفالات والمناسبات:

وهي تعنى بترتيب وإقامة الاحتفالات والندوات والمجالس في المناسبات الدينيّة، وخصوصاً مواليد ووفيات أولياء الله عليهم أفضل الصلاة والسلام. ويمكن أن تقوم ببعض المواسم الثقافية الدينيّة والتوعويّة.

٥ـ لجنة الخدمات:

وهي تعنى بتوفير حاجات ومستلزمات المسجد ولجانه العاملة فيه، وكذلك تقوم بصيانة المسجد ومرافقه وأدواته، وإصلاح أو ترميم التالف، وتسعى للتطوير والإضافة.

وهذه كلّها بعض النّماذج، وإلا يمكن أن تتفرّع وتتشعّب بعض اللجان فتنتج لجاناً أخرى، وذلك حسب الحاجة والبرامج.

وما ذكرته من تعريف لبعض اللّجان وبعض مهامها ووظائفها، وإلا فإنّ الكلام يطول فيها لو أردنا التفصيل أكثر وذكر كلّ مهامها ووظائفها وشروط الأعضاء العاملين فيها، وكيفيّة إدارتها وترتيبها. وهذا يحتاج إلى كلام مفصّل مستقل، وهو مهمّ وقد يشكّل دستوراً وخطّة عمل لمساجدنا وعملها المؤسّسي.

*** ما هي عوامل نجاح العمل المؤسّساتي؟**

من الطبيعي أنّ كلّ عمل يحتاج إلى من يقوم به، ولا بدّ وأن يكون مناسباً لأداء ذلك العمل، ويحتاج إلى أدوات ووسائل للعمل وتحقيق الأهداف، ولذا فالمؤسّسة تحتاج إلى:

١ـ خطة عمل ومشروع بأهداف ومناهج ووسائل.

٢ـ قائمين وعاملين في المؤسّسة تتوفّر فيهم الأهليّة والكفاءة.

٣ـ الإخلاص والجد والاستمرار والتطوير.

٤ـ القاعدة (المجتمع) الداعمة والمساندة بمختلف أنواعها.

٥ـ الإشراف والمراقبة والمتابعة والتصحيح والتوجيه.

٦ـ الأدوات والوسائل والإمكانات اللازمة.

٧ـ الظروف والأجواء المناسبة.

*** ما هي الخطوة الأولى في طريق إنشاء المؤسسة الدينية؟**

وجود القائمين والعاملين المؤهّلين الذين يتبنّون المشروع، وأن يكون لديهم وعيٌ وجدّ وإخلاص وتفرّغ للعمل، فيسعون لتحقيق الأهداف وللتطوير للأفضل، ويرَون ذلك تكليفاً شرعياً وجهاداً في سبيل الله تعالى، وعبادة وطاعة وقربة إلى الله تعالى.

*** كيف أستطيع الحفاظ على استمرار العمل في المؤسّسة؟**

المؤسّسة الدينية كغيرها من المشاريع والمؤسّسات تمرّ بمتقلّبات الزمان وظروفه، فقد تقوى أحياناً وقد تضعف أحياناً أخرى، بل وقد تتوقّف مؤقّتاً أو دائماً، وذلك وفق الظروف والتحدّيات.

إلا أنّ المؤسّسات الدينية تمتلك من عناصر القوّة والبقاء ما لا يملكه غيرها من المؤسّسات، ومن أهمّها قدسيّة العمل وارتباطه بالجانب العقَدي لدى المؤمن والذي من أجله يضحّي بالغالي والنّفيس.

ولأجل ضمان الاستمرار للمؤسّسة الدينيّة يمكن التذكير بأمور، منها:

١ـ استمرار وجود العاملين فيها بالمقدار الكافي كمّاً وكفياً.

٢ـ توفير الإمكانات اللازمة.

٣ـ زيادة واستمرار الوعي بقدسيّة العمل الديني وأهميّته.

٤ـ ضخّ دماء جديدة وطاقات إضافية وتأهيلها.

٥ـ وجود جهة أو شخصية موثوقة تكون مرجعاً وداعماً ومشرفاً.

المحور الثاني:

*** من خلال تجربتكم في العمل المؤسّساتي، ما هي الفوارق التي أحدثها العمل المؤسّساتي الديني عن العمل الفردي؟**

العقلاء ومنهم المؤمنين قد جرّبوا العمل الفردي وانتقلوا شيئاً فشيئاً إلى العمل المؤسّساتي، ووجدوا فرقاً كبيراً بين الطريقتين؛ وذلك لما يمتاز به العمل

المؤسّساتي من صفات ومميّزات، منها:

١ـ تجميع وتنظيم الجهود وتنسيقها وتوزيعها وفق المهام والوظائف.

٢ـ توفير الوقت والجهود والتكامل، والاستفادة القصوى الممكنة.

٣ـ التخصّص والتطوير والإبداع واكتشاف الطاقات وتوظيفها.

٤ـ الخطّة المدروسة وعدم الارتجال والتخبّط.

٥ـ الإنتاجية الأفضل كمّاً وكيفاً.

٦ـ القوّة والقدرة على الصمود والاستمرار.

٧ـ مواكبة العصر ومتطلّباته.

٨ـ الكفاءة في مواجهة المشاريع المضادّة والهجمات.

*** ما هي أبرز المعوّقات والسلبيات التي قد تمرّ بها المؤسّسات الدينيّة وكيف يمكن تجاوزها؟**

تبليغ الدين وخدمة الدين هو طريق ذات الشوكة والذي ضحّى في سبيله الأنبياء والأولياء والصالحون، فهو محفوف بالمكاره، وله أعداء كثر، ومواجهات متنوّعة ومتعدّدة ومستمرة.

ولذا لا بدّ من دراسة المعوّقات والسلبيات لأجل تلافيها، أو لا أقل من التقليل منها؛ لتصمد وتستمرّ المؤسّسات الدينيّة وعطاؤها.

ومن تلك العقبات والسلبيات أو النواقص:

١ـ يفتقر بعضها إلى خطّة عمل ومشروع كامل.

٢ـ نقص العاملين الكفوئين في بعضها أو بعض لجانها.

٣ـ عدم وجود الداعمين والحاضنين لبعضها.

٤ـ ضعف الإمكانات المادّية اللازمة.

٥ـ عدم وجود المناهج الدراسية الدينيّة الكافية.

٦ـ المواجهات والتّحديات والتّضييق من المناوئين والجهات السياسية وغيرها.

*** ما هي أهم الأدوار التي قام بها المجلس الإسلامي العلمائي[1] في رفد المؤسّسات الدينية الأخرى، ومدى مساهمته في تطويرها؟**

المجلس الإسلامي العلمائي في البحرين ومنذ تأسيسه كان يهدف إلى التأكيد على العمل المؤسّساتي الديني في البلد، وذلك بدعم وترشيد الموجود وتشجيع المبتدئين، وكانت له عدّة مشاريع في هذا الجانب، وقام بعدّة أمور لتحقيق الأهداف، ومنها:

١ـ قام بدور الراعي والحاضن والداعم والمساند بالممكن.

٢ـ سعى إلى مشروع تأهيل الطاقات والأفراد العاملين فيها.

---

(١) هو هيئة إسلاميّة علمائية مهمتها الاهتمام بشؤون المجتمع على المستوى الفردي والاجتماعي وفق رؤية إسلامية شاملة. تأسّس في عام ٢٠٠٤م في البحرين على يد نخبة من علماء البحرين على رأسهم سماحة آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم‌ﷺ. وفي عام ٢٠١٠م صدر قرار من المحكمة البحرينية بحلّه.

٣ـ سعى -وأنجز بمقدار- إلى عمل مناهج دراسية تعليمية دينية موحّدة ومناسبة.

٤ـ عقد اللقاءات والزيارات والتواصل مع القائمين والعاملين في المشاريع الدينيّة، وقام بندوات ومؤتمرات واجتماعات.

٥ـ سعى وشجّع على سدّ النقص والفراغ في بعض المناطق والمواقع.

٦ـ استقبل وسعى إلى حلّ بعض المشاكل في بعض المناطق والمؤسّسات.

٧ـ سعى لأن يكون مظلّة أبويّة دينية للطائفة بمختلف مؤسّساتها.

*** برأيكم هل هناك نماذج مؤسّساتية دينية يمكن أن يُحتذى بها من حيث التنظيم والإدارة، سواء كانت داخليّة أم خارجيّة؟ وما هي؟**

نعم، توجد نماذج كثيرة وممتازة داخلياً وخارجياً يمكن للقائمين أو المؤسّسين للمشاريع والمؤسّسات الدينية أن يستفيدوا منها ومن تجاربها وإمكاناتها، وهذا فعل العقلاء من الاستفادة من تجارب الآخرين، وقد لا أسمّي بعضها ولكن يمكن للباحث أن يجدها بسهولة لكثرتها وتشخّصها في بعض المواقع.

ولذا من الأمور الجيّدة والتي نؤكّد عليها هو وجود لجان علاقات بين المشاريع والمؤسّسات الدينية، بل ووجود لجان تنسيقيّة بين بعضها، وذلك لأجل الاستفادة والتكامل وتوحيد الجهود، وتوفير الأوقات والطاقات.

المحور الثالث:

*** ما هو تقييمكم للتعليم الديني في المساجد في بلدنا البحرين؟**

التعليم الديني في المساجد في بلدنا يشكّل ضرورة عظمى لأبنائنا وبناتنا وأجيالنا؛ وذلك نتيجة وجود الحاجة إلى تعليم العقيدة والأحكام الشرعيّة والأخلاق والمفاهيم وفق مذهبنا الشيعي، وهذا حقّ مكفول لنا وفق كلّ القوانين والتشريعات المحليّة والدولية، إلا أنّه وللأسف الشديد فإنّ مذهبنا ليس له وجود في المناهج التعليميّة الدينيّة في المدارس الرسمية، فلا يتعلّم أبناؤنا وبناتنا شيئاً عن عقيدتنا وأحكامنا ومذهبنا في المدارس، بل والواقع يلزم أبناءنا بأن يجيبوا على الامتحانات على خلاف عقيدتنا ومذهبنا لكي ينجحوا ويحصلوا على الدرجات، بل والأشدّ من ذلك قد يصل الحال إلى أنّ التلميذ أو التلميذة يخطّئ نفسه وعقيدته وعقيدة أهله ومذهبه، وذلك وفق سياسة تعليمية خاطئة، والحديث ذو شجون وآهات.

ولكن من هنا يتّضح ضرورة وأهمية وجود مشاريع التعليم الديني في كلّ مساجدنا ومناطقنا.

وفي الإجمال، بحمد الله تعالى توجد مشاريع تعليم دينية كثيرة على امتداد البلد، وفيها الخير الكثير إن شاء الله تعالى، وإن كان الطموح أكبر من ذلك بكثير، ولكن الموجود بشكل عام جيّد رغم كلّ النواقص والتحدّيات والمواجهات والتضييق الرسمي وغيره، والاستمرار والصمود رغم كلّ ذلك يشكّل مؤشّراً

جيّداً، مع دعائنا بالتوفيق لكلّ المؤمنين والمؤمنات القائمين على تلك المشاريع التعليمية الدينية.

*** ما الذي تفتقده لجان التعليم الديني بنظركم بحيث إذا توفّرت عليه أمكنها النّهوض والتطوّر؟**

بما سبق نفهم بعض الأمور، ولكن أؤكّد على أمور، منها:

١ـ قلّة العاملين من الإداريين والمدرّسين.

٢ـ المناهج المناسبة والكافية.

٣ـ عدم التفرّغ الكامل للعمل.

٤ـ نقص الدعم المادّي والمساندة عند بعضها.

٥ـ عزوف قسم من المجتمع عن المشاركة والمساهمة ولو بضمّ أبنائهم.

٦ـ عدم وعي بعض أفراد المجتمع بأهميّة هذه المشاريع وضرورتها.

٧ـ عدم وجود طالب علم متبنّي وحاضن لبعضها [عادةً].

*** ما هو دور طالب العلم في هذه المؤسّسات؟ هل هو إشرافي مثلاً أو ميداني أو ماذا؟ يعني ماذا ينبغي أن يكون دوره؟**

جليّ وواضح جدّاً أنّ دور طالب العلم في مشاريع التعليم الديني هو دور مهمّ ومحوريّ وأساسيّ، بل هو مجال عمله وتبليغه للدين، ومصداق واضح من مصاديق الآية الشريفة: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ﴾(التوبة: ١٢٢)، فهو المرجع

والحاضن والداعم والمساند، بل والمؤسّس لها، وهو المشرف والمراقب والمتابع، وهو المدرّس والمبلّغ والموجّه والنّاصح، وهو الملجأ في حلّ مشكلاتها، وذلك بحسب مستوى طالب العلم وقدرته وموقعيّته.

*** كيف ينبغي لطالب العلم أن يتعامل مع مختلف المؤسّسات الدينيّة؟ وكيف ينخرط فيها؟**

من خلال ما مضى في الجواب السابق يتّضح الجواب، فلا بدّ أن يقيّم طالب العلم موقعه ومستواه، وما الذي يستطيع أن يقوم به في المؤسّسات الدينيّة، وفي أيّها يعطيها الأولويّة، وبأيّ مقدار يدخل فيها؟

وذلك يحتاج إلى مشورة العلماء العاملين المخلصين المطّلعين على الأمور وشؤون تلك الساحة وذلك الموقع، وخصوصاً لطالب العلم المبتدئ.

وفي العموم لا بدّ أن يكون لطالب العلم دور بارزٌ ومؤثّر في المؤسّسات الدينيّة بأن يكون إيجابياً في ذلك، ولا يكون سلبياً وخارجاً عنها وكأنّها لا تعنيه؛ فهذا أحد مجالات تخصّصه ووظيفته، فإذا لم يستلمه هو استلمه غيره، وقد يكون ذلك الغير غير مؤهّل لذلك فتقع الإشكالات.

كلمة أخيرة سماحة الشيخ..

أذكّر نفسي وأحبّتي بالآية الشريفة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾(الأحزاب: ٢٩).

من مهام طالب العلم تبليغ الدين، وهي وظيفة شرعيّة مقدّسة، وفي هذا الزّمن أصبح من الضرورة التبليغ بطريقة المؤسّسات، وهي وسيلة ضرورية للقيام بتلك الوظيفة الشرعية المقدّسة.

أسأل الله التوفيق والسداد والإخلاص في ذلك لي ولكم جميعاً، والحمد لله ربّ العالمين، وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين.

الحمد لله رب العالمين

المسجد في الإسلام[1]

آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم حفظه الله

إعداد: هيئة التحرير

الملخّص:

تتناول هذه المقالة عدّة عناوين حول الرؤية الإسلاميّة للمسجد وموقعيّته المتفرّدة من بين الأماكن والمؤسّسات الدينية، وكيف يرجى له أن يكون حاضراً في دين الناس وواقعهم، وقد سلّط سماحته حفظه الله الضوء على ذلك من خلال أهمّ ما جاء في النّصوص القدسيّة من الكتاب والسنّة، وتعرّض إلى أنّ المسجد لا يُمسّ من قبل التشريعات الأرضية والسياسات الوضعية؛ فهو بيت الله، وأحكامه وتشريعاته واضحة جليّة في دين الإسلام عند كلّ أُولي القبلة. وركّز على أنّ مسؤولية المسجد والقيام بوظائفه المتنوّعة مسؤولية الجميع، وكلّ الأجيال، ولا يُتهاون فيها؛ لأنّ في ذلك إضعاف لروح الإسلام، وتمكين لمحاولات المناوئين له، من النّيل من أهدافه وحرفه عن خطّ الأصالة التي هو فيها.

---

(١) المقالة هي عبارة عن ترتيب لكلمات آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم حفظه الله مستلّة من خطب متفرقة من الخطب الجمعة، ألقاها في مسجد الإمام الصادق عليه السلام في البحرين في الدراز.

إنّ للمسجد في الإسلام شأناً عالياً لا بدّ لنا أن نعرفه وأن نأخذ به في مقام تعاملنا مع المساجد، وعنوان المسجد نفسه يوحي بموقعه المتميّز ودوره الطاهر الكبير، والقيم المعنوية الرفيعة التي يرتبط بها هذا الدور. إنّه مسجد خُصّص للسجود، للعبادة لله ﷻ.

وإنّك عندما تخرج من بيتك للمسجد تخرج لبيت من بيوت الله سبحانه، وانظر كيف تقصد بيتاً من بيوت الله بأيّ عقلية؟ بأيّ نفسية؟ بأيّ قلب؟ وأيّ خلق؟ وأيّ رزانة؟ وأيّ وقار؟ بيوت ذكره وعبادته وتقديسه، وفي الدعاء عندما تريد الدخول إلى المسجد تقول: «**[إلهي] ضيفك ببابك، يا محسن قد أتاك المسيء فتجاوز عن قبيح ما عندي بجميل ما عندك [يا كريم]**»[1]... جئت طالباً، جئت مستجدياً، جئت مسترفداً، جئت لمحلٍ من محالّ ضيافة الله ﷻ، فانظر كيف تدخل المسجد وبأيّ قلب وبأيّ عقل وبأيّ نفس؟! وإنّ أصدق القول وأحسن الحديث كتاب الله العزيز الحكيم وهو يقول: ﴿**قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ**﴾(الأعراف: ٢٩).

الوجه هو ما تواجه به الغير وأنت تواجه به الله، ووجه كالذي تواجه به الله ليس هذا الظاهري، ما يوجه العبد اللئيم ربّه الكريم، العبد الفقير ربّه الغني، هو ذاته الإنسانية، بكلّ ما في هذه الذات من شوق إلى الله، من افتقاد إلى الله، من تعلّق بالله، من حاجة إلى الله، من توقير وتعظيم وتقديس وإجلال لله.

---

(١) من دعاء الإمام الحسن بن علي عليه السلام إذا أراد دخول المسجد، بحار الأنوار، المجلسي، ج٤٣، ص٣٣٩، ح١٣.

كلّ ذاتك، كلّ مشاعرك، كلّ عقلك كلّ طموحاتك، لا بد أولاً أن تكون نظيفة، لا بد أولاً أن تكون مستقيمة، ثم لا بد أن تحتشد كلّها في طلب واحد في نداء صارخ متلهّف إلى الله ... هذا هو المسجد أيّها الأخوان ﴿**وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ تعبدون فيه.. تصلّون فيه.. تدخلون فيه.. والمسجد ليس للأغراض الأخرى.

المسجد في النّصوص

.. أولاً أريد أن أرسم صورة من خلال النصوص للمسجد أولا وأرتب من بعد ذلك أثراً.

١ـ المسجد والزينة

﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ...**﴾(الأعراف: ٣١).

الآية الكريمة الأولى تتحدّث عن مستوى الداخل، داخل الإنسان، الضمير، القلب، العقل، لا بد أن تتّجه بكلّ ذلك في حالٍ من النّظافة وفي حالٍ من الصدق إلى الله.. ثم حتى على المستوى المظهر الخارجي ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ...**﴾ أنت تزور الله... أنت تقدم على مضيف من مضايف الله ﴿**...وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا...**﴾(البقرة: ١٨٧). دنيا الجنس لا تقرب المسجد، حتى الحلال، دنيا الجنس.. علاقات الجنس الحلال لا تقرب المسجد.

٢ـ إعمار المسجد

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ...﴾(التوبة: ١٨) .. السياق يفهم منه أنّ هذا الإعمار إعمار البناء، إقامة المسجد وإصلاح بناء المسجد، وصحيح أنّ إعمار المسجد بالصلاة والدعاء مطلوب وهو الأهم ولكن حتى على مستوى إقامة المسجد، بناء المسجد، إصلاح المسجد لا يتناسب وحالة الشرك.. يريد طهارة، وضع حجر على حجر لبناء المسجد يحتاج إلى طهارة ضمير، إلى توحيد مبنيّ من أساسه قائم على التوحيد، ويجب أن يستمرّ على خط التوحيد، وأن يخلص لوظيفته، ولدعوة التوحيد.

٣ـ المسجد يقوم على التقوى

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾(التوبة: ١٠٨). هذا المسجد يقوم على التقوى، الرجال الذين يرتادونه، الذين يدخلونه، والنساء اللاتي يدخلنه هم من النوع الذي يحبّ التطهّر، تطهّر الذات الإنسانية من كلّ أرجاسها ونواقصها وسلبياتها مما يضرّ بإنسانية الإنسان.

٤ـ المسجد مركز إشعاع لحضارة الإنسان

﴿...وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا...﴾(الحج: ٤٠). هي مراكز إشعاع مهمة لحضارة الإنسان، لسلامة الإنسان، لدنيا الإنسان، لآخرة الإنسان، فقد أوجد الله ﷻ من أجل حمايتها ومن أجل بقائها: قانون التدافع، والذي تكون على أساسه حروب ومدافعات حضارية ومدافعات ثقافية، وكلّ ذلك من أجل أن يبقى المسجد، أن

يبقى مكان العبادة بإشعاعاته رحمة بالأرض وأهلها، وفي الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: «**عليكم بإتيان المساجد، فإنّها بيوت الله في الأرض، ومن أتاها متطهراً طهّره الله من ذنوبه، وكتب من زوّاره، فأكثروا فيها من الصلاة والدعاء...**»[1].

عن أبي ذر رضي الله عنه: قلت يا رسول الله كيف تعمر مساجد الله؟ قال: «**لا تُرفع فيها الأصوات** -بالمباح، بالعلم- أرأيت كيف يتحدّث المسلم مع رسول الله ولا يرتفع صوته عليه؟

كيف يجب أن يكون وقار ورزانة وتأدّب بين يدي رسول صلى الله عليه وآله، هذا المسجد مطلوب أن يكون فيه أدب وأن يكون فيه وقار ورزانة - ... قال: «**لا ترفع فيها الأصوات، ولا يخاض فيها بالباطل**- أيّ كلمة تخدِم الكفر لا يجوز إلقاؤها في المسجد، أيّ شخصية يكون حضورها مضراً بدين الله يكون حضورها فيه حرمتان، لو دخل كافر ثم تحدّث بكلمة الكفر فقد ارتكب المسلمون جريمتين، وإذا دخل مسلم ممن ظاهره الإسلام فقال قولاً مضرٌ بخطّ المسجد، بخط الله فهذا حرام، حرامٌ فيما ارتكبه في هذا القول، وكلّ كلام يدعو إلى باطل ويبعد عن الحق فهو حرام، وحرامٌ من جهة أنّه قيل في المسجد -**ولا يشترا[ى] فيها ولا يباع، واترك اللّغو ما دمت فيها فإن لم تفعل فلا تلومن يوم القيامة إلا نفسك**»[2]

«**جنّبوا مساجدكم: مجانينكم وصبيانكم ورفع أصواتكم إلا بذكر الله تعالى،**

---

(١) تتمة الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**وصلّوا من المساجد في بقاع مختلفة، فإنّ كلّ بقعة تشهد للمصلّي عليها يوم القيامة**» الأمالي، الشيخ الصدوق، المجلس السابع والخمسون، ح٨.

(٢) بحار الأنوار، المجلسي، ج ٧٤، ص٨٥.

وبيعكم وشراءكم وسلاحكم، وجمّروها[١] **في كل سبعة أيام** -الذي هو تطييب الرائحة- **وضعوا المطاهر على أبوابها**»[٢] المطاهر أي الميضاة: مكان الوضوء.

عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أوحى الله إليّ أن يا أخ المرسلين، يا أخ المنذرين، أنذر قومك لا يدخلوا بيتاً من بيوتي ولأحد من عبادي عند أحدهم مظلمة** -الذات التي تدخل المسجد ذات تطهّرت على مستوى الوضوء الداخلي وعلى مستوى الغسل الخارجي[٣] وتطهّرت على مستوى الوضوء والغسل الخارجي لذات الإنسان- **فإنّي ألعنه ما دام قائماً يصلّي بين يديّ حتى يردّ تلك المظلمة** -أظنّ أنّ الدرس كافٍ من رسول الله.. والتفت إلى الحالة الثانية بعد ردّ المظلمة- **فأكون سمعه الذي يسمع به، وأكون بصره الذي يبصر به، ويكون من أوليائي وأصفيائي، ويكون جاري مع النبيين والصديقين والشهداء في الجنة**»[٤]، «**من أكل هذه البقلة المنتنة**[٥] -الثوم- **فلا يقرب**

---

(١) كما في الجعفريات: (واجمروها)، من إشعال الجمر ليوضع عليه البخور.

(٢) النوادر، فضل الله الراوندي، ص٢٤٢.

(٣) هكذا في نص الخطبة، والأنسب (الداخلي).

(٤) بحار الأنوار، المجلسي، ج٨١، ص٢٥٧، ح٥٥، في تأويل أفعال الصلاة. ومثله وزيادة ورد أنقله للفائدة «**أوحى الله إليّ يا أخ المرسلين، يا أخ المنذرين، أنذر قومك ألّا يدخلوا بيتاً من بيوتي إلّا بقلوب سليمة وألسن صادقة وأيدٍ نقيّة وفروج طاهرة، ولا يدخلوا بيتاً من بيوتي ولأحد عندهم مظلمة فإنّي ألعنه ما دام قائماً بين يديَّ يصلّي حتى يردّ تلك الظلامة إلى أهلها، فأكون سمعه الذي يسمع به، وأكون بصره الذي يبصر به، ويكون من أوليائي وأصفيائي، ويكون جاري مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين**» تفسير الثعلبي، ج١، ص٢٧٢.

(٥) وفي الكافي: (الخبيثة)، ج ٦، ص ٣٧٥.

مسجدنا فأمّا من أكله ولم يأتِ المسجد فلا بأس»[١].

إنّها تعليمات ووصايا وأحكام تفرض على مؤمني المسجد بأن يكونوا من المستوى الإنساني الذي يعتني بإنسانيته، والذي يعمل على التطهّر دائماً، وأن يعرف هؤلاء الناس حرمة المسجد ومكانته عند الله.

المسجد والموسيقىٰ والتمثيل والاحتفالات

الموسيقى، قال الفقهاء بحلّية بعض أنواعها، قسمٌ من الفقهاء قال بحلّية بعض أقسامها، لكن حلّية هذا القسم ليست فوق الشبهة، وليست من مسلَّمات الدين والمذهب، وليس الشيء الذي يصحّ لبعضنا أن يفرضه على البعض الآخر، هذا في خارج المسجد.. ونحن في احتفالاتنا أيها الأخوة نقصد أن ينفتح الاحتفال لكلّ فئات المؤمنين، وأن يحتشد من المؤمنين في الاحتفال الواحد أكبر عدد ممكن، وقصدنا بأن يكون الاحتفال للتجميع لا للتفريق، خارج المسجد لا ينبغي لنا أن ندخل عنصر الموسيقى في الأناشيد وفي غيرها:

لأن ذلك:... ليس فيها استحباب، أعطيتكم أنّ الموسيقى في النشيد بنسبة ١٠ ٪ تأثيراً إيجابياً بنسبة ١٠٪، هذا التأثير بنسبة ١٠٪ تقابله شبهة البعض، يقابله التهيئة للانجرار إلى ما هو منكر، نبدأ خطوة قد تكون مباحة، لكن ننتهي إلى خطوات على طريق المحرم. ثمّ إنّ هذه الـ١٠٪ من التأثير ستطرد جمهوراً وستحدث إرباكاً، هذا بالنسبة لخارج المسجد، أما بالنسبة للمسجد

(١) بحار الأنوار، المجلسي، ج٦٣، ص٢٤٧، الباب العشرون، ح٢؛ علل الشرائع، الصدوق، ج٢، ص ٥١٩.

فالحساب شيء آخر. أنت تستبيح أن تدخل أداة موسيقية وموسيقاراً في بيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حياً؟ وهذا بيت من بيوت الله، بيت رسول الله بيت من بيوت الله، ليس من صالح دين الله أبداً، وليس من البعيد عن الشبهة أن تدخل الموسيقى المسجد.

التمثيل، إذا أردنا أن ندخل التمثيل في المسجد يجب أن لا يؤدّي ذلك إلى قهقهات، ولا يخرج عن الأدب، وأن لا تدخل فيه أدوار مشينة، كلّما يسيء إلى كرامة المسجد، إلى حرمة المسجد بالنظر العرفي، يقولون عنه بأنّه هتكاً لحرمة المسجد. الآن تنجيس المسجد حرام، إدخال نجاسة رطبة إلى فراش المسجد حرام؛ لأنّ هذا ينجّس المسجد، لكن ماذا تقولون لو جمعنا نجاسات بشرية في صناديق وفي ظروف وهي يابسة، المظهر فيه هتك عرفيٌ لحرمة المسجد، كلّما ينافي كرامة [المسجد] وحرمته ويمثّل درجة منا لهتك فهو حرام.

الاحتفالات، وهي دعوة، فيها دعوة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، ويبقى أن تكون دعوة إلى الله، وأن تكون بعيدة عن الدعوة إلى الباطل، وعلينا أن نحرز بالطرق المعتادة أنّ المتحدّث إنّما يتحدّث لصالح دين الله. إذا كان عرس في المسجد فيجب أن ينضبط العرس ويخلو من كلّ مظهر يمكن أن يخدش كرامة المسجد وينافي حرمته[1].

(١) خطبة الجمعة (٣٢) بتاريخ ٢٣ شعبان ١٤٢٢هـ الموافق ٩-١١-٢٠٠١ م.

وظيفة المسجد:

.. إنّ المساجد لله، وإنّما يقرّر وظائفها دينه وشريعته، لا السياسات الوقتية، ولا القرارات الوزارية. وهذا ما عليه جميع أهل القبلة ممن يفهمون الدين، ويؤمنون به، ويحترمونه. أمَّا من اتخذ دينه هزواً فقد يذهب في المسألة مذهباً آخر.

وعليه إنّما يكون الاحتكام عند المسلم في وظيفة المساجد للشريعة وأحكامها ومقرّراتها لا إلى شيء آخر.

والكلام في وظيفة المسجد كلامُ فقه، واستدلالٌ فقهي، وأحكامٌ إلهية جليَّة يقينيّة، وليس كلام قرارات وزارية وإداريّة، تشرّق إذا غرّب الحكم الشرعي، وتغرّب إذا شرّق، وتفرض نفسها عليه، وتتجاوز حرمته، وتختطّ لها هدفاً غير هدفه.

والكلام مع أئمة المساجد هو كلام مع أهل وظيفة دينية ضبطت الأحكامُ الشرعيَّةُ حدودَها وكلَّ آدابها وأخلاقها، وما هو واجبها وحرامها ومستحبّها ومكروهها وجائزها ... وعليه إذا شكّ إمام الجماعة في وظيفته في المسجد وما حدودها فإنّما عليه أن يراجع شريعة الله لا مصدراً آخر من حكومة أو مصلّين أو غيرهم.

وإذا كانت المسألة مسألة شرعية فقهية فأئمة الجماعة لا يجدون في [غير شريعة الله]... القرار بشأن ضوابط الخطاب الديني مصدراً للفتيا، ولا في الأخذ بفتوى [غير الشرع]... معذّراً لهم بين يدي الله يوم القيامة والحساب.

إذا أخذت بقرار [غير الشرع]... فاستوقفني حساب الله يوم القيامة، ماذا أقول؟ أقول: عدلت عن شريعتك إلى قرار [غير شريعتك]...؟! أينجيني هذا من عذاب الله؟!(١).

أمانة المسجد:

المسجد مؤسّسة إسلاميّة أصيلة أحاطها الدّين بالرّعاية والاحترام والتقدير، وأعطاها الموقع الكبير في عقول المسلمين وقلوبهم ونفوسهم، وجعله فيهم أمانة من أماناته الكُبرى على مرِّ الأجيال، واختلاف العصور، وحمَّلهم مسؤولية حفظ هذه الأمانة، وأداء حقّها(٢).

فمن مسؤولية كلّ أجيال الأمّة أن لا يغيب المسجد من حياتها، ولا يختفي دوره، ولا يُعطَّل، ولا يَضْمر، ولا يحرّف، ولا يزوّر، ولا أن يكون أداةً بيد أيّ فكر آخر، أو سياسة لها مصالح تتنافى وصفاء الإسلام، وبقاء رسالة المسجد على أصالتها.

وكم تعرَّض ويتعرّض الإسلام ومفاهيمه ورؤاه، وأحكامه وأخلاقه وعباداته، وأنظمته التشريعيَّة ودور المسجد فيه إلى التحريف والتزوير والتجيير لغير صالح الرسالة.

ولو تُرك الإسلام لتحريف المحرِّفين، وتزوير المزوِّرين، وجهل الجاهلين، وكيدِ الكائدين، وطمع الطّامعين، ولم يكن تصدٍّ كافٍ وقائم دائماً من أئمة الهدى،

---

(١) خطبة الجمعة (٣٥٥) ١٠ صفر ١٤٣٠هـ ـ ٦ فبراير ٢٠٠٩م.

(٢) مسجدك أولى برعايتك من بيتك. وللمسجد قدسيّة ليست للبيت، وإذا كانت مسؤولية كالّبيت في عاتق صاحبه، فسمؤولية المسجد في عاتق الجميع. منه ﷾ .

والصّحابة المخلصين، والفقهاء والعلماء الصّادقين، والرّساليين المتفانين، وجماهير الأمّة الواعية لكلّ تلك المحاولات المضادّة لم يبقَ من الإسلام شيء على صفائه أمسِ قبل اليوم.

ولأئمّة المساجد بما هم أئمة مساجد وظيفةٌ وهي وظيفة المسجد لا غير؛ وهي الدّعوة لتوحيد الله، والتّمكين للإسلام في سَعتِه وشُموله في العقول، والأرواح، والأفئدة والنّفوس، وعلى الأرض، وفي أوضاع الأُسرة والمجتمع والأمّة، والدّولة، والإنسانيّة جمعاء.

وأمانة عمارة المساجد عمارةً مادية بعيدةً عن مظاهر البذخ للدّنيا، وإكبار زينتها، وعمارةً معنويّة دينيّة رساليّة وهي الأهم أمانة لازمة لأعناق المسلمين في كلّ أجيال الحياة. والذود عن دور المسجد، وحماية رسالته، والتمكين من أداء وظيفته، ودرأ التعدّي المعنوي عليه، وتعطيله، وتشويه غاياته واجبُ كلِّ المسلمين الغيورين على إسلامهم، وهم مسؤولون أمام الله عز وجل عن هذا الذّود والحماية.

والمسلمون وأوَّلُهم أئمة الجماعة والجمعة مسؤولون عن إحياء المساجد بالصّلاة، والذكر والتلاوة، وتعليم الإسلام، وتبليغه، وتربية المجتمع عليه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدّعوة إلى العدل، ومحاربة الظلم، والدفاع عن الدين وقيمه وأخلاقه وأحكامه، وفضح الباطل والظُّلم، وما يُكاد به الدين والمؤمنون، وتحذير المجتمع من المضائق والمزالق، والوقوع في حبائل المكر من أعداء الله، وأعداء المسلمين[1]،[2].

---

(١) هذه وظيفة لا يُقتص منها ولا يُنقص، ولا نقبل المس بها على الإطلاق، وعلى المجتمع أن يقف الوقفة الحازمة المتينة القوية في وجه أيّ محاولة لاغتيال دور المسجد. منه حفظه الله.

(٢) خطبة الجمعة (٤١٩) ٢٤ شعبان ١٤٣١هـ ـ ٦ أغسطس ٢٠١٠م.

المسجد بين الاستقلالية والتبعية:

استقلالية المسجد وإمام الجماعة والجمعة وتبعيتهما لجهة رسمية هل يستويان؟

لا أظنُّ أن يذهب ذاهبٌ إلى أن استقلاليتهما وتبعيتهما سواء، ولا أنّ التبعية أولى. وإنّ بين المسجد والمؤسسة الرسمية من حيث الوظيفة صوراً:

الصورة الأولى:

استقلال وظيفي: فالمسجد يتحدّث في أمر، والسياسة تتحدّث في أمر آخر. هذا مشغول بمساحة، وتلك مشغولة بمساحة.

المسجد يتكلّم عن الكفن والقبر والوضوء والغسل والحيض والنّفاس، والسياسة تتحدّث عن الحكم، عن المال، عن الإسكان، عن الاستيراد الحضاري، عن كلّ شيء يهمّ الحياة.

في هذه الحالة لا يكون شغل للسياسة بالمسجد، ولا تعيره اهتماماً، ولا تتشاغل بشأنه أساساً. هذا النوع من المساجد لا يُبذل في مواجهته عليه فلس واحد من قبل السياسة.

الصورة الثانية:

تداخل وظيفي: تتحدّث السياسة في الأحوال الشخصية، ويتحدّث المسجد في الأحوال الشخصية، تتحدّث السياسة في السياحة الحرّة، ويتحدّث المسجد في السياحة الحرّة، السياسة تحتضن الربا، المسجد يرفض الربا، للسياسة طريقتها في تقسيم الثروة، وللمسجد رأيه واقتراحه في تقسيم آخر للثروة، إنّه تداخل وظيفي واحتكاك بين المسجد والسياسة.

وهنا يسهل على السياسة بل يتوجّب على السياسة أن تبذل الكثير من أجل احتضان المسجد، توجيه المسجد، تعديل سياسة المسجد، السيطرة على المسجد.

مرّة تتفق الرؤية بين الطرفين في الأحوال الشخصية، في السياحة الحرة، في الربا، في تقسيم الثروة، في كلّ مجال من المجالات، وهذا ما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله، وفي هذه الحالة يكون تناصر وتكامل وتآزر بين المسجد وبين المؤسّسة السياسية في كلّ مرافقها.

المسجد يدعم السياسة، والسياسة تدعم المسجد، المسجد يعمل على نجاح الدور السياسي في هذه الحالة، والسياسة تعمل على نجاح دور المسجد.

ومرّة يكون اختلاف في الرؤية، -وكلّ هذه المواضيع محلّ اختلاف في الرؤية بين السياسة وبين المسجد- وهذه حالة تُقسّم الأمّة، تخلق الصراع في المجتمع، تجعل السياسة معادية كلّ المعاداة للمسجد، وتضطر المسجد لأنْ يقول الكلمة التي تضير السياسة، وفي هذا الفرض تأتي أهمية المسجد والسيطرة عليه من قبل السياسة.

ومنذ بدايات مفارقة الأمّة خطّ إسلامها بدأت المفارقة بين المسجد والسياسة. وبدأ لونٌ من المواجهة بين المسجد والسياسة، وتكبر المواجهة كلّما شطّت السياسة بعيداً عن طريق الدين، وكلّ ما حرص المسجد على أن يلتزم خطّ الرسالة.

عند اختلاف الرؤية إمّا أن يسكت المسجد على ظلم السياسة، ويتحوّل إلى شيطان أخرس، أو ينطق المسجد في صالح ظلم السياسة ويتحوّل إلى شيطان ناطق، والشيطان لا ينطق إلا بالباطل، والشيطان لا يسكت إلا عن الحق.

تنتهي مشكلة الصراع بين المسجد والسياسة عندما يتّخذ المسجد موقف الصمت من السياسة، ويكون الشيطان الأخرس عن النطق بالحق. ويكون التصالح، والتحاضن، والعلاقة الحميمة، والدعم الهائل للمسجد حين يتحوّل المسجد إلى شيطان ناطق، في نطق بما تريده السياسة، ويكون حقُّ السياسة حقاً عنده، وباطل السياسة باطلا عنده، وصديق السياسة صديقه، وعدو السياسة عدوّه، حينئذٍ يغنى المسجد، ويرتفع الشأن المادّي للمسجد، ويأمن، وتصفّق السياسة للمسجد.

أما إذا اتّجه المسجد إلى الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وقول كلمة الحق، فإنّ العلاقة ستكون مرهقة، وسيتعب المسجد، وإمام المسجد من أذى السياسة، وربما أغلق المسجد وطُرد إمام المسجد بقوّة السياسة.

إذا كانت... [السياسة] ستعطي رواتب بلا تبعية فذاك موضوع آخر، وإذا كانت ستعطي رواتب مع التبعية فهي الكارثة التي لا ريب فيها، وهو الموقف المحرج دينياً، والذي لا يمكن المساومة عليه، ولا اتخاذ موقف الصمت منه. نجح الموقف المعارض أو لم ينجح، فإنّها الوظيفة الشرعية التي لا بدّ منها، والداخلة في الأمر بالمعروف وإنكار المنكر، والقول بالحق.

لا تردّد في أنّ رواتبَ مربوطةً بالتعيين والفصل لإمام المسجد تمثّل انعطافة خطيرة في تاريخ مذهبنا على الأقل، ومفارقةً لخطّ الأئمة عليهم السلام، أقولها صراحة يلزمني الإسلام بها...[1].

---

(١) خطبة الجمعة رقم (٢٤٣) ٢١ ربيع الثاني ١٤٢٧هـ ـ ١٩ مايو ٢٠٠٦م.

المساجد لا تعطَّل:

١ـ المساجد لا تعطّل دائماً ولا مؤقّتاً، ولا كلياً ولا جزئياً، والمساجد لا تُدان ولا تُعاقب، وتوقيف المسجد عن وظيفته الشرعية تعدٍّ عليه، ومخالفة دينيَّة من مرتكبه، ووظيفة المسجد دائماً شرعيّة، وفي خدمة الشريعة، وتكييفها إنّما هي بيد دين الله، وتوظيفها لأهدافه، وهي وظيفة واسعة بحسب أحكامها الثابتة من الدّين.

٢ـ وإمامة الجماعة، وأوصاف وشرائط المتولّي لها موضوع فقهي أحكامه في الشريعة واضحة جليّة، والإمام في مثل زماننا ومكاننا يختاره المصلّون ممن يرغبون في الائتمام به طبقاً للضوابط الشرعية، ومن تقدّم لإمامة الجماعة فللمؤمنين الخيار في الصلاة بصلاته وعدمها تبعاً لتشخيصهم لأهليّته بالنظر الشرعي الذي يحكم المسألة.

٣ـ ولا دخل من الناحية الشرعية لأيّ جهةٍ رسميّة في اختيار الإمام شخصاً أو صنفاً، وأن يكون من أهل رأي سياسي معيّن أو لا يكون...[1].

رأي رجال المسجد:

... في الانتخابات، وفي الشأن السياسي عامّة على المسجد أن يسكت أم له أن ينطق؟ وإذا سكت يسكت حياءً لأنّه لا يملك رأياً له وزنه واحترامه؟ أو يسكت خوفاً من صحافة أو من قانون؟ أو يسكت لمكسبٍ من مكاسب المادّة التي تباع من أجلها الذّمم والقيم؟ وإذا نطق ينطق لرضى من، ولنصرة من؟ وبأيّ كلمةٍ ينطق؟ وعن أي منهج يستقي؟ ومن أيّ رؤية ينطلق؟

---

(١) خطبة الجمعة (٣٥٧) ٢٤ صفر ١٤٣٠هـ ـ ٢٠ فبراير ٢٠٠٩م.

والإجابة:

أن ليس على المسجد أن يسكت، بل ليس له أن يسكت، وهذه فتوى الإسلام الصريحة وسعها صدر الآخرين أو ضاق.

المساجد تمتلك رجالاً امتحنهم درب العلم، ودرب العمل والخبرة، ودرب المخاوف والمواقع والإغراءات، وليس في وزن رأيهم من نقص يجعله يطأطئ أمام رأي الآخرين أو يتوارى، فلرأيهم الوزن الثقيل الذي يستمدّه من قواعد العلم، وعطاءات الخبرة، وهدى الإيمان، على عكس آراء كثيرة خفيفة تنتشر في طول الساحة وعرضها. وعليه لا يمكن أن تسكت المساجد حياء، وكذلك لا يمكن أن تسكت خوفاً، وهي تنطق بكلمة الحق والعدل والصدق والهدى، وتحتمي بحمى الله، وتلجأ إليه، فلا خوف من صحافة وإن جارت كلمتها، ولا خوف من قانون يعارض أن تكون للمسجد كلمته الحكيمة الرشيدة الهادية؛ إذ لا قانون بهذا المضمون مطلقاً، ولو وجد في يوم من الأيام فهو غير شرعي أولاً، وغير دستوري ثانياً، وغير عملي ثالثاً، وهو معارض لحضارة الأمّة وقيمها ودينها وتاريخها بكلّ وضوح، وإنّ قدسية الشريعة فوق كلّ قدسية، وحرمة دين الله فوق كلّ حرمة.

ولا يسكت المسجد ما دام مسجداً، ولا يسكت رجال المساجد وهم كذلك لمكسبٍ من مكاسب الدنيا؛ لأنّ من صنعه الإسلام لا يكون من باعةِ الذمم والقيم.

فمتعيّنٌ جداً أنّ المسجد يمارس حقّه في النّطق كما تمارسه كلّ المؤسّسات، وهو أكثرها تجذّراً، وأشدّها تغلغلاً في وعي الأمّة وضميرها، ولن تُدافع الأمّة في يوم من الأيام عن مؤسّسة دفاعها عن المسجد ووعيه ودوره ورسالته.

والمسجد ينطق بكلمة الدين، وفتوى الشريعة، ونصرته للإسلام والإنسان، ورؤيته إيمانية، ومنطلقه قرآني، ومنهجه رباني.

والمسجد يطلب رضا واحدٍ لا أكثر. لا يطلب إلا رضا الله، ولا ينظر إلا إليه، هكذا هو المسجد، وإلا لم يعد مسجداً حقاً، أو قل كما هو أدقّ: إنّه مسجد خانَه رجالُه. وكلّما كان المطلوب هو مجتمع الصدق والحق، والعفة والاستقامة، والإنصاف والعدل، والتعاون على الخير، والتفاني في مصلحة الآخرين؛ اشتدّت الضرورة للمسجد، ودوره الكبير البنّاء، وصياغته للشخصية الإنسانية الإيمانية التي تعيش للآخرين أكثر مما تعيش لذاتها. والقضاء على المسجد ودوره قضاء على هذا المجتمع، وقطع للطريق السالك إليه[1].

(١) خطبة الجمعة (٥٧) ٢٠ صفر ١٤٢٣هـ - ٣مايو٢٠٠٢م.

وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا

المؤسّسة الدّينيّة غير المستقلّة.. الأخطار والنّتائج (المسجد مثالاً)

الشيخ عزيز حسن الخُضران

الملخّص:

يشير الكاتب في مقالته إلى أهميّة استقلاليّة بيت الله عن سلطة الطواغيت؛ لكي تظهر الأهداف التي بُني من أجلها، ثم يبيّن بعض الأخطار والآثار المدمّرة على الدّين والأمّة، بسبب سيطرة الطواغيت على المسجد، ثمّ يختم مقالته بإشارة إلى رأي الإماميّة في رفض تمكين الحكّام من المسجد ورأي العامّة بقبول ذلك.

المقدّمة:

بسم الله الرّحمن الرّحيم، اللّهم صلّ على محمّد وآل محمّد.

يعتبر المسجدُ أعظمَ وأكبرَ مؤسَّسةٍ دينيّة، المؤسِّس لها هو ربُّ العزَّة والجلال، والقائم الأوَّل عليها هو خيرُ الأنبياء صلّى الله عليه وآله، والأعوان على بنائها هم المؤمنون الخُلَّص.

كان المسجدُ هو اللبنة الأولى الّتي انطلق منها الإسلام، ففي بيت الله الحرام انطلقت أعظم دعوة إلهيّة، ومنه قام النّبي صلّى الله عليه وآله بجهاده الّذي كانت خاتمته تحطيم الأصنام الحجريّة والبشريّة في تلك الدّيار المقدَّسة، ورجع البيتُ الحرامُ مكاناً للعبادة والتّوحيد وقوّة للمسلمين كما أراده الله تعالى حين بناه أبونا آدم، وحين أقام قواعده إبراهيم الخليل.

ولا زال المسجد ببركة جهاد النّبي صلّى الله عليه وآله والأئمّة الطّاهرين عليهم السلام محلًّا لاحترام جميع المسلمين وتقديسه وتعظيمه.

ولا زال المسجد -كما هو- المؤسّسةُ الدّينيّة الكبرى والعظمى الّتي يتربَّى فيها المؤمنون.

ولا زال المسجد هو سرُّ مصدرِ قوَّة المسلمين وشدَّة شوكتهم.

ولا زال المسجد هو محلُّ اجتماع المسلمين، وموحِّد كلمتهم.

كلُّ هذا يجعل من المسجد محلًّا لأنظار الأعداء، وسبباً لمكائد الفجَّار؛ ولذا حُوربَ المسجد ولا زال، أمَّا الكفَّارُ الصِّراح فقد يئسوا منه، ولكنَّ الخطر الأكبر والأعظم إنّما هو من منافقي الحُكَّام، ومن عبدةِ الدّرهم والدّينار، وعلماءِ البلاط

الّذين لا ورع ولا دين لهم؛ حيث ساهموا في ضياع رسالة المسجد، بل جعلوهُ منبراً لإضلالِ النَّاس وضياعهم، ومقرّاً لتعاسة المسلمين وإذلالهم.

ومن هنا لا بدَّ من الحديث عن أهميَّة استقلال المسجد، وتحريرِه من قيودِ المفسدين، وبيان خطورة ارتباطه بأعداء الدّين وجعله ألعوبة بيد المنافقين، لتعي الأمَّةُ بعضَ مواضع قوّتها الّتي سُلبتْ منها، وبعض أسباب تخلّفها وضياعها.

والكلام في أمور:

الأمر الأوّل: الأهداف الرّئيسة للمسجد

لا تخفى مكانة المسجد في الإسلام، ولا يخفى الحثُّ الشَّديدُ على بناء المساجد، خصوصاً في صدرِ الإسلام، بل حتّى بعد انتشار الإسلام، فعن أبي عبيدة الحَذّاء، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «**من بنى مسجداً بنى اللهُ له بيتاً في الجنَّة**»، قال أبو عبيدة: فمرَّ بي أبو عبد الله عليه السلام في طريق مكَّة وقد سوَّيتُ بأحجارٍ مسجداً، فقلت له: جعلت فداك، نرجو أن يكون هذا من ذلك، فقال: «**نعم**»[1].

ومن أهمِّ وأعظمِ أهدافِ المسجد هي ما يلي:

أوّلاً: إظهارُ عبادةِ الله تعالى في الأرض، فكلَّما كثُرت المساجد كَثُرَ المصلُّون فيها، وبالتّالي ظهرت عبادة الله تعالى بصورة أبرز وأكبر، فكما أنَّ العبادة السّريّة مطلوبة كقيام الليل لكونها أقرب إلى الإخلاص، فكذلك العبادة العلنيّة مطلوبة لكونها سبباً لنشر الدّين وإظهار التّوحيد في الأرض.

---

(١) الكافيّ، الكلينيّ، ج٣، ص٣٦٨.

ثانياً: إظهارُ العبوديّة والرّبوبيّة لله تعالى وحدَه، بمعنى أنَّ الطّاعة، والعبادة، وانشغالَ الإنسان، وهمَّه وفكرَه يجب أن يكون لله تعالى وحدَه وليس للمخلوقين، وهذا واضح؛ حيث نرى انشغال المسلمين في الصّباح والظّهر والمساء بالذّهاب إلى المساجد وترك حوائجهم المهمَّة ومشاغلهم الدّنيويّة، وأصلُ تشريع الصّلاة وإن كان يحقِّق هذا المعنى ولكنَّه غيرُ ظاهر للجميع إذا كانت الصّلاة في المنزل أو محلِّ العمل مثلاً.

ثالثاً: ذكر هموم المسلمين وأهمِّ قضاياهم، وهذا يبرز أكثر من خلال صلاة الجمعة والّتي تخصَّصُ فيها الخطبةُ الثّانية لذكر أمور المسلمين وقضاياهم.

رابعاً: لقاءُ المؤمنينَ واجتماعهم على أساس التّقوى، وإظهار قوَّتِهم وقوَّة الدّين والإسلام، فإنَّنا لا نجدُ هذا الاجتماع المتكرِّر بشكل يومي وفي أكثر من مرَّة في اليوم إلّا في الإسلام.

الأمر الثّاني: المسجد بين الماضي والحاضر

كان المسجدُ في زمن النّبي صلى الله عليه وآله -بالإضافة إلى قيامه بالأهداف السّابقة المذكورة- مركزاً لإصدار القرارات المصيريّة، وتنظيم جيوش المسلمين، ومحلَّ القضاء بين المتخاصمين، ومكاناً لحلِّ مشاكل المسلمين وقضاءِ حوائجهم، وباصطلاح اليوم كان محلَّ السّلطة القضائيّة والتّشريعيّة والتّنفيذيّة، وكانت كلُّها بيد النّبي الأعظم صلى الله عليه وآله.

ولمّا سُلبت الخلافةُ بعد رحيل النّبي صلى الله عليه وآله ظلَّ المسجدُ يؤدِّي نفسَ تلك الأدوار والأهداف، إلّا أنَّ القرار لم يكن عند أهلِه وهم أهل البيت عليهم السلام، وعلى رأسهم أمير المؤمنين عليه السلام.

وكانت المساجدُ في مختلفِ المُدنِ الإسلاميّة بيدِ الوالي المعيَّن من قِبَلِ الخليفة، وكان هو الّذي يؤمُّ النَّاسَ في الصّلاة ويخطبهم يوم الجمعة.

وأمَّا اليوم فكما نرى ومنذ زمن بعيد ابتعد الحكَّامُ عن إمامة النَّاس في المساجد أو قيامهم بالخُطَبِ في صلوات الجمعة، بل لا تجدهم في المساجد إلّا في بعض المناسبات، ويكونون مأمومين وليسوا أئمّةً في الصّلاة.

ولكنَّهُم حيثُ يُدركونَ أهمّيَّة المسجدِ، ومدى تأثيرِه في نفوس المسلمين، وشدَّة علاقة المؤمنين بالمسجد وتقديسهم له، واعتقاد النّاس في أئمَّة الجماعة والجمعة، واستماعهم لأقوالهم وأوامرهم، راح الحكَّامُ يمسكون بقدر ما استطاعوا بهذا المنبر العظيم، والمكان المقدَّس، وجعله تحت سيطرتهم ومراقبتهم، بل وفي كثيرٍ من الأحيان داعماً لسلطانهم، ومبرّراً لأفعالهم وما يقومون به.

الأمر الثّالث: أخطار سيطرة الحُكّام على رأي المسجد

بالنّظر إلى الأهداف الّتي سبق ذكرُها للمسجد، يتبيَّن مقدارُ الخطر من جعل المسجد رهن أهواء الحُكَّام الفاسدين والمنحرفين عن الإسلام.

فبالإضافة إلى منع تحقُّق تلك الأهداف المقدَّسة بشكلِها الكامل والصّحيح والمؤثِّر، فإنَّ المسجد يكونُ حينئذٍ أداةً لهدمِ الإسلام ومحاربتِه ولكن بشكلٍ ملتوٍ، يتناسب مع طريقة المنافقين في مواجهتهم للإسلام.

فقد يبني الحاكم الفلاني أو الملك أو السلطان أو الأمير -على اختلاف التّسميات الّتي اتّخذها الحكّام لأنفسهم- مسجداً فخماً يسعُ آلاف النّاس، ويُصرَف عليه الأموال الطّائلة من بيت مال المسلمين، ولكنَّه يكونُ أشبهَ بمسجدِ

ضِرارٍ الّذي أمرَ اللهُ تعالى نبيه ﷺ بهدمه؛ لكونِه معول هدمٍ وتفرقةٍ وفتنةٍ.

ويمكن أن نُبرِزَ مجموعةً من الأخطار الّتي تترتَّبُ على سيطرةِ الحاكمِ على قرارات المسجد وسياستِه الدّينيّة الّتي جعلَها اللهُ تعالى، ونلخِّصُها في النّقاط التّالية:

الخطر الأوَّل: تفريغ العبادة من مضمونها

أوَّل الأخطار لسيطرة حكَّام الدّنيا على المسجد هو تفريغُ العبادةِ من حقيقتِها ومضمونِها الكبير؛ وذلك لأنَّ العبادةَ إذا لم تكن باختيار العبد وفق ما أمرَ اللهُ تعالَى، لا تكون لها قيمة، والصّلاة في المسجد إذا كان لها أدنى ارتباط برضا الحاكم وعدم سخطه فإنَّها سوف تؤثّر على روحيّة تلك العبادة.

بل إنَّ التّوحيدَ يختلُّ من حيثُ يشعر الإنسان أو لا يشعر؛ لأنَّ العبادة الخالصة لله تعالى يجب ألّا يكون لغير الله تعالى دخلٌ فيها، ولا في كيفيّتها وما يصاحبها، ولا في مكان انعقادها، فإذا كان المسجدُ رهنَ إرادة الحاكم، وشعَرَ فيه المصلّون أنَّ أداءهم للعبادة في المسجد إنَّما هي بالكيفيّة الّتي لا يسخطُ منها الحاكم، وأنَّ المسجد فقط لهذه العبادة الخاصّة دون غيرها من الأمور والأهداف الّتي وجد المسجد لأجلِها، فإنَّ رضا الحاكم حينئذٍ سيكون محطَّ أنظارهم بشكلٍ واضحٍ أو خفيّ، فلا تكون العبادةُ خالصةً لله تعالى.

الخطر الثّاني: إهمال قضايا الأمَّة وهمومها

قلنا: إنَّ من أهداف المسجد ذكر هموم الأمَّة ومشاكلِها وقضاياها المهمَّة، وهذه من أهمِّ قيم المسجد ورسالاته، وحيثُ يكون إمامُ المسجد وخطيبُها مقيّداً برضا الحاكم فيما يطرح من قضايا، فلن يستطيع طرح أيّة قضية -مهما كانت مُهمَّة- إذا خالفت هوى الحاكم!

وهناك نوعان من القضايا؛ داخليّة خاصّة بنفس البلد، وخارجيّة عامّة بكلّ المسلمين.

والخطيبُ لن يستطيعَ طرحَ القضايا العامَّة فضلاً عن القضايا الخاصّة التي ترتبط بمصالح الحاكم مباشرة.

وهذه خسارة كبيرة للإسلام والمسلمين؛ حيثُ هذه الآلاف وعشرات الآلاف من المساجد، ويحضرها الملايين من المسلمين، ولكنَّهم لا يجدون من يتكلَّم حول همومهم، وقضاياهم المهمَّة والملحَّة.

فمن أعظم المساجد الّتي يجتمع فيها المسلمون من كلِّ أقطار العالم المسجد الحرام، والمسجد النّبويّ الشّريف، ولكنَّك لا تجد أنظار المسلمين متوجّهة إلى الخطباء فيهما، ولا تجد الإعلام يركّز على ما يطرحه أئمّة الجمعة، لماذا؟!

أليس الجدير بهذا المنبر -وهو منبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ- أن يطرحَ قضايا الأمَّة من دون التباسٍ ولا اعوجاج، ومن دون مراعاة رضا المخلوقين؟!

أليس هذا المنبر يجب أن يكون لكلِّ المسلمين في العالم حظٌّ فيه؟!

ومن العجب العجاب أن ترى أهمَّ قضيّة إسلاميّة يعيشها المسلمون اليوم، وهي قضيّة القدس الشّريف، وفلسطين المحتلّة لا يذكرها أولئك العبيد لغير الله تعالى!!

هذا حال القضايا العامّة الخارجيّة في هذا البلد أو ذاك، فكيف نتوقّع حال القضايا الدّاخليّة الهامّة، كالفساد، والانحلال، والظّلم، فهل يستطيع أئمّة الجمعة المتعلِّقين بأذيال الحكّام أنْ يطرحوا تلك القضايا صريحاً أو تلميحاً؟!

الخطر الثّالث: محاربة الإسلام والمسلمين

هنا، لا يقف الخطرُ على إهمالِ قضايا الأمَّة، بل ترى إمام المسجد -حيث يرى أنَّ الحاكمَ هو ربُّ نعمتِه- يحاولُ قدرَ المستطاع أن يقف مع الحاكم وإن كان ظالماً وفاسداً، وحيث لا تخلو البلدان الإسلامية من بعضِ المؤمنين الواعين الّذين لا يسعهم السّكوت على ذلك الفساد والإفساد، فتكون مواجهة -بشتّى الصّور- بين المؤمنين وبين الحاكم، فيكون إمامُ المسجد وخطيبُه بين أن يقف مع الحقِّ فيخسر وجاهته ومورد رزقه، وبين أن يقف مع الحاكم فيحفظ دنياه بخراب آخرته.

والواقع الخارجيّ يشهد بأنَّ من يسلِّمَ أمرَه في إمامةِ المسجد بيد الحاكم؛ فإنَّه في الغالب ينحازُ إلى مصلحته الخاصَّة الدّنيويّة على حساب مصالح المؤمنين والأمَّة، فتراه سيفاً مشهوراً بيد الظّالم على المظلومين، خصوصاً في الدُّولِ الشَّديدةِ الدّيكتاتوريّة والتّجبّر، حيث لا يُمهَلُ المتجرئ على مخالفة الحاكم مهما كانت خدماته ومكانته.

الخطر الرّابع: مدح الحاكم وتبرئة ساحته

هنا يتعدَّى الخطرُ أكثر من مجرَّد محاربة المؤمنين، وتهون عندها المصائبُ الّتي تقع عليهم؛ فهناك أناسٌ كثر لهم مصالح وهم يقفون مع الحكّام -كما نراهم في كلِّ مكان وزمان-، وقد يحاولون أيضاً خداع النّاس وتبرير أفعال الحكّام وفسادهم الظّاهر، ولكنّ ذلك -رغم خطورته- لا يكون باسم الدّين والإسلام.

وأمَّا إمامُ المسجد وخطيبُه فإنَّه يتكلَّم باسمِ الدين، وهو في هذا الموقع -ويريد أن يجمع بين الوقوف مع الظّالم وبين التّظاهر بالتّمسّك بالدّين- لا يستطيعُ إلّا أن يبرِّرَ الفساد والظُّلمَ، وحينئذٍ سوف يختلقُ مبرِّراتٍ للفساد باسم الدّين، ويكذّب ويفتري على الله تعالى بنسبة كلِّ ما يقوم به الحاكم بالإسلام، وهذا ما نراه جليّاً اليوم.

خذ مثالاً فيما يجري على سوريا اليوم، فسابقاً كان الخروج على الحاكم -وإن كان فاسداً- من الكبائر والعظائم، وفي ليلة وضحاها أصبح ذلك جائزاً -وإن استلزم سفك دماء المسلمين- لدى أشدِّ النَّاس تخلُّفاً وأكثرُهم التصاقاً بالحُكَّام! لماذا؟ لأنَّ السُّلطان هكذا رأيه!!

وفيما يتعلّق بالفساد وتبريره، فنحن نرى بلداننا الإسلامية يباح فيها الخمر، وأماكن الدّعارة، والفجور، وسائر المنكرات، وهذا ليس هو الغريب؛ إذ إنّنا نعتقد أنَّ الحكام إن لم يكونوا معادين للإسلام فهم -على أقلّ التّقادير- غير مهتمّين بمصلحته، وغير متقيّدين بأحكامه.

ولكنّ الغريب أن يتمّ تبرير ذلك من قبل علماء البلاط بشتّى المبرّرات الّتي ما أنزل الله بها من سلطان، فيبرّر مثلاً بيع إنتاج الخمور وبيعها في البلد بحجَّة أنَّ

منعها يؤدِّي إلى فقد السّياحة الّتي تدرُّ على الدّولة أموالاً كبيرة!!

أو تبرّر الدّعارة الحرّة بحجّة أنّ الّذين يقومون بها غير مسلمين، والبلد يكفل الحريّة للجميع! والأعجب والأنكى أنَّ نفس الأشخاص الّذين يبرّرون هذا التّبرير يحارِبون النَّاس إذا خرجوا وطالبوا بحرّيّتهم بحجَّة عدم جواز مخالفة السّلطان، فأصبح السّلطان هو الدّين، وهو المقياس للحقّ والباطل!

ومع كلّ هذا يجب على الخطيب ألّا يختم خطبته إلّا بمدح الحاكم وأن يسأل الله له التّوفيق والسّداد أكثر في خدمة الدّين والمسلمين!!

الأمر الرّابع: الآثار المترتّبة على ذلك

هناك آثارٌ خطيرةٌ تترتَّبُ على ما سبَقَ من أخطارٍ، تتعلَّق بنظرةِ النَّاس إلى الدِّين، وبثقة المسلمين بدينهم، وربّما خروجهم من الدّين بسبب ذلك، وما أعظمها من محنة ومصيبة حينما يصبحُ المسجدُ سبباً لنفرةِ النَّاس عن الدِّين بدلَ أنْ يجذبهم إليه!

وهنا يتحمَّل هؤلاءِ وزراً كبيراً سيحاسبون عليه في يومٍ لا يُغني سلطانٌ أو حاكمٌ عنهم شيئاً.

وهذه الآثار يمكن ذكرُ أسبابِها بشكلٍ موجز فيما يلي:

الأثر الأوّل: أوَّل أثرٍ لما سبق من مخاطر أنَّ كلام إمام المسجد في أمور الدّين لن يكون له أثر يذكر، ولن يتَّعظَ النّاسُ بمواعظه؛ لأنَّ النَّاس سيرون الازدواجيّة بين قوله وعمله، فحينما يتكلَّم الخطيب مثلاً عن عدم جواز ظلم النّاس لبعضهم

البعض، بينما يرونه في نفس الوقت يؤيّد ظلم الحاكم، أو يسمعون الخطيب يتحدَّث عن الزّهد في الدّنيا وفي المقابل يبرِّر عيشة الحكام الفارهة والمتخمة، فهل يا ترى سيتأثّرون بمواعظه فضلا عن تطبيقها؟!

الأثر الثاني: ومن الآثار الخطيرة لارتباط إمام المسجد بالحاكم وهواه هو الاعتقاد بأنَّ ما يقوله هو رأي الدّين، وحينها أيُّ قبحٍ يصدر، أو تبريرِ ظلم، أو شهادةِ زور، سينسب إلى الدّين، وينتج عن ذلك تشويه صورة الدّين ومنظومته الفكريّة والقيميّة، والتباسها على النّاس، وبالتّبع ربّما لا يقبل النَّاس رأي الآخرين المخالفين لهؤلاء.

الأثر الثالث: حينما يرى النَّاسُ أنَّ ما يُطرحُ في منبر المسجد لا يتطرَّق إلى همومهم الحياتيّة بشكلٍ واضحٍ وصريحٍ، ولا يساهم في حلِّ مشاكلهم، والحال أنَّه يمثِّل -ظاهراً- رأي الإسلام، وهذا يعني أنَّ الخللَ في نفسِ الإسلام، وأنَّ الدّين غيرُ شاملٍ لكلِّ الجوانب الّتي يحتاجُها النَّاس، وسيصدِّق النَّاس مقولة أنَّ الدّين والإسلام لا يهتمُّ إلّا بالأمور العباديّة الشّخصيّة الّتي لا ربط لها بالمجتمع وقضاياه المهمَّة، بينما العكس هو الصّحيح، ولم تُشرَّعُ الجمعة إلّا لاجتماع النّاس لسماع ما يهمُّ دينهم ودنياهم، والخطبة الثّانية أصلاً مخصّصةً لذلك.

الأثر الرابع: ربّما ينسب البعض من خلال ما يراه من أئمّة المساجد المرتبطين بالحاكم أنَّ الإسلام يشرِّع النّفاق؛ لأنَّ الدّين -حينئذٍ- إذا كانَ يوجبُ طاعة الحاكم حتّى لو استلزم ظلم النّاس والعدوان عليهم، وضياع دنياهم، فهذا يعني

أنَّ الإسلام يأمر بمصانعة الحكام إلى أبعد الحدود، في الوقت الّذي يدّعي فيه أنَّه دين الحقِّ، والصّدق، والجهاد، وهذا عين النّفاق.

وكذلك إذا سمعوا إمام المسجد يركِّز على عدم جواز استخدام الدّين في السّياسة، فيجب أن يُجنَّب المسجد الأمور السّياسيّة والاجتماعيّة وما يهمُّ النّاس، فكيف يجمع بين ذلك وبين دعاء أئمّة الجمعة والجماعة للحُكَّام ومدحهم وتمجيدهم، ومباركة أعمالهم حتّى السّياسيّة؟!

أليست هذه سياسة ينتفع منها الحكام، بينما الدّعوى أنَّ الدّين لا دخل له في السّياسة؟!

وكلُّ هذا باسم الدّين، وهذا يعني أنَّما يتعلَّق بمصلحة النَّاس لا يجوزُ إقحامُ الدِّين فيه، بينما ما فيه مصلحةُ الحاكم فهو جائزٌ بل واجب؟!

الأثر الخامس: وممَّا تقدم من آثار ينتج لنا خطرٌ عظيمٌ، وهو نفور النَّاس من الدّين، وابتعادهم عنه؛ لأنَّه بنظرهم متخلِّف، ولا يلبّي حوائجهم، ولا دخل له في الأمور السّياسيّة والاجتماعيّة، وهذا ما يصرِّح به نفس أئمّة المساجد المرتبطين بالحكّام، وهؤلاء النَّاس على فرض تمسّكهم بدينهم فإنَّهم سيتمسَّكونَ به فقط في الأمور العباديّة الخاصّة، وأمَّا في المجالات الأخرى الاجتماعيّة والسّياسيّة وغيرهما فإنَّهم سيبحثون عن رؤى أخرى ينضمُّون تحتها، ويعملون من خلال أفكارها.

ومن مساوئ وُعَّاظِ السَّلاطين أنَّهم يحاربون ما يسمُّونَه (الإسلام السّياسيّ) بكلِّ أشكالِه، ويحذّرون النَّاس منه، وأنَّه خلاف ما يأمر به الدّين، وأنَّ الدّين إنّما

بالارتباط بالحكّام تحت مسمّى (ولاة الأمر)، وأنَّ الصَّلاح في الأخذ برؤية الحاكم في الأمور الاجتماعيّة والسّياسيّة في كلِّ الظّروف والأحوال، فهنا تنقلب الموازين، وتضيع الحقائق، ويتيه المسلمون.

ونحن لا ننكر أنَّ كثيراً ممَّن يتحرَّك في السّياسة باسم الإسلام لا يمثِّلُ الإسلام من بعيد أو قريب، ولكن هذا لا يعني جواز أنْ ننفي رؤية الإسلام في السّياسة وفي المجالات الأخرى، فضلاً أن نعطي هذا الحقّ للحاكم في عمل ورؤية ما يشاء وحسب أهوائه.

والنّتيجة من هذه الآثار:

* تشويه سمعة الدّين ومنظومته الفكريّة والاجتماعيّة والقيَميّة.

* عدم ثقة النَّاس بكلِّ ما يطرح باسم الدّين، لعدم ثقتِهم بالعلماء المتصدِّين للمسجد.

* عدم إمكان النَّهي عن المنكر ومعارضة الظُّلم الّذي يصدرُ من ذلك الحاكم.

* جعل المسجد أداةً لتعظيم الحكّام ومدحهم والغلوّ في دعوة النّاس في اتّباعهم.

* ضعف إيمان النّاس بالدّين والإسلام، وربّما الخروج منه، بل ومحاربته في شتّى الميادين.

الأمر الخامس: رأي الشّيعة والسّنّة وسيرتهم في ذلك

هناك اختلاف منهجيّ وعَقَدِيّ في مسألة استقلال المسجد عن السّلطات والحكّام بين أتباع أهل البيت عليهم السلام وبين عامَّة المذاهب الأخرى، وقد يكون للحكَّام أنفسهم دورٌ في خلقِ هذا الاختلاف.

رأي الشّيعة:

فإنَّهم -تبعاً لأئمّتهم عليهم السلام- يرون ضرورة استقلال هذه المؤسّسة الإلهيّة الكبرى، ولا يجوز بحالٍ من الأحوال تمكين الحكَّام وأهل الجور بأن يكون لهم أدنى تدخُّل في هذه المؤسّسة، لا تعيين إمام الجماعة، ولا خطيب الجمعة، ولا تعيين ما يجب طرحُه وما لا يجوز تناوله، وكذلك النّشاطات الأخرى للمسجد من فعاليات ودروس وتعليم وما شاكل.

وحتّى الجانب الماليّ لا يجوز فيه الاعتماد على الحاكم إذا كان الغرض تمكينه من المسجد بأيِّ شكل من الأشكال، فضلاً عن أن يأخذ مالاً مقابل إمامة الصّلاة والجمعة.

وسببُ هذه الرّؤية عند الشّيعة هو أنَّ الحكَّام في سائرِ الأزمان على ظاهر الانحراف والفسوق والفجور، وإذا ما تظاهرَ أحدٌ منهم بالتّديُّن فإنَّه لا يستطيعُ إخفاء شغفِه بالدّنيا، وظلمه للأمَّة، واستخفافه بأحكام الدّين، وتمكينه لأعداء الإسلام.

وها نحن نرى حكّام اليوم، وكيف أنَّهم يعيشون حياة التّرف والإسراف،

والانصهار في الدّنيا، وحياة القصور، وإهمال رعاياهم وتركهم للفقر والأسى، وتمسّكهم بالملك مهما ترتّب على ذلك من مفاسد.

وعلى كلِّ حال، فالشّيعة يرون عدم جواز ارتباط أيّ مؤسّسة دينيّة بالحاكم، وعلى رأسها المسجد.

رأي السّنّة:

تنطلق رؤية أهلُ السّنَّة في هذه المسألة وغيرها من المسائل الدّينيّة من عقيدة تحتاج منهم أن يعيدوا النَّظر فيها، وهي نظريَّة (أولو الأمر)، فالحاكمُ في نظرِهم هو وليُّ الأمر الّذي أمرنا بطاعته واتّباعه وعدم مخالفته، وطاعته من طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وآله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾(النّساء: ٥٩)، وأنَّ في طاعته الخير والبركة، وأنَّ ذلك أصلح من معارضته وإن كان فاسداً منحرفاً.

ولهذا فهو الّذي يعيِّنُ حتّى المفتي كما نراه في مصر مثلاً! فضلاً عن سيطرتِه التامَّة على المساجد وتعيين خطبائها وأئمّة الجمعة والجماعة فيها، فكأنَّه يقومُ مقامَ رسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك.

ويكون إمامُ المسجد بمنزلة الموظَّف الّذي لا يجوز له مخالفة وظيفته، فما يقوله محدَّد في إطار معيَّن، وما يطرحُه لا بدَّ أن يكون موافقاً لسياسة الحاكم باسم (رعاية القانون) وحفظ المجتمع من الفوضى.

ولا أريدُ هنا أن أتحدَّث باسم السّنَّة فهم أعرف بأحوالهم وآثار ذلك على دينهم ومجتمعاتهم، ولكن هذا ما نراه في الواقع؛ حيث يكون أئمّةُ المساجد لديهم

مقيَّدين، وتراهم في الغالب مع سياسة الحاكم مهما ابتعد ذلك الحاكم عن الدّين، ومهما اشتهر فسادُه.

ومن الأمثلة الواقعيّة المعاصرة تونس مثلاً، فكان زين العابدين مثلاً مسيطراً على المسجد بشكل هائلٍ جداً، بل حتّى حضور المسجد يحتاج إلى إجازة خاصَّة كما قيل، وكانت أئمّة المساجد تسبّح بحمده، وتسير وفق هواه، ولا تستطيع مخالفته باعتبار أنَّه (وليُّ الأمر)، وطاعتُه فيها الصّلاح، وفجأة أصبح منبوذاً وفاسداً، ويجب خلعُه، فما الّذي تغيَّر في زينِ العابدين قبل الثّورة عليه حتى تغيَّر الحكم؟!

مقارنة بين رأي المدرستين وسيرتهم العمليّة:

بلحاظ ما ذكرناه، يتبيَّن الفارقُ الجوهريّ بين رأي الشّيعة ورأي السّنَّة في مسألة استقلال المسجد، فأهلُ السّنَّة يرتبطون بالحاكم حتّى في الشّأن الدّينيّ، ويلتزمون بذلك، وينظّرون له فقهيّاً، بل وتراهم يتشدَّدون في مسألة الخروج عن عباءة الحاكم، ولعلَّ كلّ ذلك تحت عنوان أنَّ الحاكم هو (ولي الأمر)، وقد أُمرنا بطاعته وعدم مخالفته.

وعلى النّقيض تماماً ترى الشّيعة حيث يعتبرون تمكين الحاكم في الشّأن الدّينيّ بشكلٍ عامّ، وفي المسجد بشكلٍ خاصّ من الكبائر غير المغتفرة؛ وسبب ذلك أنَّ الحُكَّام في نظرهم لا يمثّلون الدّين، بل لهم أجندة خاصّة وضيِّقة تتعارض مع أهداف الدّين، وليست لهم الولايّة على النّاس، والواقع الإسلاميّ منذ الخلافة الأولى وإلى يومنا هذا يشهد على صحة ما يذهب إليه الشّيعة.

والولاية على المؤسّسات الدّينيّة يجب ألّا تكون إلّا لمن تتوفّر فيه صفاتٌ

كالعلم والفقاهة، والدّرجة العالية من التّقوى وترك الدّنيا.

وبناءً على هاتين الرّؤيتين يتبيّن أنَّ الآثار الخطيرة والنّتائج المتقدّم ذكرها تبرز أكثر عند السّنة؛ حيث إنَّهم -كما قُلنا- لا يرون ضرورةً في استقلال المسجد، والنّتيجة تلاعب الحاكم في هذه المؤسّسة الإلهيّة العظيمة.

وقد يقال: بأنَّ الشّيعة -حيث يعتمدون على مبدأ التّقية مع الحاكم- أيضاً لا يخالفون الحكّام بشكل عامّ في نشاطاتهم المسجديّة، ومساجدهم تحت وزارة الأوقاف وشؤونها التّابعة للدّولة الحاكمة، وهذا يعني تابعيّتهم للحاكم مثل السنَّة، وأمَّا من يخالف ذلك من الشّيعة فهم قلّة لا يمثّلون الحالة العامّة.

والجواب:

أوّلاً: إنَّ الكلام ليس في الخروج على الحاكم ومناكفته أو معارضته، وإنّما في تمكينه من المسجد، فمن الواضح اتّفاق الشّيعة قاطبةً عدم قبولهم لفرض الحاكم إمام الجماعة وخطيب الجمعة وما شاكل ممّا يرتبط بالمسجد.

ثانياً: هناك فرقٌ عَقَدِيٌ بين الشّيعة والسّنّة في النّظر إلى الحاكم؛ فالسّنّة يعتبرون الحاكم كالخليفة الواجب الطّاعة والامتثال؛ ولذا يرون أنَّ إمساكه لشؤون المسجد من صلاحيّته كوليّ للأمر، بينما الشّيعة يعتقدون أنَّ الحاكم مغتصب لهذا المقام، ولا شرعيّة دينيّة لحكومته فضلاً عن ولايته على المسجد، نعم -كما قلنا- لا يخرجون عليه تقيّة بأمر الأئمّة عليهم السلام، وعدم الخروج عليه ليس مطلقاً وفي كلِّ الأحوال أوّلاً، ولا يعني ذلك عدم جواز مخالفته وانتقاده وبيان فساده ثانياً.

ثالثاً: بملاحظة السّيرة العمليّة لعلماء المدرستين وخطباء الجمعة وأئمّة

الجماعة يبرز الفرق بوضوح تامّ، حيث ترى مدرسةً تلتزم بتعظيم الحاكم والوقوف معه في كلِّ الأحوال، وهذا هو الأصل لديها، بينما المدرسةُ الأُخرى الأصل لديها فساد ذلك الحاكم وعدم جواز معاونته والعمل معه، وإنّما تقف معه إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام والمسلمين.

دعوتان لتخليص المسجد من براثن السّياسة

دعوةٌ باطلة: نسمعها في كلِّ مرةٍ يتحرَّرُ فيها المسجد من الحكَّام ليقومَ بدورِه الّذي أُسِّسَ من أجله، فيقال على ألسنة علماء البلاط ومن على منابر المساجد بأنَّ المسجدَ لا ينبغي له أن يتلوَّث بالسّياسة، ويجب أن يبقى منحصراً في عبادة الله تعالى والدّعاء وقراءة القرآن، ولذا لا ينبغي لخطيب المسجد الدّخول في المعتركات السّياسيّة وسجالاتها، ولا تأييد الأحزاب، ولا طرح المسائل الكبرى على السّاحة، فمحلُّها مكان آخر، يعني لا يجوز لك أن تتحدَّث في دائرة السّياسة العامّة والشؤون الاجتماعيّة وما يلحُّ من هموم النَّاس باسم الدّين ومن داخل المسجد، بل ومن أيِّ مؤسّسة دينيّة أخرى، بل اترك ذلك لأهل السّياسة، والمفترض أنَّ هؤلاء السّياسيّين لن يتقيّدوا بالدّين في قراراتهم وكلامهم حتّى لا ينجّسوا الدّين بالسّياسة!!

و**دعوة مُحقَّة**: بتخليص المسجد من نجاسة السّياسة الباطلة للحكَّام، وفكِّ الارتباط بهم، والاستقلال التّامّ عنهم، وعدم تمكينهم من أيِّ قرار يصدر من هذه المؤسّسة الإلهيّة العظيمة، فإنّ تمكين الحاكم من المسجد بالإضافة إلى الآثار السّيّئة

المترتّبة عليه يجعل المؤمنين في حالة ذلّ ومهانة وتابعيّة، فكيف يمكن تصوّر أن يكون الدّين تابعاً للحاكم، بينما لا يصحُّ أن يكون الحاكم هو التّابع للدّين؟! فكم هي جريمة عظيمة جدّاً يتحمّل وزرها جميع وعّاظ السّلاطين وأتباع الحكّام حينما أفقدوا المسجد قيمته الكبيرة، ومنعوا تحقيق أهدافه المقدّسة، والأسوأ أنّ ذلك باسم الدّين!!

وقد يقول قائل: إنَّ هذا الكلام إنشائيّ لا واقع له، فإنَّه من غير الممكن استقلال المسجد عن الحكَّام بشكلٍ كاملٍ لأنَّه يقتضي المواجهة معه، وهذا يؤدّي إلى الفتنة والفرقة والفوضى!

ونقول: هذا هروب من المسؤوليّة الملقاة على عاتق العلماء وأئمّة المساجد، فإنَّ نفس هذا المبرِّر هو سبب انتشار الفتنة والفرقة والفوضى، فوضى في الآراء والمواقف حسب مزاج وهوى الحكَّام ومصالحهم الضيِّقة، ثمَّ إنَّ هذا المبرّر فيه تلاعب بالمشاعر ومغالطة في الدّليل.

وقلنا بأنَّنا لا نقصد من استقلال المسجد أن يكون منبراً لمواجهة الحكَّام، ولكن يجب أن يمثِّل الإسلام تمثيلاً صحيحاً وطاهراً من سياسات الحكِّام، فإذا لم تمكن المواجهة فلماذا يكون المسجد ألعوبة؟! ولماذا يرضى هؤلاء الوعَّاظُ والخطباءُ بالتّبعيّة والذلِّ والمهانة؟!

وهل وجد المسجد ليكونَ بوقاً للسّلاطين، ومنبراً للمترفين؟!

أليستْ كلمة الحقِّ لها ضريبةٌ يجب أن يتحمَّلها من يتصدَّى لهذه المهمَّة الخطيرة؟! فإذا ما وجد نفسه ليس بمستوى المسؤوليّة فليتركها لأهلها.

فحينما يتنازل إمام الجماعة وخطيب المسجد عن المسؤوليّة الإلهيّة الملقاة على عاتقه، ويترك الوظيفة الشّرعيّة، ويسلّم للحاكم في كلّ ما يريد فما هو حال عامَّة النَّاس؟!

لو أنَّ كلَّ خطباء المساجد امتنعوا عن تسليم زمام مساجدهم للحكّام أفهل نتصوَّر أنَّ السّلاطين قادرون على مواجهة الأمَّة حينئذ؟! بلا شكّ، سيرغم الحاكم على مماشاة النّاس والتّظاهر -لا أقل- بالدّين، ومراعاة أحكام الإسلام.

بل سيكون المسجد حينئذٍ هو الذي يقيّد تحرّكات الحكام مقداراً ما، بدل أن يكون المسجد أداة له لمحاربة الدّين والأمَّة.

والخلاصة:

إنّ المسجد وُجدَ لأهداف عُليا عظيمة بعظمة الإسلام، وهو أعظمُ منبرٍ يمكن من خلاله نشر الدّعوة المحمّديّة، وهو الممثِّل في نظر النَّاس للدّين والإسلام، فمن يضعُ نفسَه في هذا الموضع يجب أن يكون بقدر المسؤوليّة، وأنَّ تسليم المسجد وربطه بالسّلاطين والملوك، وجعله مؤسَّسةً تابعة للدّولة، يعتبر جريمةً كبرى في حقِّ الإسلام والمسلمين، وتضييعاً للأمانة والرّسالة الّتي جاء بها النّبي صلى الله عليه وآله.

ونختم الحديث بما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: قال الله تعالى: «**إنَّ بيوتي في الأرض المساجد، تضيئ لأهل السّماء كما تضيئ النّجوم لأهل الأرض، ألا طوبى لمن كانت المساجد بيوته، ألا طوبى لعبد توضَّأ في بيته ثمَّ زارني في بيتي، ألا إنَّ على المزور**

كرامة الزّائر، ألا بشِّر المشَّائين في الظّلمات إلى المساجد بالنّور السّاطع يوم القيامة»[١].

وعنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: «**الفقهاء أمناء الرّسل، ما لم يدخلوا في الدّنيا**»، قيل: يا رسول الله! وما دخولهم في الدّنيا؟ فقال: «**اتّباع السّلطان، فإذا فعلوا ذلك فاحذروهم على أديانكم**»[٢].

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

---

(١) ثواب الأعمال، الصّدوق، ص٢٨.

(٢) كتاب النّوادر، فضل الله الرّاونديّ، ص١٥٦.

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

المؤسّسة الدّينيّة في فكر آية الله الشّيخ عيسىٰ أحمد قاسم سلمه الله

السّيّد حسن السّيّد أحمد الغريفيّ

الملخّص:

يسلّط الكاتب في هذه المقالة الضّوء على بعض شذرات الأب القائد آية الله الشّيخ عيسى أحمد قاسم حفظه الله فيما يرجع إلى المشاريع الرّساليّة، وبالتأمّل فيها يتطرّق إلى أهمّ أركان المشروع التّعليميّ وسبل فعاليّته، ثمّ يبيّن أهمّ العناصر الّتي ينبغي توفّرها في الرّساليّ والمشاريع الرّساليّة، ثمّ يختم بذكر نموذج للمشروع الرّساليّ النّاجح وهو المجلس الإسلامي العلمائيّ البحرانيّ.

تمهيد:

حينما يمتزج الفكر بالاستضاءة الإلهيّة والتّجربة الإيمانيّة الحيّة، تكون الكلمات سديدة وتصبح منهلاً للحكمة ومحلًّا لفصل الخطاب، هي كلمات الأب القائد والمربّي آية الله الشّيخ عيسى أحمد قاسم حفظه الله الّتي تدخل القلب، وتملأ العقل، وتستثير الشّعور الحيّ؛ لما تملكه من عمق الفكرة، ودقّة العبارة، والتّجربة الصّادقة الحيّة.

نحاول أن نقف مع إطلالة موجزة وسريعة في رؤية سماحة الشّيخ سلمه الله حول (المؤسّسة الدّينيّة.. فيما لها وعليها)، علّنا نقترب ولو شيئاً من هذا الموضوع الّذي يحتاج إلى بحثٍ بشكل موسّع.

نتناول موضوع المؤسّسات الدّينية- بشكل عامّ- (المسجد والمأتم والحوزة وغيرها من المؤسّسات الثّقافيّة أو الاجتماعيّة..).

الأسس والمنطلقات (المؤسّسة الدّينيّة)

يؤكّد سماحة آية الله الشّيخ عيسى قاسم حفظه الله في العديد من كلماته ولقاءاته بالمؤسّسات والمشاريع الدّينيّة على أسس ومنطلقات رئيسيّة تحتاجها كلّ مؤسّسة ومشروع دينيّ ورساليّ:

أوّلاً: الانطلاقة من فهم رسالة الإسلام

من أجل التّوفّر على الرّؤية الكونيّة الصّحيحة للحياة والنّظام العادل فيها، نحتاج دراسة تعاليم الإسلام من خلال الفهم الواعي والأصيل، وتعظيم الدّين

في النّفوس، مع السّعي العمليّ الجادّ نحو تطبيق الإسلام في جميع مجالات الحياة، وصولاً للدّعوة الخالصة إليه والذود عن حريمه بالبذل والعطاء، بهذه الأبعاد يمكن للمؤسّسات الّتي ترفع راية الإسلام أن تحمل أمانة الإسلام وأن تعتزّ بهويّتها الإيمانيّة وتدافع عنها وتضحّي من أجلها.

ثانياً: التّوفّر على الشّخصيّات الرّساليّة المؤثّرة

وجود النّخبة الصّالحة المؤثّرة الّتي يقوم على عاتقها حمل أمانة الدّين وإقامته في حياتها، مع الالتفات لأهميّة تنشئة وتربية الجيل الصّالح المغيّر، وأن يتوفّر على (الحسّ الاجتماعيّ الغيريّ) كما يعبر سماحته حفظه الله بمعنى "..ألّا يعيش لذاته وفي قوقعة ذاته، منحبساً في همومها وآمالها، وطموحاتها الضّيّقة، إنّما يعيش في حالة انفتاحٍ دائم على هموم الجميع، وحين يستهدف أن يطوّر فهو يستهدف لا أن يطوّر حياته فقط، وإنّما يأخذ على نفسه أن يطوّر مع ذلك حياة الآخرين، وإن كان لا تطوير لحياة الآخرين إلّا بأن تطوّر ذاتك وتطوّر حياتك، يأخذ على نفسه أن يغيّر ما حوله إلى ما هو أحسن من ذلك، وإلى ما هو أكثر تلاءماً مع دور الإنسان لما هو إنسان، ومع سعادة الإنسان في الدّنيا، ومع سعادته في الآخرة، أن يطوّر نفسه، أن يطوّر غيره، أن يطوّر كلّ أوضاع حياته، في الاتّجاه الّذي يتّجه بكلّ ذلك إلى الله سبحانه وتعالى، مقتبساً من جماله، وجلاله، وكماله"[1].

(١) لقاء مع منتسبي مشروع (ممهّدون) في جمعية التّوعية الإسلاميّة ٢٠١٤ م

بناء الأمّة القويّة العزيزة

كما يركّز سماحة الشّيخ سلمه الله دائماً في خطاباته على هدف استعادة الأمّة الإسلاميّة هويّتها المتميّزة وموقعها القرآنيّ المتقدّم، وأن تستعيد عزّتها وكرامتها في ظلّ الإسلام والقيادة الإسلاميّة، وفي مواجهة الهجمة الحضاريّة الجاهليّة الشّرسة على بلاد الإسلام.

وما للمؤسّسات الدّينيّة (المسجد والمأتم والحوزة والمؤسّسات...) من أهمّيّة في ممارسة دورها الحضاريّ المطلوب، من خلال العمل الجادّ المخلص والمنظّم، المستجمع لأسباب النّجاح والتّقدّم والعزّة، وأيضاً من خلال العمل الجماعيّ والمتعاون على الخير، والقيام بالمهام الرّساليّة من الدّعوة والتّربية والتّعليم وتصحيح الأوضاع الاجتماعيّة، كلّ ذلك انطلاقاً من فريضة (الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر)، الّتي طالما حثّ عليها القرآن الكريم وجعلها سبباً لصلاح الأمم والمجتمعات وتقدّمها، بل جاهد في سبيلها الرّكب الطّاهر من الأنبياء والأئمّة الأطهار عليهم السلام والعلماء الصّلحاء والمجاهدين الغيارى ...

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(آل عمران: ١٠٤).

وقال تعالى: ﴿وتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(المائدة: ٢).

يقول سماحته حفظه الله: "...الآخذون بالأمر الإلهي في هذه الآية قوام الأمّة وقلبها النابض وروحها الحيّة وخطّ دفاعها الأوّل ومصدر إشعاعها، والمتخلّفون عنها متخلّفون عن بغية الفلاح والنّجاح والهداية والكرامة..".

"... إنّ تخلُّف أيّ عنصر من العناصر القادرة عن المشاركة بالدّرس والتّدريس، بالمحاضرة، بالنّدوة، بالوعظ والإرشاد، بالعضويّة الفاعلة في هذه المؤسّسة النّافعة أو تلك، بالإسهام الفكريّ، أو المالي، بالحضور، بالتّشجيع والدّعم والمساندة، بالمشورة، بتقديم الخبرة، بتكثير العدد في بعض المواقع، بطلب رفع المستوى الشّخصي بالدّرجة الممكنة في فهم الإسلام، وفهم الوظيفة الإسلاميّة، إنّما يعني تخلّفاً عن (نصرة واجبة) يحتاجها الإسلام كلَّ الحاجة فعلاً".

فَلَمْ تعد مثل المشاركات الّتي مرّ ذكرها من الأمور التّطوعيّة المستحبّة فحسب، بل في الحالة القائمة اليوم حالة هجوم حادٍّ على كلّ الأبعاد، واستهداف شامل لهويّة الأمّة وبقاء الإسلام، لا يمكن صدّ الخطر إلّا بأن تجتمع كلّ الجهود والطّاقات بمختلف مستوياتها وأنواعها في جبهة المقاومة.

وماذا يؤخّر الإنسان المسلم عن الإسهام في المقاومة عن دينه وأمّته؟

بتصوّر أنّه لا خطر على الإسلام؟ هذا سذاجة.

بتصوّر أنّ الواجب واجب الآخرين؟ ويأتي السّؤال هنا: أين إسلاميّ، وأين إسلامك؟

بتصوّر كفاية المتصدّيين؟ لا تقدير دقيقاً في هذا الرّأي على الإطلاق. وهذه رؤية مضلَّلة.

أم من استخفاف بأمر الله سبحانه؟ إنّما هو استخفاف بالنّفس، وإضرار بها، وتعريضها لسخط الله القهّار الجبّار.

أم من خوف على رزق أو أجلّ؟ لا رازق غير الله، وأجلُ كلّ نفس بيد بارئها، وليس غير الله من بارئ.."[١].

أخلاقيّات العاملين في المؤسّسات الدّينية

لا شكّ في أهمّيّة وفائدة العمل المؤسّساتيّ والجماعيّ المنظّم ودوره في تحقيق الغايات والأهداف الكبرى، وتجميع الطّاقات واستقطاب التّخصّصات والقابليّات الشبابيّة الواعدة وتنميتها، كما أنّه الأقدر على مواجهة التّحديات وصعوبات العمل عبر التّعاون الجماعيّ والمشترك ممّا يحقّق المزيد من الإنتاجيّة العالية والوصول إلى الغايات المنشودة.

وهذا يتطلّب من القائمين العاملين في المؤسّسات والمشاريع الدّينيّة التّوفّر على الأخلاقيّات والملكات العالية الّتي تساعدهم على القيام بالمهامّ الرّساليّة والإداريّة على أحسن وجه وأفضل أداء وأقلّ الإمكانات، إذ كما تحتاج المؤسّسات الدّينيّة للكفاءات الإداريّة المؤهّلة في إدارتها، تحتاج في صميم عملها إلى الأخلاقيّات الرّساليّة، والّتي تشكّل ضمانة لسلامة سيرها وفق الأهداف الرّساليّة.

يشير سماحة الشّيخ حفظه الله في كلمة حول واقعنا المؤسّساتي فيقول:

"... يوجد تخلّف على مستوى وعي المسئوليّة والإحساس بها، والرّوح المعطاءة المضحّية، وأخلاقيّة العمل الاجتماعيّ، والإدارة والتّخطيط، والتّنسيق بين الأدوار، والتّكامل بين الأنشطة، وأيضاً نعاني من ضعف إداريّ كبير وراءه

(١) لقاء أبويّ مع مشاريع التّعليم الدّينيّ للنّساء في مأتم الإمام علي عليه السلام بقرية أبو قوّة يوليو ٢٠١٠م

خلفيّة من قصور على مستوى الفعل لا الاستعداد، وخلفيّة من تقصير واضح، الجمعيّات وأنشطة المساجد والحسينيّات تقوم على أسلوب إداريّ من درجات مختلفة، ولكنّها في مجملها تتّصف بالتّخلّف الّذي قد يصل في بعض صوره إلى البدائية والفجاجة في الخبرة.."[١].

التّوفّر على الأمانة الرّساليّة

يقول سماحة الشّيخ حفظه الله: "إنّ حفظ الأمانة يحتاج إلى كفاءة.. من حسن عقل وقدرة، وحسن تدبير، وأقوى ما تحرز بها عفّة النّفس (تقوى الله وقوّة الدِّين) فمن عُلِم منه أنّه على تقوى من ربّه الحقّ تعالى لا يُرتاب في عفّته وأمانته من هذه الجهة، وحُسن الدّين، وخشية الله، والصّفات الأخرى التي تُعطي الاطمئنان لأمانة المرء يُطلب العلم به عن طريق العشرة والتّجربة وملاحظة القرائن. وانتصار شخص في تجربة أمانة من أنواع الأمانات لا يعني انتصاره في كلّ أنواع الأمانة ومستوياتها، كذلك الكفاءة المطلوبة متفاوتة بتفاوت الأمانات نوعاً ومستوى وظرفاً ودرجة خطورة.."[٢].

تتجلّى الأمانة الرّساليّة في أبعاد عديدة، أكدّ عليها سماحة الشّيخ حفظه الله في العديد من خطاباته نذكر منها:

---

(١) من كلمة قيّمة لسماحته حفظه الله في مؤتمر (إشكالات العمل الإسلامي في البحرين) تنظيم جمعية التوعية الإسلامية، ٤/ ٥/ ٢٠٠٥م.

(٢) خطبة الجمعة (٥٣٨) ٦ ربيع الأول ١٤٣٤ هـ ١٨ يناير ٢٠١٣م.

هدف الإخلاص لله تعالىٰ لا الوجاهة والشّهرة

إخلاص النّيّة لله تعالى يعّد الأساس الأوّل والأهمّ الّذي يقوم عليه أيّ عمل رساليّ ومؤسّساتيّ سواءً مع بدء العمل وفي أثنائه، فمن خلاله يستنزل العبد الّذي أخلص عبوديّته لله تعالى ألطاف كرمه ورحمته وتوفيقه.

"الشّخصيّة المؤمنة حركتها متمحورة ومستقطبة حول (مرضاة الله سبحانه وتعالى)، تفرّ من سخط الله إلى رضاه ولا حساب عندها للآخرين إلّا لله تعالى، عارفة واعية بذاتها وحجم إنسانيّتها، واضحة كلّ الوضوح غايتها من الحياة، على وعيٍ كافٍ من الدّنيا ووزنها، وتعرف ربوبيّة الله عزّ وجلّ ولا تهمل أمر دنياها ولا تنسى أمر آخرتها ..."[1]

"... لا بدّ أن تكون متأهّباً دائماً، وفي الخطّ الأماميّ دائماً، تسمع أوّل نداء لنشاط ثقافيّ إسلاميّ، أوّل نداء بنشاط اقتصاديّ إسلامي، لخدمة اجتماعيّة على الخطّ الإسلاميّ، فتتقدّم فرحاً أنت بايعت الله، بايعت رسول الله صلّى الله عليه وآله، على أن يكون الثّمن الجنّة وليس الدّينار! وليس التّكريم الاجتماعيّ أيضاً..."[2].

---

(١) لقاء أبوي مع مشاريع التعليم الديني للنساء في مأتم الإمام علي عليه السلام في قرية أبو قوّة، يوليو ٢٠١٠م.

(٢) خطبة الجمعة (٣٤) ٧ رمضان ١٤٢٢هـ - ٢٣-١١-٢٠٠١ م

وعي الأهداف الرّساليّة لا المصالح الذّاتيّة

وهنا كلمات لسماحة الشّيخ حفظه الله..

"المشروع الإسلاميّ يهدف لخلق الشخصيّة المؤمنة على مستوى الفرد والمجتمع والأمّة، لذا علينا الإحساس بالمسؤوليّة أمام الله، وتوقير دين الله، وبضرورة الدّين، والإحساس بمسؤوليّة الدّين وتوصيله إلى العقول والنّفوس وتحويله إلى واقع حياة، تقدير الإسلام والشّعور بعظمته وأهميّته..".

"... مسؤوليّة الخطط والمشاريع أن ترعى بُعد الرّوح وبُعد البدن، وأن تتماشى مع الإطار الحضاريّ الإسلاميّ، الّذي استطاع في يومٍ من الأيّام على الأرض وعاشته الأرض واقعاً مشهوداً حيّاً ملموساً، أنا ماذا؟ الإسلام قدّم حضارةً روحيّةً من أرقى الحضارات لأرض الحضارات وأسماها، وانتعش الوضع الاقتصاديّ في ظلّ رسول الله صلى الله عليه وآله، مطلوبٌ لأن أستحضر من أنا؟ ما هويتيّ؟ ما خطّي؟ ما حضارتيّ؟

طبيعيٌّ، المسلمون يضعون خطّتهم في إطار التّوجّه الإسلاميّ، والفهم الإسلاميّ للحياة والكون والإنسان والدّنيا والآخرة"[1].

".. بعد أن نتبصّر الطّريق، ونعرف صحّة طريقنا، وسلامة طريقنا، وأن خيارنا هو خيار الرّاشدين، وخيار صفوة الخلق من الأنبياء والمرسلين والأئمّة صلواته وسلامه عليهم أجمعين، حينئذٍ علينا أن نبذل بلا حساب، وبلا توقّع جزاء من أحد إلّا من الله سبحانه وتعالى.

(١) محاضرة ألقيت في مأتم كرزكان، بعنوان (كيف نبني وطناً قويّاً) ٢٠٠٣ م

حارب النّفس إذا طلبت منك أن تبحث عن ثمن من شهرة، من إعجاب الآخرين، من تصفيق، من جائزة دنيويّة، فلنطلب ثواب الله تبارك وتعالى. ثمّ إنّها وظيفة شرعيّة لمن آمن بالله تبارك وتعالى ورسوله صلى الله عليه وآله، وهي الحفاظ على الإسلام.."[1].

"حين تختار أيّ جمعيّة شعار أنّها جمعيّة إسلاميّة يفرض عليها هذا الأمر واجب أن يكون أعضاؤها يفهمون الإسلام، يعيشون الإسلام، يطرحون الطّرح الإسلاميّ، يخلصون للإسلام، يتحرّكون على خطّ المصلحة الإسلاميّة"[2].

مراعاة النّاحية الشّرعيّة في الخيارات الفرديّة والاجتماعيّة

من الأمور الّتي يحرص على التّأكيد عليها سماحة الشّيخ حفظه الله هي الانطلاقة من مرجعيّة الفقيه ومن خطّ الفقهاء الّذي يحدّد الحكم الشّرعيّة فيما هي الوسائل والأدوات الّتي تواجه العاملين في المؤسّسات والمشاريع الدّينيّة، وفي اتّخاذ المواقف في المنعطفات المصيريّة، وهي مسألة بالغة الأهمّيّة لضمانة عدم الزّيغ والانحراف، وسلامة الخطّ والتّوجّه لدى المؤسّسة والجماعة.

"مرجعيّة جمعيّاتنا الإسلاميّة لا بدّ أن تكون منتهية إلى خطّ الفقهاء .. لتنتهي إلى مرجعيّة الأئمّة عليهم السلام.. إلى مرجعية رسول الله صلى الله عليه وآله.. إلى المرجعيّة الحقّ الّتي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها مرجعيّة الإله العظيم؛ الله سبحانه وتعالى، المرجعيّة هنا مرجعيّة مدرسة وليست مرجعيّة شخص، كلّ المسلمين – الملتزمين بالإسلام– مرجعيّتهم الإسلام، ومن رأى أنّ له مرجعيّة تنتهي لغير

(١) خطبة الجمعة (١٣٦) ١٧ ذي القعدة ١٤٢٤هـ – ٩ يناير ٢٠٠٤م.

(٢) نفس المصدر.

الإسلام فهو –على إسلامه– ليس بالمسلم الحـقّ الملتزم .."[١].

"قادتكم الفقهاء، لو انقطع سلك الفقهاء جيلاً أو جيلين لانتهت هويّة الأمّة، لانمسخت الأمّة مسخاً كاملاً، لضلّ النّاس .. لتاهوا .. لا يوجد عندنا معصوم غير الإمام المنتظر عجّل الله فرجه الشريف، ولكنّ الفقهاء في مجموعهم وفيما يجمعون عليه من خطّ الله عزّ وجلّ وليس في الأحكام الفرعيّة، الفقهاء الموجودون – أقصد – حين يجمعون، تجمع كلمتهم على رأي واحد ففي الغالب في الأكثر إن لم يكن دائماً، أنّ هذا الرّأي هو رأي الدّين ولا يكاد يضلّ رأي الفقهاء جميعاً عن رأي الدّين ولستم واجدين أيّ فئة في المجتمع ترقى إلى مثل هذا المستوى وفيها مثل هذه الضمانة أبداً فاعرفوا قدر فقهائكم، وارتبطوا بخطّهم، فهم النّواب؛ نواب إمامكم المعصوم عليه السلام وأئمّة أهل البيت عليهم السلام، هم الّذين اختاروهم لكم وأوصوكم بهم وأوصوهم بكم"[٢].

أهمّيّة التّعاون والتّكامل لا التّشتّت والتّمزّق

ومن أكثر المسائل التي يحثّ عليها الشّيخ حفظه الله باستمرار الوحدة والتّعاون والتّكامل في العمل ويحذّر من حالة الخلاف والتّشتّت والتّشرذم سواء داخل الصّفّ الواحد أو المؤسّسة الواحدة، وهنا ليس الكلام في اختلاف الآراء الّتي تحكمها الأسس الشّرعيّة والموضوعيّة، ولكن نقصد الخلافات البينيّة الّتي تؤدّي إلى أن يسعى كلّ طرف لإسقاط الطّرف الآخر، أو مشاريع تمزّق بعضها الآخر.

---

(١) خطبة الجمعة (١٣٦) ١٧ ذي القعدة ١٤٢٤هـ ـ ٩ يناير ٢٠٠٤م.

(٢) خطبة الجمعة (١٣٥) ٢ ذي القعدة ١٤٢٤ هـ ـ ٢٦ ديسمبر ٢٠٠٣ م.

من كلماته حفظه الله في هذا الجانب يقول:

"التّعدّد مرّة يكون مدروساً، ومرّة يكون ارتجاليّاً، ومرّة يكون انفعاليّاً..إذا كان تعدّدٌ فهو التّعدّد المدروس وليس التّعدّد الارتجاليّ، والأخسّ منه التّعدّد الانفعاليّ. تعدّد الجمعيّات من منطلق الانفعال لا شكّ أنّه مضرّ.. من موقع الارتجال أيضاً مضرّ.. إذا كان هناك تعدّد فهذا التّعدد لا بدّ أن يكون مدروساً ومقدّراً تقديراً دقيقاً، التّعدد مرّة يكون تنوعيّاً ومرّة يكون تكراريّاً ..لا نقف مع التّعدّد التّكراريّ، ويمكن أن نقبل بل ندعو إلى التّعدّد التّنوّعي.

التّعدّد مرّة يكون مع التّنسيق ومرّة يكون مع التّضاد والمواجهة.. لا بدّ أن نكون مع التّعدّد حين تقتضيه الظّروف وتعدّد الوظيفة.. ولكن مع التّنسيق، أما التّعدد مع المواجهة فلا بدّ أن تدرس أيّ حالة من حالات المواجهة لتُسقَط الجمعيّة المضرّة، ويقف المجتمع مع الجمعيّة الأخرى الّتي تقف موقفاً أقرب إلى الإسلام.

مرّة يكون التّعدّد مع توفّر القابليّات ومرّة مع ندرتها.. إذا جاز الأوّل فلا يجوز الثّاني. وكذلك لا بدّ أن تلاحظ الإمكانات الأخرى من إمكانات ماليّة وإمكانات من نوع آخر.، فإن كانت الإمكانات تسمح بالتّعدّد عند وجود المقتضي أساساً قبلناه وإلّا فلا تعدّد"[1].

"الفريق المتناصح هو الّذي يسعى لخيره وخير غيره ودرء السّوء عنه وعن

(١) لقاء أبويّ مع مشاريع التّعليم الدّينيّ للنّساء في مأتم الإمام علي عليه السلام بقرية أبو قوّة يوليو ٢٠١٠م.

غيره، والتّنبيه عن الخطأ بروح تناصحيّة، أمّا تعدّد المشاريع الّذي يوجب التّشتّت فهو حالة مرضيّة تنشأ من الزّعامة، فقدرتنا على العمل ضمن فريق واحد لا زالت هابطة ..."[١].

"لا بدّ من تكامل المؤسّسات الّتي تشارك في حلّ المشكلات الاجتماعيّة، ولا بدّ من توافر مؤسّسات أخرى وتكامل كلّ المؤسّسات سياسيّة وثقافيّة واجتماعيّة لتشارك في حلّ المشكلات المتنوّعة لهذا المجتمع..."[٢].

"غياب التّنسيق بين كثير من مواقع العمل وألوان النّشاط في إطاره العامّ، يجعل مشاريع عملنا مكرّرة ومتصارعة ومتشرذمة..."[٣].

"أيّ جمعيّة إسلامية – تصدّعها وتشقّقها وانقسامها ربّما أحدث انقساماً في المجتمع وتصدّعاً وشرخاً، فالمجتمع له حقّ أن يطالب أيّ جمعيّة إسلاميّة بأن تعمل على سدّ أيّ باب من أبواب هذا التّمزّق وهذا التّبعثر والتّصدّع والانقسام. ليس من حقّ أيّ جمعيّة ولا من حقّ أيّ تيار في أيّ جمعيّة أن يحدث شرخاً، وأن ينقسم ما لم تكن هناك ضرورة واضحة جدّاً تستطيع أن تقنع المجتمع بأن هناك موجباً لتأسيس جمعيّة أخرى. نحن نطالب جمعيّاتنا الإسلاميّة بالتّماسك وبأن تبني نفسها متينة، وبأن تبقى الأخوّة فيها صادقة، وتتحاشى كلّما أمكن

---

(١) خطبة الجمعة (٢٨٦) ١٥ جمادى الأولى ١٤٢٨ هـ ـ ١ يوليو ٢٠٠٧ م.

(٢) من كلمة قيّمة لسماحته حفظه الله في مؤتمر (إشكالات العمل الإسلامي في البحرين) تنظيم جمعية التوعية الإسلامية ٤/ ٥/ ٢٠٠٥م.

(٣) خطبة الجمعة (١٣٦) ١٧ ذي القعدة ١٤٢٤هـ ـ ٩ يناير ٢٠٠٤م.

أيّ انقسام خطير. وسيحاكم المجتمع أيّ انقسام، وستكون له كلمته الحاسمة في هذا الانقسام"[١].

قوّة الإرادة والصّبر، وسعة الصّدر لقبول النّقد

يحتاج العمل المؤسّساتي في استمراريّته إلى قوّة الصّبر وتحمّل المعاناة والعوائق الّتي تواجه المؤسّسة أو العمل، فالأمور الكبيرة لا تنجّز في يوم وليلة، كما أن الحضور بين النّاس واستماع همومهم وآلامهم لا بدّ وأن يلازمه سعة الصّدر ومداراة النّاس، وقبول حالة النّقد والمحاسبة، خصوصاً إذا كان النّقد موضوعيّاً وكان له أثر في تطوير المؤسّسة وإصلاح عيوبها.

يقول سماحته حفظه الله: "**إنّ المعرفة والوعي ضروريان؛ إلّا أنّهما لا يكفيان، فلا بدّ من وجود إرادة تؤهّل الشّخصيّة المؤمنة لحمل المسؤوليّة؛ فالإنسان المسلم إنسان مريد؛ لأنّ الإسلام مسؤوليّة وجهاد وطريق صعودٍ، وبما أنّ الإسلام تحريك وسموّ فهو يحتاج إلى إرادة قويّة تصنع من خلال المواقف، المكابدة، المعاناة والمجاهدة ...**"[٢].

---

(١) لقاء أبويّ مع مشاريع التّعليم الدّينيّ للنّساء في مأتم الإمام علي عليه السلام بقرية أبو قوّة يوليو ٢٠١٠م.

(٢) في لقاء بمسؤولات التعليم الديني، مساء الجمعة ١٩رجب ١٤٣١هـ الموافق للثاني من يوليو ٢٠١٠م.

طلب الأجر الأخرويّ لا المكسب الدّنيويّ

يقول سماحة الشّيخ حفظه الله في هذا الصّدد:

"... لو أعطيت الدّنيا كلّها أجراً على حلّ مشكلة فقراء، لحلّ مشكلة اجتماعيّة، لرفع ظلم وما إلى ذلك، لو أعطيت الدّنيا كلّها ستستفيد منها بمقدار طاقتك وحاجاتك الضّرورية ثمّ تفارقها، صدّقني بأنّ الأجر على هذه الممارسة، إذا كانت جنّة الخلد، هذا الثّواب أكبر من الدّنيا؟ أو ليس أكبر من الدّنيا؟ يمكن عمل صغير، (أقول) من أعمال البرّ والإحسان، من الأعمال الصّالحة من الصّالحات الطّيّبات، ممّا هو طيّب عند الله، ومسح دمعة اليتيم، وتفريج كربة المكروب، ورفع الظّلامة عن المظلوم، وإنعاش الملهوف، وتعليم الجاهل، وهداية الضّال، وأعمال من هذا النّوع من الأعمال الطّيّبة الصّالحة ستجد نفسك في يومٍ من الأيّام وقد خلَت يداك من كلّ شيء أنت أحوج ما تكون إلى واحد من هذه الأعمال فضلاً عن عددٍ منها"[1].

التّوفّر على الكفاءة الإداريّة

وضوح الأهداف والأولويّات المؤسّسات الإسلاميّة في المجتمع نوعان: ثقافيّة في الغالب، وسياسيّة وهي أقلّ:

الأولى: للحفاظ على الإسلام وتنمية الوعي الإسلاميّ، والارتباط بالنّاحية الشّرعيّة في الخيارات الفرديّة والاجتماعيّة، من الضّروري جدّاً التّحضير التّربويّ الإسلاميّ قبل التّحضير السّياسيّ، وضمان مجتمع يتّجه اتّجاهاً إسلاميّاً قبل الحديث الخاصّ بالسّياسة.

---

(١) محاضرة ألقيت في مأتم كرزكان، بعنوان (كيف نبني وطناً قويّاً) ٢٠٠٣ م.

والثّانية: للعمل السّياسيّ الدّستوريّ القانونيّ، ومن مسؤوليّة هذا النّوع من المؤسّسات إلى جنب ما يطالب به من حقوق سياسيّة وينمّيه من خبرة وقدرة على الممارسة النّاجحة في هذا المجال، أن يثبّت الخيار الإسلاميّ ويرجّحه في نفوس المنتمين إليه وكذلك سائر أبناء المجتمع...[1].

التّخطيط والإدارة النّاجحة

... الإدارة تخطيط على المدى الطّويل والقصير، وتفتيت للهدف الكبير إلى أهداف جزئيّة تفرض خططاً مرحليّة تؤدّي في النّتيجة إلى تحقيقه، وهي مراقبة ومتابعة وتوجيه مباشر وغير مباشر، وتصحيح وتقويم، وبعث وتنشيط، وإلمام وتحكّم بكلّ صغيرة وكبيرة في مجموعة الأنشطة والفعاليّات الّتي تشارك بمجموعها في إدارة هدف واضح واحد مقصود مسبقاً في تخطيط قائم على الدّراسة والتّدقيق والموازنة والتّقدير، كما أنّها جزاء من جنس العمل.

الإدارة إطلاق طاقات عديدة بنّاءة مختلفة وتفجير لها، ووضع لكفاءات متعدّدة ومتنوّعة في نسق واحد مرسوم في ضوء خطّة عقليّة واحدة توظّف هذه الكفاءات من أجل هدف واحد تبصر عين المركز الإداريّ، ويعيه سمعه ويقترب منه خطوة عن طريق هذه الكفاءات المتكاملة الّتي يُسند بفضل التّنسيق بعضها بعضاً، ويمهّد بعضها لبعض وتؤثّر مجتمعة في تحقيق المطلوب.

والإدارة لا تعني طاقة فريدة تغني عن كلّ الطّاقات، أو فوق كلّ الطّاقات، وإنّما تعني طاقة ذات كفاءة فنّيّة خاصّة تستطيع أن تحرّك طاقات الآخرين، وتدفع

(١) خطبة الجمعة (٢٨٦) ١٥ جمادى الأول ١٤٢٨هـ ـ ١ يونيو ٢٠٠٧م.

بها وتنشّطها وتنظّم جهودها لتصبّ مجتمعة ومتكاملة في صالح هدف واحد محدّد مرسوم.

فهي لا تعني كلّ شيء على طريق تحديد الهدف المطلوب، وإنّما هي عنصر مهمّ بين عناصر أخرى ومنها وجود القوى المستجيبة المتعاونة المنفّذة، ولولا التّعاون والاستجابة والتّنفيذ من هذه القوى لما كان للإدارة النّاجحة أن تحقّق أهدافها.

للتّخلّف الإداريّ الفعليّ أسبابه الموضوعيّة الّتي منها:

١ـ أنّ الكفاءة الواحدة الّتي يمكن لها أن تنتج بنجاح في حقل أو أكثر قد يريد لها صاحبها أو يريد لها غيره أن تقوم مقام ألف كفاءة. وقد يكون للشّخص أكثر من كفاءة لكنّه يحتاج مع ذلك إلى أكثر من وقت، ويستحيل عليه أن يتوفّر على كلّ الوقت الّذي تتطلّبه جودة الإنتاج في المهمّات المتعدّدة. والشّحّ في كفاءات السّاحة لحدّ الآن يحمّل أشخاصاً في مواقع الإدارة من الاهتمامات والمهمّات ما يربك عملهم ويؤثّر على جودة إنتاجهم في مختلف المسارات. والشّخص الواحد وإن أمكن أن يكون أكثر من شيء ناجح، وأكثر من كفاءة منتجة إلّا أنّه لا يمكن أن يكون كلّ شيء وناجحاً على الإطلاق ولو من جهة محدوديّة الجهد، والوقت على تقدير تعدّد قدراته الخاصّة، وتمتّعه بقدرة عامّة متميّزة.

٢ـ عدم التّخصّص في فنّ الإدارة، أو التّخصّص الفاقد للمقوّمات الأخرى المتّصلة بالعمل الإسلاميّ من إخلاص ورساليّة وثراء فكريّ في إطار الإسلام.

٣ـ حداثة العمل المؤسّسي الإسلاميّ، وتعرّضه للحجر والتّعطّل لمدّة طويلة ممّا لم يسمح بتنامي الخبرات وتراكمها من خلال كثافة التّجارب وتنوّعها.

٤ـ عدم الاستقراء بدرجة مستوعبة للكفاءات النّاجزة في السّاحة وتفعيلها.

٥ـ قلّة التّجارب وضعفها على مستوى العمل المؤسّسيّ أفقد الكثير من القدرة على التّفاعل الاجتماعيّ في إطار العمل المشترك، وأضعف روح وأخلاقيّة العمل في صورته الاجتماعيّة الّتي تقوم على التّحلّيّ بالصّبر والاستجابة للقرار الإداريّ، وقبول الاختلاف في الحدود المعقولة، وتجاوز الأنا بالمقدار الّذي لا يعطّل انسيابيّة العمل المشترك وتحقيقه لأهدافه.

تحتاج الإدارة النّاجحة في تحقيق أهدافها:

إلى فريق عمل يعيش حالة التّجانس الفكريّ والنّفسيّ، والتّلاقي على أهداف وأساليب معيّنة بمقدار لا يخلو من الاختلاف الّذي يعدّ ضروريّاً لإثراء التّجربة، وتنضيج الرّأي، ولإثارة روح الإبداع، ولكن لا يعرقل المسيرة، ولا يسدّ الباب أمام حالات التّوافق في الكثير من الموارد، ولا يثير زوبعة لا داعي لها من منطلق سوء الظّنّ، أو سوء التّقدير، والفريق الّذي يعيش حالة الانقسام في داخله بصورة واضحة تشغله مشاكله الدّاخليّة وخلافاته عن حلّ المشاكل الّتي كان تشكّله من أجلها، ويمثّل أزمة إضافيّة من أزمات مجتمعة.

وحين نتجاوز الحديث عن إدارة العمل الإسلاميّ داخل المؤسّسة الواحدة إلى الحديث عن إدارة العمل الإسلاميّ في إطار المجتمع كلّه فالتّخطيط والتّحريك والتّوجيه والإدارة لا تكون للعمل المؤسّسيّ في إطاره الوسيع فقط، وإنّما تمتدّ إلى النّشاط الإسلاميّ للأسرة والفرد، وتحاول أن تدفع بكلّ الجهود على مسار واحد، وفي اتّجاه واحد، يخدم الهدف التّربويّ والتّنمويّ الإسلاميّ العامّ، ويقطع مراحل الوصول إليه عبر أهداف تفصيليّة قريبة وبعيدة، وخطط جزئيّة متواصلة ومتكاملة.

وفي الوقت الّذي تهتمّ الإدارة العامّة للعمل الإسلامي بالعمل المؤسّسيّ وتنظيمه وتنشيطه ودفعه والدّفع إليه، فهي لا تستهدف بذلك القضاء على المبادرات الفرديّة، وروح المسئوليّة عند النّاس خارج المؤسّسات، أو تشلّ إرادة فعل الخير، والتّبليغ، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر عند الإنسان المسلم في دوائره المختلفة غير دائرة المؤسّسة، بل إنّ من واجب الإدارة العامّة، وإدارة المؤسّسات أن تثير روح العمل في سائر أفراد المجتمع، وتستحثّها على العطاء والإسهام في تصحيح الوضع، والتّقدّم بالحالة الإسلاميّة، وترشدها وتوجهها، لتلتحم في تيّار واحد كبير من العمل الخيّر المثمر مع الجهد المؤسّسيّ المشترك الفاعل.

إنّه ليجب أن ننظر إلى المركزيّة في العمل الثّقافيّ والتّبليغيّ بنظرة أكثر مرونة من نظرنا إلى المركزيّة في العمل السّياسيّ، على أنّ المركزيّة -وبصورة مطلقة- لا تعني وأد روح الإبداع، وإحداث الشلل في إرادة الفعل عند الآخر من أبناء المشروع المشترك، بقدر ما تعني ضرورة نظم الأمر، وتقدير الخبرة وسعة المعلومات، والتّفاوت في مستوى البصيرة العملية، وتوحّد القيادة.

ثمّ إنّ الإدارة النّاجحة وهي تحتاج إلى تفقّد محيط إدارتها، وخلق علاقات إيجابيّة بإنسانه عليها أن تكون ميدانيّة غير منفصلة عن محيطها، ويتأكّد هذا الأمر في حقّ الإسلاميّين الّذين يريدون تربية المحيط على الإسلام وأخلاقيّاته الرّفيعة، وفي ذلك غرس وتقوية وتعزيز لروح الثّقة المتبادلة، ولكنّ الميدانيّة ينبغي ألّا نحملها على ضرورة التّطواف الدّائم بمؤسّسات المجتمع والاشتراك الفعليّ المباشر في فعّاليّاته المتعدّدة، والإغراق في اللقاءات الجماهيريّة المفتوحة بصورة دائمة.

والرّسول الكريم الخاتم صلى الله عليه وآله -الّذي كان دوّاراً بِطبّه- كان قبل أن تنبني الكوادر التّبليغيّة والقياديّة الكافية يلتقي القبائل في الموسم وغيره بنفسه الشّريفة؛ أداءً للرّسالة، وتبليغاً للوحي، وتبصيراً للعقول والقلوب، ومن بعد بناء كفاءات متميّزة في مجال التّبليغ والتّعليم والقيادة، والحاجة إلى المركزيّة بدرجة أكبر صار يعتمد في الكثير على إرسال الرّسل، وإنفاذ الكتب، والبعثات التّعليميّة والتّبليغيّة، والقيادات الثّانويّة متولّياً الإدارة المركزيّة بكلّ دقّة وحنكة وبصيرة واقتدار، واطّلاع على الأمور وخبرة واسعة، مبقياً على التّواصل بشرائح الأمّة وجماهيرها بأسلوب وآخر، مباشر وغير مباشر، مستقبَلاً أو مستقبِلاً، في مراعاة دقيقة للظّروف والملابسات ومقتضياتها، ومناسبات الحكم والموضوع.

ومن المفيد أن نلتفت إلى أنّ الاشتغال ببعض الأدوار التّنفيذيّة الدّاخليّة في إدارة الشّخص قد تضيع من عطاءات هذه الإدارة ونتائجها المطلوبة أكثر بكثير ممّا توفّره تلك الممارسة بما تحدثه من غفلة عن بعض مواضع الخلل، وتصرف عنه من معالجات ضروريّة، ولفتات بنّاءة..[1].

(١) من كلمة قيّمة لسماحته حفظه الله في مؤتمر (إشكالات العمل الإسلاميّ في البحرين) تنظيم جمعيّة التّوعية الإسلاميّة ٤ / ٥ / ٢٠٠٥م.

المجلس الإسلاميّ العلمائيّ[1].. نموذج للمؤسّسة الدّينيّة النّاجحة

في الختام .. نحاول أن نستعرض نموذجاً عمليّاً متميّزاً من نماذج عديدة متميّزة من العمل المؤسّساتيّ النّاجح يزخر بها بلدنا العزيز البحرين، والّذي أرسى دعائمه كوكبة من علمائنا الأخيار من أمثال سماحة آية الله الشّيخ عيسى قاسم وسماحة العلّامة السّيّد عبدالله الغريفيّ وسائر العلماء الأفاضل حفظهم الله.. نموذج المؤسّسة العلمائيّة المتمثّلة في (المجلس الإسلاميّ العلمائيّ) والّتي هي تعبير حيّ عن تنظيم الحالة العلمائيّة فيما تتطلّبه عمليّة التّبليغ والدّعوة إلى الله تعالى وفريضة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

مؤسّسة رسمت أهدافها من مدرسة أهل البيت عليهم السلام في حمل أمانة الدّين وتبليغ تعاليمه وأحكامه وتربية المجتمع على قيَمه وأخلاقه، فكان رائدهم التّخطيط الفاعل، والعمل الدّؤوب والمخلص، والتّعاون الخيّر، وخلال عشر سنوات أثمرت كشجرة طيّبة مباركة، يصعب اجتثاثها، نذكر بعض الثّمار الطّيّبة الّتي عمل عليها:

١ـ رعاية المجلس لمشاريع التّعليم الدّيني في مناطق البلد، وتأهيل القائمين عليها بالدّورات والورش والمهارات، وإعداد المناهج والمقرّرات الدّراسية تحت إشراف من الأساتذة والمختصّين.

٢ـ إقامة المؤتمرات والنّدوات المتخصّصة لمعالجة أهمّ الإشكالات الفكريّة والاجتماعيّة، والمعوّقات الّتي تواجه العاملين، مثل موسم عاشوراء (مؤتمر

(١) تقدمت نبذة عنه في صفحة ٢٠.

عاشوراء السّنويّ)، أو ملتقى أئمّة الجماعة والمبلّغين، أو دورات الحجّ التّأهيليّة وغيرها...

٣ـ إصدار العشرات من الكتب، والكتيّبات الثّقافيّة، والأقراص المدمجة، المسموعة والمرئيّة، ومواقع الإنترنت، ووسائل التّواصل الاجتماعيّ[1].

٤ـ إقامة المواسم الرّوحيّة والثّقافيّة، مثل موسم نداءات التّوبة، وأسبوع الوحدة الإسلاميّة، وبرامج الاعتكاف، وأمسيات الدّعاء، وغيرها.

٥ـ رفع شعار سنويّ مع حزمة من الفعّاليّات والبرامج الّتي تحرّك الشّعار عمليّاً مثل (اقرأ إسلامك)، أو الأسرة، أو الوحدة، وغيرها من الشّعارات الّتي تعالج قضايا المجتمع وظواهره السّلبيّة.

٦ـ رعاية شؤون المرأة عبر إقامة مؤتمرات سنويّة لمعالجة قضايا المرأة المسلمة، إضافة للورش والدّورات، وملتقيات التّكليف الشّرعيّ، وغيرها من الفعّاليات التّربويّة والثّقافيّة.

٧ـ التّصدّي لمعالجة القضايا الأسريّة، والاجتماعيّة، والخلافات المجتمعيّة بين المؤسّسات والمناطق المختلفة.

٨ـ حمل هموم الوطن وآلامه، وقضايا الأمّة الإسلاميّة بشكل عامّ، فقد كان للمجلس خطابه المعتدل والحكيم والشّجاع في كثير من المنعطفات والقضايا المختلفة، وفق رؤية إستراتيجية بعيدة تحدّد الأولويّات والمهامّ الشّرعيّة للنّاس

---

(١) لمزيد من التّعرّف على برامج ونشاطات المجلس الإسلاميّ العلمائيّ، راجع عبر موقع الإنترنت http://www.olamaa.cc

انطلاقاً من المسؤوليّة الشّرعيّة وتحقيق مصلحة الأمّة ووحدتها.

هذا ويوجد الكثير ممّا قدمه المجلس العلمائيّ للحالة الدّينيّة والثّقافيّة في البلد، والقائمون على المجلس أيدهم الله لا يدّعون إلى أنفسهم الكمال أو العصمة، تبقى تجربة المجلس ناجحة تستحق الدّراسة والتّطوير مستقبلاً، وإن كان هناك من نجاح فهو بعد فضل الله تعالى وتأييده راجع لتوجيهات وجهود العلماء الأفاضل وعطائهم المخلص الّذين لا يرتجون من ورائه سوى مرضاة الله تعالى وعنايته وكرمه، و حتّى مع إغلاق مقرّ المجلس الّذي له تأثيره في تفعيل البرامج وتسييرها، إلّا أنّ مسيرة العلماء باقية ما بقي الدّهر، لهم حضورهم الفاعل وامتدادهم الطّبيعيّ بين النّاس ومحلّ ثقة النّاس في أمور دينهم ودنياهم.

اللهم صل و آل محمد
علی محمد

العزوف عن العمل الدّينيّ

(الأسباب ـ الآثار ـ الحلول)

الشيخ منصور إبراهيم الجبيلي

الملخّص:

تعرّض الكاتب في مقالته إلى ظاهرة منتشرة بين المجتمعات، وهي الابتعاد عن العمل في مؤسّسات المجتمع الدّينيّة، فوضع يده على أهمّ أسباب هذه الظاهرة وانتشارها بين أفراد المجتمع، ثمّ ذكر بعض ما ينتج منها من آثار تعود على نفس الفرد والمجتمع، ثمّ ختم مقالته بذكر الحلول المقترحة لهذه الظاهرة الخطرة.

المقدمة:

خلق الله ﷻ الإنسان ومَنَّ عليه بنعمٍ شتّى، وجعل للإنسان غاية وهي الوصول للكمال الّذي يسعى إليه كلّ إنسان، فالإنسان بطبيعته يحتاج إلى غيره، كيف لا وهو مدنيّ بالطّبع كما يقال، وما دام هذا الإنسان يعيش مع بني جلدته، وكلّ واحد عادةً لا يحيط بكلّ التخصّصات، ولا يكون مطّلعاً على كلّ التخصّصات، فلا بدّ من رجوع أفراد الإنسان بعضهم إلى الآخر كلٍّ في تخصّصه.

فلكي يصل الإنسان إلى كماله المنشود، فلا بدّ ألّا يكتفي بما عنده، بل يحتاج إلى أن يستعين بغيره في أخذ العِظة والعبرة وتعلّم ما لم يعلم.

والمجتمعات الدّينيّة عموماً تحتاج إلى تكاتف وتشارك وتعاون؛ ذلك لأنّ كلّ دين له شعائر وله أحكام، ولا بدّ لأجل بقاء الدين واستمراره وانتشاره من تعليم المجتمع الأحكامَ وتنظيمِ شعائرِه وممارساته، وكلّما زاد أفراد المجتمع زادت الحاجة إلى أفراده للعمل الدّينيّ من تنظيم وتعليم، وإذا ما رأيت مجتمعاً زاد فيه المتطوّعون في العمل الدّينيّ فإنّه علامة على تماسكه ورقيّه وتطوّره ولو على المدى البعيد.

ففي مجتمعنا الإسلاميّ لا بدّ لنا لأجل تماسك المجتمع وتكاتفه وجعل الدين هو محور الحياة أن نساهم في صيانة الدين، وذلك بالاشتراك مع أفراد المجتمع في إقامة شعائر الدين وتعليم النّاس دين الله وتعاليمه؛ وذلك بخلع ثوب العزوف

عن العمل الديني ولبس ثوب المشاركة والتعاون بين أفراد المجتمع.

ولكن هناك ظاهرة توجد في بعض المجتمعات وهي العزوف والانزواء عن التطوع للعمل في المؤسسات الدينية من مساجد أو مآتم أو مواكب، وهذه الظاهرة لو قدّر لها وانتشرت وتفشّت لدى أفراد المجتمع فإنّ ذلك ينذر بأمرٍ خطيرٍ لا يحمد عقباه، وهذا ليس مبالغة كما سيتّضح من خلال البحث.

وهذا البحث يتكوّن من ثلاثة محاور:

المحور الأوّل: أسباب العزوف.

المحور الثّاني: آثار العزوف.

المحور الثّالث: الحلول المقترحة لمعالجة العزوف.

وقبل أن نشرع في بيان المحاور، نذكر المعنى اللُّغوي للعزوف، ثمّ المعنى الاصطلاحيّ فنخرج العزوف الحسن عن محلّ الكلام، ثمّ نأتي إلى العزوف غير الحسن.

١ـ العزوف في اللُّغة:

(العَزْف) كما في معجم العين هو: "**صرف النّفس عن الشّيء فتدعه. والعَزُوف: الّذي لا يكاد يثبت على خلّة خليل واحد**"[١].

وفي المقاييس هو الانصراف عن الشَّيء، تقول: عزفتُ عن الشّيء إذا انصرفت عنه[٢].

---

(١) كتاب العين، الفراهيدي، ج١، ص ٣٥٩.

(٢) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ج٤، ص ٣٠٦.

٢ـ العزوف في الاصطلاح:

هناك عزوف حسنٌ ومرغوبٌ فيه ومطلوب، وهناك عزوفٌ على خلاف ذلك وهو غير الحسن وغير المطلوب، والبحث في الثّاني، ولكن سنتعرّض للأوّل تتميماً للبحث.

العزوف الحسن:

من العزوف ما هو حسن ومنه ما هو مطلوب، بل راجح، ويعود بالنّفع على الإنسان في الدّارين، وهو على أنواع تشير إليه بعض الرّوايات.

أـ النوع الأول: العزوف عن الطّلب، فإنّ من يعتاد على أنّ كلّ ما يطلبه لا بدّ أن يحصل عليه حتّى في حالة كون مطلوبه بسيطاً وغير ضروريّ، فإنّ ذلك قد يجعله بمثابة الأسير لمن يطلب منهم؛ وذلك أنّ بعض النّاس عندما يعطي وينفق فإنّه يمنّ على من أنفق عليه. فمن كانت عادته وديدنه طلب كلّ صغير وكبير، فإنّه قد يبتلى بمن يمنّ عليه، وبالتّالي يكون ذليلاً أمامه.

بخلاف ما لو أجمل في الطّلب، واكتفى بما يقدر عليه، ويستطيع مع عدم ضرورته وكان عزوفاً عمّا في أيدي الآخرين فإنّه على هذا التقدير يكون قنوعاً، فقد نقل عن الأمير عليه السلام: «**ثَمَرَةُ الْقَنَاعَةِ الْإِجْمَالُ فِي الْمُكْتَسَبِ، والْعُزُوفُ عَنِ الطَّلَبِ**»[1].

وإذا ما صار قنوعاً فإنّه يعتبر صاحب كنز فقد نقل عن النّبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «**الْقَنَاعَةُ كَنْزٌ لَا يَفْنَى**»[2].

---

(١) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٢٠٨.

(٢) مستدرك الوسائل، النوري، ج١٥، ص٢٢٦، باب ٩ من أبواب النفقات.

ب ـ النّوع الثّانيّ: العزوف عن الطّمع، فإنّ الطّمع كما في بعض الرّوايات هو آفة العلماء وخمر الشّيطان وأذُن الدّنيا، والطّمع في الدّنيا أساس كلّ شرّ، وهو الفقر الحاضر.

إنّ هذه الصّفة الذّميمة أحد طرق محاربتها واقتلاعها من جذورها هو عزوف النّفس عنها، والنّفس إذا عزفت عن الطّمع فهو دليل على حسن ورعها، فقد نقل عن الأمير عليه السلام: «**دَلَالَةُ حُسْنِ الْوَرَعِ عُزُوفُ النَّفْسِ عَنْ مَذَلَّةِ الطَّمَعِ**»[1].

ت ـ النّوع الثّالث: العزوف عن الدّنيا، وما أدراك ما العزوف عن الدّنيا، فإنّ أساس كلّ بليّة ومصيبة هو حبّ الدّنيا والتّعلّق بها وعدم العزوف عنها.

عندما يتشبّث الإنسان بالدّنيا وينشغل بها عن الآخرة ولا يعزف عن الدّنيا فإنّه كالذي يرسم على الماء، فلا يبقى رسمه، ويذهب سريعاً ويزول، بخلاف من يعزف عن الدنيا وينقش أعماله الصّالحة في صحيفة أعماله التي تحضر معه بعد الموت وفي المحشر.

ومن يخلد إلى الأرض ويقدّم الدّنيا على الآخرة هل ينال الحكمة؟، كلّا، فمن مقدّمات نيل الحكمة هو العزوف عن الدّنيا.

الحكمة تحلّ في قلب من عزف عن الدّنيا، ولذا من تراه حكيماً فهو في مرحلة سابقة قد عزف عن الدّنيا، فعن الأمير عليه السلام: «**ثَمَرَةُ الْحِكْمَةِ الْعُزُوفُ عَنِ الدُّنْيَا**»[2].

العاقل دائماً يفكّر في الاستحقاقات المستقبليّة وأمر الآخرة وفيما هو باقي،

---

(١) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٢٥١.

(٢) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٥٢.

ويرسم طريقاً ويمضي عليه بحيث يكون سعيداً في المستقبل.

ومن يجعل الدّنيا كلّ همّه ولا يفكّر في آخرته، بل تغرّه الدّنيا فهل من كان هذا شغله نسمّيه عاقلاً؟ كلّا، فالعاقل المحافظ على عقله هو من يكون عَزوفاً عن الدّنيا، فقد نقل عن الأمير عليه السلام: «**حِفْظُ الْعَقْلِ بِغَلَبَةِ الهوَى والْعُزُوفِ عَنِ الدُّنْيَا**»[1].

من أراد أن يصلح نفسه فعليه أن يفكّر في مآله وآخرته، فلا يرى أيّ قيمة لهذه الحياة الدّنيا الفانية، بل يفكّر فيما هو باقٍ وما هو خالد.

ولذا من لا يضع في ذهنه أنّ هذه الدّنيا ليست دار بقاء فإنّه لن يسعى لإصلاح نفسه؛ لأنّ من يفكّر في دار الآخرة وبعد الموت لا شك أنّه يبدأ بإصلاح نفسه، فالعزوف عن الدّنيا والتّوجّه للآخرة هما سببان لصلاح النّفس، فقد نقل عن الأمير عليه السلام: «**سَبَبُ صَلَاحِ النَّفْسِ الْعُزُوفُ عَنْ (دَارِ) الدُّنْيَا**»[2].

كلٌّ منّا يطمح في النّجاح، ولكن هل كلّ من يطمح إلى النّجاح يصل إليه ويدركه؟ كلّا؛ لأنّ النّجاح يحتاج إلى مقدّمات وشروط يجب توفّرها لكي يصير الإنسان ناجحاً.

والنّجاح في بلاءات وامتحانات دار الدّنيا أعني بذلك الامتحانات الإلهيّة يكون بالعزوف عن الدّنيا وعدم التّعلّق بها، فمن يتشبّث بالدّنيا لن يدرك النّجاح، فقد نقل عن الأمير عليه السلام: «**فِي الْعُزُوفِ عَنِ الدُّنْيَا دَرْكُ النَّجَاحِ**»[3].

---

(١) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٢٣٣.

(٢) مستدرك الوسائل، النوري، ج١٢، ص٧١، باب٦٧ من أبواب الجهاد وما يناسبه.

(٣) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٣٥٤.

بل العزوف عن الدّنيا شرط في زكاة الأعمال، فقد نقل عن الأمير عليه السلام: «**لَا يَزْكُو عِنْدَ الله إِلَّا عَقْلٌ عَارِفٌ، وَنَفْسٌ عَزُوفٌ**»[1].

العزوف المراد في البحث:

وبما أنّنا نتكلّم عن العمل في المؤسّسات الدّينيّة، فإنّ العزوف المراد هو الابتعاد والنّأي بالنّفس عن العمل في المؤسّسات الدّينيّة، وذلك بعدم الإسهام في مشاريع التّعاليم الدّينية، أو الفرار من تولّي المسؤوليّة في إدارة مأتم أو صندوق أو مركز.

سيُسلّط الضّوء في هذا البحث على بعض أسباب هذه الظاهرة الخطيرة، الّتي تنخر جسد المجتمعات الإسلامية، وآثارها على المجتمع ثمّ نذكر ما يؤمّل أن يكون من الحلول لهذه الظّاهرة.

المحور الأول: ما قد يذكر من أسبابٍ للعزوف عن العمل الديني:

صحيح أنّ المجتمع أصناف مختلفة ومتعدّدة، إلّا أنّه توجد بعض الأسباب المشتركة في نُفرة البعض عن العمل الدّينيّ.

الأوّل: الانشغال وعدم التّفرّغ

من ينشغل بوظيفة لأجل لقمة العيش وإطعام عياله فإنّه قد لا يستطيع أن يوفّق بين الوظيفة وبين العمل الدّينيّ؛ لأنّ كلًّا منهما يحتاج إلى التّفرّغ، وتحصيل الرّزق قد يعدّ أهمّ من الدّخول في سلك العمل الدّينيّ؛ لكي يوفّر الإنسان لقمة عيشه ولا يستجدي من الغير.

---

(١) عيون الحكم والمواعظ، الواسطي، ص٥٤٤.

ومن ينشغل بأهله وعياله فإنّه يتعذّر عليه أن يمسك بِطّيختين في يدٍ واحدة؛ فإنّهما يسقطان -كما في المثل الفارسيّ-؛ ولذلك نجد بعضهم لسان حاله أنّ المشغول لا يُشغل.

ومن الناس من يخرج من عمله يريد أن يرفّه عن نفسه بالجلوس مع أصدقائه، فلا يبقى عنده وقت فينشغل عن العمل الدّيني قهراً واضطراراً، وهذا ما قد يذكر مبرّراً للكثير ممّن هم عازفون عن العمل الدّينيّ.

الثّاني: كراهة التّقيّد والالتزام وتحمّل المسؤوليّة

من يكون في مؤسّسة دينيّة ويسهم فيها فإنّه يكون متقيّداً بعض الشّيء، وتكون عليه بعض المسؤوليّات، ويكون ملتزماً بقوانين هذه المؤسّسة، بخلاف من لا يعمل في هذه المؤسّسات فإنّه يكون حرّاً طليقاً لا رقيب ولا حسيب -كما يقال- في وقته، فالإنسان بطبيعته لا يحبّ التّقيّد والالتزام.

الثّالث: الأصدقاء المنفّرون عن العمل الدّينيّ

إنّ المؤمن قد يجد وقتاً للعمل في المؤسّسات الدّينية، ولا يمتعض ولا يضيق صدره من الالتزام، إلّا أنّه قد يصادق بعض المؤمنين غير المتفاعلين مع العمل الديني.

فبعضهم قد يكون عنده عذر فلا يستطيع أن يخدم، ولكن ما هو المبرّر في أن يصدّ غيرَه عن العمل في المؤسّسات الدّينيّة، وبعضهم قد يحصل له موقف مع أحد العاملين في مؤسّسة من المؤسّسات الدينية، فتحصل عنده ردّة فعل من ذلك

فيُنفَّر من العمل وينفِّر غيره في كلّ المؤسّسات، فبعض الأصدقاء قد يقف حائلاً بين أصدقائه وبين العمل في المؤسّسات الدّينيّة.

الرّابع: الجوّ الاجتماعيّ (العقل الجمعيّ)

والمراد به أفراد المجتمع فعندما يشيع بين أصدقاء المؤمن، وأقربائه وجيرانه وأهل محلّته وقريته النّفور عن العمل في المؤسّسات الدّينيّة.

فإنّ المؤمن قد ينجرّ مع العقل الجمعيّ فينساق معهم فيما هم عليه، فيرون من يعمل في المؤسّسات الدّينية أنّه شاذٌّ عنهم، وكأنّه خلاف العرف العامّ الصّحيح عندهم.

الخّامس: عدم انتشار ثقافة العمل التطوّعيّ في المؤسّسات الدّينيّة

إنّ بعض المؤمنين ليس عندهم وضوح لآثار العمل التّطوعي في المؤسّسات الدّينيّة وأهدافه، ولأجل ذلك قد يسبّب هذا النّأيَ بالنّفس لبعض المؤمنين عن العمل في المؤسّسات الدّينيّة، أو على الأقلّ عدم الاهتمام والتّفاعل مع المشاريع الّتي تقوم بها هذه المؤسّسات الدّينيّة، فكثيرون هم مستعدون للعمل الدّينيّ لو أُرشدوا، وبعضهم يدخل ولكن سرعان ما يخرج، كلّ ذلك ربّما يرجع إلى عدم استشعار أهمّيّة ما يقوم به.

السّادس: اعتقاد نافليّة العمل الدّيني

والمراد بذلك أنّ المؤمن إذا لم يعتبر هذا العمل من الأمور الواجبة عليه، ويعدّه من الواجبات وفي سلّم الأولويّات، فإنّه يتقاعس عنه ويجعله أمراً هامشيّاً ويقدّم غيره عليه باعتبار عدم أهمّيّته؛ إذ لو كان مهمّاً لكان قد جعله في سلّم أولويّاته، فاعتقاد الشخص بعدم كون أمر من الواجبات عليه، وأنّه أمر من نافلة الأعمال يجعل الشّخص لا يكترث به.

السّابع: النّظرة الخاطئة من المجتمع لمن يخدم في العمل الدّيني

بعض النّاس ينظر إلى من يعلّم النّاس التّعاليم الدّينيّة نظرة بغير ما ينظر به من يعلّم في المدرسة الأكاديميّة أو الجامعة أو المعهد، فيبجّل الثّاني تبجيلاً دون الأوّل؛ وذلك لأنّ الثّاني يعلّم موادّ لها من الأهميّة بمكان، بحيث تنفعنا في الأمور الدنيويّة، بخلاف الأول فلا ينفعنا كثيراً في أمورنا الدنيويّة -بحسب نظرهم-، فبسبب هذه النّظرة الخاطئة تجعل البعض يبتعد ويعزف عن العمل الدّينيّ، ولا يتشجّع إليه ويتوجّه لغيره.

الثّامن: غياب القيادة في المؤسّسات الدينيّة وعدم التّعاون بين المؤسّسات

ففي القرية الواحدة مثلاً إذا لم توجد القيادة الواحدة، والتّنسيق بين المؤسّسات بحيث تصبح المؤسّسات كالمؤسّسة الواحدة، فإنّ بعض النّاس قد يجد هذا مبرّراً لعدم الدّخول فيها؛ وذلك لأنّه قد تتعارض مع بعضها، فقد يشترك في أكثر من جهة، بل قد تخلق العداوة بين أفراد بعضها، نتيجة عدم التّنسيق والقيادة الواحدة فيؤدّي ذلك لنفرة البعض عن العمل الدّينيّ كلّه؛ كي يبتعد عن التّخالف والاختلاف والتّعارك.

التّاسع: تمسّك بعض الأشخاص بالإدارة والرّئاسة وعدم التّغيير

نجد بعض النّاس يتمسّك بالكرسيّ وكأنّه إرث من أجداده، وهذا ما قد يسهم في ابتعاد البعض عن العمل والتّعاون معه؛ لأنّه يَعتبر دخولَه وعدم دخوله معه سواء فلن يغيّر شيئاً، ما دام فِكرُ الاستئثار والأنانيّة موجودَين عند بعض النّاس ممّن يتوّلون مناصب في المؤسّسات الدّينيّة.

وهذا ممّا يساعد على خلق العذر لدى البعض عن العمل في بعض المؤسّسات الدّينيّة، فتشبّث البعض ببعض المناصب وعدم السّماح لغيرهم أن يأتي محلّه، قد يساهم في عدم التّطوير وعدم التّغيير، وبالتّالي يشعر الآخرون أنّ دخولهم وعدم دخولهم سواء، فيبقى خارج هذه المؤسّسات ويريح نفسه.

العّاشر: عدم وجود التّخطيط الاستراتيجي

إنّ بعض النّاس إذا رأى أنّ المؤسّسات تمضي على نسق واحد، دون تغيير مهما اختلف الزّمان واختلفت التّحدّيات، ومهما تعاقبت الأجيال، وكأنّه شريعة من السّماء لا تتغيّر.

فإنّ ذلك قد يكون سبباً في عدم اشتراك بعض النّاس في العمل الدّينيّ، بل وقد يؤدّي إلى خروج بعض آخر عن العمل الدّينيّ؛ لأنّه يرى نفسه في دوّامة وعجلة لا تتحرّك ، فيرى أنّ المشروع الدّينيّ يراوح محلّه، كالدّابة الّتي تحاول أن تخرج من مستنقع ولا تخرج.

الحّادي عشر: ضعف الموارد المالية

صحيح أنّ المادّة ليست كلّ شيء، ولكن لا إشكال أنّه يساهم بشكل كبير في إنجاح أيّ عمل مؤسّساتيّ دينيّ، ولذا في القول المشهور[1] أنّ الإسلام بُني على سيف الأمير عليه السلام ومال خديجة عليها السلام، ممّا يدلّ على أهمّيّة المال في بناء المؤسّسات وعمرانها.

والمال ممّا يقوّم كثيراً من المؤسّسات، فكم من مؤسّسة بدأ عملها مع وجود المال، ثمّ لأجل نقص الموارد الماليّة يخرج العاملون فيها عنها فيعلّق عليها الشّمع، لسنا مع القائلين بأنّ المال هو كلّ شيء، ولكنّه يسهم بشكل كبير في إنجاح المؤسّسات.

الثّاني عشر: عدم التّشجيع والتّحفيز والتّكريم والامتيازات

فبعض النّاس ما لم يجد التّقدير من المجتمع، قد لا يدخل في العمل الدّينيّ أو قد يدخل ولا يستمرّ؛ لأنّه يجد الدّاخل في العمل الدّينيّ وغير الداخل عند المجتمع سواء، فيبقى خارج العمل الدّينيّ، فما لم يجد محفّزاً له على العمل الدّينيّ والبقاء فيه فإنّه سرعان ما يخرج إذا دخل، أو أنّه لا يدخل من الأوّل، وهذا المحفّز ليس بالضّرورة أن يكون ماليّاً، فما لم يجد بعض النّاس نحو تكريمٍ أو تشجيعٍ فلا يستمرّ في عمله التّطوعيّ.

---

(١) هو قول مشتهر ولم أجد فيه رواية سوى ما فيه شجرة طوبى في المجلس السابع، قال صلى الله عليه وآله: «**ما قام ولا استقامَ ديني إلا بشيئين: مال خديجة، وسيف علي بن أبي طالب**» وعلى أيّ حال، فالمضمون صادق.

الثّالث عشر: سلوك بعض العاملين في المؤسّسات الدّينيّة

إنّ بعض المؤمنين الدّاخلين في سلك العمل الدّينيّ، قد ينفّر الآخرين عن العمل في تلك المؤسّسة، بل في باقي المؤسّسات؛ لأنّ كثيراً من النّاس إذا ما حصلت لهم حادثة مع فرد في أحد المؤسّسات، فإنّهم يعمّمون ذلك إلى كلّ المؤسّسات، فيكون ذلك سبباً عند بعض النّاس في النّفرة عن العمل في المؤسّسات الدّينيّة.

الرّابع عشر: الفرار من الاتهام من بعض أفراد المجتمع

من يكون في موضع المسؤوليّة، خصوصاً إذا كان هذا الموضع تدخل عليه الأموال كما في الصّناديق الخيريّة، فإنّ العامل فيها قد يكون موضعاً للتّهمة عند بعض المجتمعات؛ لأنّ الناس في كثير من المؤسّسات ترى أنّ المال يدخل لهذه المؤسّسات ولا ترى أين تُصرف هذه المبالغ، فيكون هذا ممهِّداً لوسوسة إبليس اللعين لعنه الله واتّهام العاملين في هذه المؤسّسات، فبعض الأشخاص لكي يُبعد نفسه عن مواضع التّهمة، ينأى بنفسه عن العمل في المؤسّسات الدّينية.

الخّامس عشر: التّواكل

إنّ بعض من يدخل في العمل الدّينيّ المؤسّساتي يحدث عنده تواكل، فكلّ واحد يتّكل على الثّاني بحيث يسهم في بطئ العمل في المؤسّسة، بل في انهدام المؤسّسة شيئاً فشيئاً؛ لأنّ اعتماد كلّ واحد على الآخر، وعدم إنجاز كلّ واحد وظيفته الّتي أنيطت به يؤدّي إلى عدم إنجاز الوظائف والتّكاليف، فيؤدّي ذلك إلى عدم قيام المؤسّسة على رجليها؛ لأنّ المؤسّسة قوامها بإنجاز الأعمال الملقاة على

كاهل الأعضاء، فإذا ما تلكّأ الأعضاء في إنجاز المهامّ الموكلة إليهم فإنّه يؤدّي إلى انهدام هذه المؤسّسة، وتلكّؤ الأعضاء في العمل قد يعطي مبرّراً لمن هم خارج المؤسّسات بعدم الانضمام إلى تلك المؤسّسات، كما أنّ الدّاخل الّذي عنده شعلة نشاط يخرج شيئاً فشيئاً منها.

السّادس عشر: الخجل والتهيّب

إنّ سبب عزوف بعض المؤمنين عن العمل في المؤسّسات الدّينيّة، هو الخوف والاستحياء لئلّا يقابل فئات المجتمع المختلفة؛ فإنّ من يعمل في بعض المؤسّسات قد يضطرّ ويحتاج إلى أن يقف أمام النّاس، ويخاطبهم أو أنّه يقابل الوجهاء والعلماء، فبعض النّاس لأجل خجله وتهيّبه يبتعد عن العمل في المؤسّسات الدّينيّة، ويعتبر أنّ من يريد العمل في تلك المؤسّسات يحتاج إلى جرأة هو لا يمتلكها، فيعزف وينأى بنفسه عن العمل الدّينيّ.

السّابع عشر: عدم إدراك وجود الحاجة

إذا ما اعتقد بعض المؤمنين أنّ العمل الدّينيّ لا يحتاج إلى كوادر؛ لوجود الاكتفاء بحسب نظرهم، فإنّهم لا يبادرون إلى المشاركة في العمل الدّينيّ، على قاعدة (السّعيدُ مَن كُفي بغيره)، فيرى نفسه غير مطالَب بأن يسعى في خدمة المدينة أو القرية بالعمل في المؤسّسات الدينية، بعدما اعتقد أنّه لا توجد حاجة لأمثاله، فمن يعتقد ذلك فإن كان خارج العمل الدّينيّ لا يبادر للدّخول في العمل الدّينيّ، ومن كان داخلاً فإنّه يفكّر في الخروج؛ لاعتقاده عدم الحاجة إليه، وأنّه يوجد من يسدّ محلّه ويغطّي وظيفته.

الثّامن عشر: التّكبّر

إنّ هذه الصّفة الذّميمة تجعل بعض النّاس -الذين هم بحسب الظّاهر مستواهم الدّراسيّ عالي كالمُدرّس أو الدكتور أو غيره - يرى نفسه باشتراكه في العمل الدّيني هو تنزيل من مستواه وانحطاط، فلا يتنزّل -بحسب اعتقاده- إلى العمل الدّينيّ، فقد يكون التّكبّر ورؤية النّفس كبيرة حاجزاً عن التّطوّع بالعمل في المؤسّسات الدّينيّة للقرية.

التّاسع عشر: الفئويّة والتّحزّب وعدم تقبّل الاختلاف

إنّ بعض المؤمنين يرى أنّ وجود بعض من يخالفهم في وجهة النّظر، في المسائل الاجتماعيّة على مستوى القرية، أو السّياسيّة على مستوى البلد أو المنطقة، أو الاختلاف من جهة مرجع التّقليد، يجد ذلك مبرّراً لعدم اشتراكه في تلك المؤسّسة، فلا يشترك في تلك المؤسّسة، مع أنّه كلّهم مؤمنون إلّا أنّ وساوس إبليس اللّعين لعنه الله تأتي وتقف حائلاً، بل قد تتعنون بعناوين وصبغة شرعيّة، وكلّ ذلك من مكائد إبليس اللّعين.

العشرون: عدم التوكّل على الله والإخلاص له

وهو أهمّ أسباب العزوف؛ فما لم يتوكّل الإنسان المؤمن على الله عزّ وجلّ، وما لم يحصّل الإخلاص فإنّه لن يتوفّق في الدّخول في العمل الديني والتوفيق لخدمة المجتمع، ومن كان داخلاً ما لم يكن عنده هذان الأمران -التوكّل والإخلاص- فإنّه لا يُؤمَن استمراره في هذا التّوفيق الإلهيّ العظيم؛ لأنّ خدمة الدّين والنّاس من نعم الله وتوفيقاته، فعن الأمير عليه السلام: «**إنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ**

نِعْمَةٌ مِنَ الله عَلَيْكُمْ فَاغْتَنِمُوهَا فَلَا تَمَلُّوهَا فَتَتَحَوَّلَ نِقَماً»[١].

المحور الثّاني: آثار العزوف عن العمل الدّينيّ على المجتمع

نسلّط الضّوء على نتائج هذه الظّاهرة، الّتي تنخر في جسد المجتمعات؛ كي يتّضح عند من يعزف عن العمل الدّينيّ، عظم ما ينتظر المجتمع نتيجة عزوفه.

وقبل ذكر الآثار لا بدّ من ذكر بعض الملاحظات:

ـ هذه الآثار بعضها ترجع مضارّها إلى نفس من يعزف عن العمل وبعضها يرجع إلى نفس المجتمع.

ـ بعض ما سنذكره من آثار ليس العزوف علّة تامّة لبعضها، بل بنحو العلّة النّاقصة، وبعبارة أخرى: إنّ بعض ما ذكر من آثار قد لا يكون السّبب الوحيد لحصولها هو العزوف فقط، ولكن قد يسهم العزوف بشكل واضح في حصول هذه الآثار.

ـ الآثار المذكورة الآتية هي آثار للعزوف عن العمل في المؤسّسات الدّينيّة الأعمّ من التّعليم في المساجد وغيره.

١ـ تمكين الغزو الثّقافيّ من المجتمع، إذا ما عزفتُ أنا وأنت عن العمل في المؤسّسات الدّينيّة وبقي المسجد بلا تعليم دينيّ للأجيال، أو يوجد درس أو درسان يقامان على استحياء، فإنّ الأجيال سوف تُبنى على مناهج التّعليم الدّيني

(١) بحار الأنوار، المجلسي، ج٧١، ص٣١٨.

الرسميّ، الّذي في أغلب الدّول مبني على غير منهج الثّقلين، اللّذَين أُمرنا باتّباعهما، وباتّباعهما نحصِّن أنفسنا من العقائد المنحرفة والفاسدة والغزو الثّقافيّ، فإذا ما تشبّعت عقول أفراد المجتمع بتعاليم غير أهل البيت، ولم يتصدّ أحد ممّن له الأهلية في تعليم النّاس، ورفع هذه التعاليم الفاسدة وإبدالها بتعاليم أهل البيت عليهم السلام، فإنّ المجتمع سيكون طعمة للغزو الثّقافيّ.

٢ـ الرضوخ للمعتدين، وهذا يحتاج إلى بيان وتوضيح.

وبيانه: إنّه ليس بالضّرورة أن يكون المحتلّ والغازيّ هو نفس قوى الاستكبار العالميّ، بل هي في كثير من الأحيان لا تدير الدول بشكل مباشر، وإنّما بأدواتها وأياديها الطّيّعة لها والعابدة لها، وهذه الأدوات تحاول أن تزرع في الشّعوب والمجتمعات المؤمنة، الخنوع والذلّ والرّضا بكلّ ما يفعله هؤلاء الطّواغيت تحت عناوين برّاقة خدّاعة، وما يزرعونه من تعاليم مخالِفة لتعاليم أهل البيت عليهم السلام الّتي تريد للإنسان المؤمن أن يعيش عزيزاً.

ومن أهمّ الأساليب الّتي من شأنها أن ترجع النّاس إلى تعاليم أهل البيت عليهم السلام، وعدم التّأثّر بما يروّجه الآخرون من تعاليم ومفاهيم باطلة وفاسدة، هو التّعليم الدّينيّ وذلك بإيصال تعاليم الدّين المحمّديّ الأصيل إلى النّاس، وإذا ما تلكّأ النّاس وعزفوا عن العمل على تعليم بعضهم أحكام الدّين الحنيف، فإنّ ثقافة الذّلّ والخنوع الّتي أراد زرعها الاستكبار العالمي، سوف تجد الأرضيّة الممهّدة والصّالحة لها.

٣ـ جهل بعض أفراد المجتمع بتعاليم الدّين وأحكامه، وهذا الأثر تجده جليّاً واضحاً من سؤال بعض الناس فيما هو بديهيّ، فمع وجود التكنولوجيا المتطوّرة، إلّا أنّه كم نسبة الّذين يتابعون ويسألون عن مسائلهم الّتي يبتلون بها عن طريق الإنترنت؟، وللأسف الشّديد فإنّك تجد نسبة الّذين يتعلّمون الأحكام الدّينيّة، في بعض المجتمعات هم معدودون على أصابع اليد، على الرّغم من أن جلّ المؤمنين يعلمون بوجود تكاليف في عهدتهم، وذمّتهم مشغولة بأداء التّكاليف الشّرعية على وجهها الأتمّ، إلّا أنّك تجد الكثير يجهل المسائل الّتي يبتلي بها هو، فيؤدّي ذلك إلى اقتحام الشّبهات، بل بعض المحرّمات، ممّا يجعله مستحقّاً للعقاب والسخط الإلهيّ.

٤ـ تفكّك المجتمع وتشرذمه، وذلك أنّه لو أنّ كلّ واحد منّا قد اعتزل عن العمل في المؤسّسات الدينية، والّتي هي قوام المجتمع المؤمن؛ لأنّ الّذي يجمع المؤمن بأخيه المؤمن في الغالب هي المناسبات الدّينيّة، وهي الّتي تقوّي أُصر وروابط المؤمنين، وتجعل المجتمع بمثابة الجسد الواحد، فلو ابتعدتُ أنا وأنت عن التّعاون والعمل في المؤّسسات الدّينيّة للقرى فإنّه قد يؤدّي إلى تعليق الشّمع عليها وإغلاقها؛ إذ أوتاد المؤسّسات هم الأعضاء فبذهابهم تذهب المؤسّسات، ويذهب ما بين الأعضاء من العلاقة الحميمة والتّواصل الّذي كان بينهم.

٥ـ ضياع المواهب، فجلّ أو كلّ إنسان عنده موهبة أو مواهب، وهذه بمثابة الزّرع، فما لم يُسقَ بالماء ويُتابَع فإنّ هذه الزّرعة تموت، وكذلك الموهبة ما لم تُستَغل

وتوظّف بشكل صحيح فإنّها تضمحل وتذهب، فكثير من الطّاقات عند هذا الإنسان ولكنّها مضمرة تحتاج إلى من يظهرها:

وتحسب أنّك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

وهذه المهارات والطّاقات أهمّ ما ينمّيها، ويخرجها من القوّة إلى الفعل، ومن العدم إلى الوجود هو العمل في المؤسّسات الدّينيّة، فليس العمل في المؤسّسات واحداً، بل هناك وظائف عدّة في هذه المؤسّسات، فإذا ما اعتزل الإنسان المؤمن فقد يسهم في اندثار موهبته وطاقاته، بخلاف ما لو ساهم وشارك في العمل الدّينيّ.

٦ـ **الإسهام في انحراف الأجيال**، من الواضح أنّه من يعتزل عن تعليم النّاس مع قدرته على ذلك، فإنّه يسهم بشكلٍ وآخر في انحراف المجتمع، وتركه فريسة ولقمة سائغة للانحراف الأخلاقيّ، فإنّ طرق الشّيطان كثيرة لأجل أن يحرف الإنسان ويغويه، سواء عن طريق التّلفاز أو الهاتف أو بعض الأصدقاء، وممّا يسهم في وقف نزيف الانحراف الأخلاقيّ هو تعلّم أحكام الدّين، من عقائد وفقه وأخلاق وغيرها، فمن يشترك في التّعليم الدّينيّ هو في الحقيقة يسهم في استقامة وصلاح الأجيال، بخلاف ما لو اعتزل وابتعد عن ذلك.

٧ـ **التمهيد لغزو الفكر العلماني المجتمعَ**، وهو الفكر الّذي محوريّته ـ بحسب مدّعاهم ـ الإنسان لا الدّين، بناء على اعتقادهم الباطل من فصل الدّين عن السياسة ومسرح الحياة، فإنّ عزوف أفراد المجتمع عن العمل الدّينيّ، قد يؤدّي إلى جهل كثير من النّاس بالدّين وتعاليمه، وبالتّالي إلى اضمحلال ثقافة الدّين من أوساط أفراد المجتمع، وتلاشي محوريّة الدّين في الحياة، فتتمهّد الأرضيّة

ويخلو الجو لأنياب الفكر العلمانيّ لتنقضّ على المجتمع وتلتهمه، بخلاف ما لو بادر النّاس إلى المشاركة والتّفاعل في العمل الدّينيّ، فإنّهم يقطعون الطّريق أمام أطماع العلمانيّين وغيرهم، فيتحصّن المجتمع بالتّعاليم الدّينية الحقّة، فلا تنطلي على المجتمع الخدع العلمانيّة وغيرهم تحت أيّ عنوان.

٨ـ سيطرة بعض ذوي الأفكار المنحرفة، إنّ عزوف أهل الإيمان عن العمل الدّينيّ، قد يؤدّي إلى تولّي السّاحة بعضُ الجماعات المنحرفة كجماعة مدّعي السفارة وغيرهم، فمتى ما ابتعد المؤمنون الملتزمون عن هذه المؤسّسات، فإنّه سيتصدّى من هو ليس أهلاً لذلك، وعند ذلك نكون قد تسبّبنا بانحراف أبنائنا بأيدينا، أما لو ملأنا المؤسّسات الدّينيّة، وبادرنا إلى العمل فيها فلن يكون هناك متنفّس لهذه الجماعات المنحرفة أو ذوي الأفكار المنحرفة.

٩ـ اندثار ثقافة التّعاون ومساعدة الآخرين، فإنّ من أهمّ الأمور الّتي يكتسبها العامل في المؤسّسات الدّينيّة في المجتمع، هو ترسيخ ثقافة التّعاون مع الآخرين ومواساتهم، وأن يعيش همّهم وكذلك ثقافة التّكافل الاجتماعيّ، فإنّ العامل في الصّندوق الخيريّ، أو مركز التّعليم الدّينيّ أو غيره يجد نفسه مضطرّاً إلى التّعاون مع غيره، ومساعدة الآخرين كما هو طبيعة العمل المؤسّساتي الدّينيّ، فمن يبتعد وينزوِ عن العمل الدّينيّ يحرم نفسه من ذلك كلّه.

١٠ـ التّسبيب والتّمهيد لإغلاق بعض المؤسسات، فممّا لا يخفى على المؤمنين أنّه هناك من يتربّص بالمؤمنين الدّوائر، وهم أعداء الدّين، فإذا ما سارع النّاس وأفراد المجتمع لملء المؤسّسات الدّينيّة وعدم تركها، فإنّ ذلك يكون مانعاً لأعداء الدّين عن الاقتراب من هذه المؤسّسات، فيرى أنّ النّاس متمسّكون

بدينهم، فلا يفكّر بالاقتراب منها، بخلاف ما لو رأى النّاس مبتعدين عن المؤسّسات الدّينيّة، فإنّ هذا العدوّ سينقضّ عليها ويغلقها.

المحور الثّالث: الحلول المقترحة

وهذه الحلول المقترحة المؤمّل منها أن توقف أو تحدّ من هذه الظاهرة المستشرية في مجتمعاتنا، وليقف هذا النزيف الّذي يؤدّي إلى ما ذكرناه من الآثار والمضارّ على المجتمع.

١ـ التّوكّل على الله والإخلاص له، فهو أسّ كلّ شيء وأساسه، فمن يعزم على فعل أمرٍ ما متوكلاً على الله ومخلصاً له لا شكّ أنّه يحصل مراده ولو بعد حين، ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾(الأنفال:٤٩)، ﴿**وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً**﴾(الطلاق:٣)، نقل عن أبي الحسن الأوّل عليه السلام أنه سئل عن قول الله عزّ وجلّ ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ فقال: «**التوكّل على الله درجاتٌ: منها أن تتوكّل على الله في أمورك كلّها فما فعل بك كنت عنه راضياً، تعلم أنّه لا يألوكَ خيراً وفضلاً، وتعلَم أنّ الحكم في ذلك له، فتوكّل على الله بتفويض ذلك إليه، وثق به فيها وفي غيرها**»[1].

فهذه بعض الآيات والرّوايات تؤكّد على أنّ من يجعل الخالق نُصب عينه ينفتح أمامه كلّ باب، ويسهّل عليه كلّ عسير، كيف لا ومقادير الأمور بيده، وكلّ شيء بيده عزّ اسمه، فبعد أن يتوكّل الإنسان على الله، ويضع الخالق نصب عينه في كلّ شيء، فلا مدح ولا نقد هدّام أو ذمّ، ولا يهمّه تقدير من قدّر عمله وعدم

(١) الكافي، ج٢، ص٦٥، باب التفويض إلى الله والتوكّل عليه، ح٥.

تقديره، ما دام يعلم أنّ الله يرى وأنّه مثيبه، نعم يمكنه أن يستفيد من نقد الآخرين من دون أن تكون مثبّطة له.

٢ـ تنظيم الوقت، وهو من الأمور المهمّة لجميع شؤون الحياة، ما لم ينظّم الإنسان وقته فإنّه ليس فقط لن يستطيع العمل في المؤسّسات الدّينيّة، بل لا يمكنه الدّخول في العمل الدّينيّ، بل كثير من الأعمال لن يستطيع إنجازها، ولأهمّيّة تنظيم الوقت نرى أنّ الأمير عليه السلام قرنه بالتّقوى، فعنه عليه السلام في وصيته للحسن والحسين عليهما السلام: «**أُوصِيكُمَا بِتَقْوَى الله... وَنَظْمِ أَمْرِكُمْ وَصَلَاحِ ذَاتِ بَيْنِكُمْ**»[1]. وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أهمّيّته في حياة الإنسان، ونرى أنّه تقام لأجله كثير من الدّورات، وما ذلك إلّا لأنّ ذلك له ما ماله من الأثر في تحقيق الانجازات، بل هو قوام إنجاز التّكاليف وبه تسير عجلة الحياة.

وما ذكر من عذر في العزوف عن العمل بسبب عدم الوقت، يمكن أن يقال جواباً على ذلك، بأنّ ما ذكر ليس مبرّراً للعزوف عن العمل الدّينيّ، أمّا بالنّسبة للقمة العيش وأنّه يمنع الإنسانَ طلبُها عن العمل في المؤسّسات الدّينيّة للقرية، فما ذكر قد يكون صحيحاً في الجملة، ولكن يمكن للإنسان أن يلتمس وقتاً لخدمة المجتمع في المؤسّسات الدّينيّة، وكلّ إنسان أعلم بنفسه وأوقات فراغه، فسبب الانشغال لوظيفة تحصيل الرزق لو سلّم فإنّه لا يصدق على جميع النّاس، بل قد يكون كثير من النّاس يجد وقتاً لذلك.

---

(١) نهج البلاغة (للصبحي صالح)، ص ٤٢١، ومن وصية له عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه ابن ملجم لعنه الله، رقم الرسالة ٤٧.

وأمّا الانشغال بالأهل والأولاد، وأنّهم يأخذون كلّ الوقت، فلا يبقى مجال لأن يعطيه للقرية ومؤسّساتها، فإنّ الأولاد وإن كان لهم عليك حقّ، إلّا أنّ المجتمع كذلك له عليك، فعدم إعطاء الأهل والأولاد حقّهم قد يؤدّي إلى تشتّت وتفرّق الأسرة ويعود بالضرر عليها، فكذلك المجتمع فإنّ عدم إعطائه حقّه ربّما يصبح عاملاً في تشتّت وتمزّق المجتمع وتفرّقه.

وأما الانشغال بالتّرفيه عن النّفس بالالتقاء مع الأصدقاء، وأنّه يأخذ الوقت فلا يستطيع الإنسان أن يجمع بينهم وبين العمل الدّينيّ، فإنّه وإن كان من المهمّ أن يرفّه الإنسان عن نفسه، وصحيح «**إنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقّاً**»، ولكنّ هذا الحقّ لا ينافي المساهمة بالعمل في المؤسّسات الدّينيّة، فيمكن للإنسان بتنظيم وقته أن يجمع بين ذلك فليس هو جمع بين نقيضين.

٣ـ توطين النّفس على الالتزام وتحمّل المسؤوليّة، فإنّ من رام وابتغى العلى لنفسه وبلده فليتّخذ الالتزام طريقاً لذلك، فما لم يعلم الإنسان نفسه الالتزام وتحمل المسؤولية فإنّه لن يرتقي ويتقدّم، بل إلزام النّفس بشيء هو قرين النّجاح في أيّ عمل، فمن أراد أن ينجح في مشروعٍ ما، فعليه بالالتزام والصّبر على الالتزام، وأن يعضّ عليه بالنّواجذ.

وما ذكر من سبب للعزوف عن العمل الدّينيّ، بسبب عدم حبّ الالتزام والتّقيّد، يمكن أن يجاب على ذلك أنّ الالتزام وإن كان قد يعد من الأمور الصّعبة، إلّا أنّ هذه الصّعوبة في بداية الالتزام، ومع اعتياد الشّخص على الالتزام فإنّه يكون روتيناً يوميّاً ومن برنامج حياته، بل أساسه، على أنّ الالتزام والتّقيّد لا بدّ منه في جوانب كثيرة في الحياة، فإذا توهّم الإنسان أنّه تنصّل من مسؤوليّة فإنّه

قهراً من غير شعور يلتزم بأمور كثيرة، وإن لقّن نفسه عدم الالتزام، فذهابه إلى عمله في وقت معيّن ورجوعه في وقت معيّن آخر هو التزام، وكذلك أداء العبادات في أوقاتها من صلاة وصوم وحجّ وزكاة وغيرها، فكأنّما الإسلام يريد أن يعلّمنا الالتزام بطريقة عمليّة؛ ولذلك بعض العبادات لو أدّيت في غير أوقاتها لما كانت صحيحة، فالإنسان النّاجح لا بدّ له من الالتزام والتّقيّد، بل طريق النّجاح وسلّمه هو الالتزام وتحمّل المسؤوليّة، ولا يخفى أنّ المراد بالتّقيّد هو ما ذكرناه من المعنى الإيجابيّ له لا المعنى السّلبيّ له.

٤ـ النّظر للعمل الدّينيّ أنّه صدقة جارية وأنّ فيه خير الدّنيا والآخرة، فما لم ينظر الإنسان إلى العمل الدّينيّ نظرة أُخرويّة، ويفكّر فيما هو الباقيّ لا شك أنّه سيفرّط فيه ولا يُعيره كثير اهتمام، فخدمة الدّين والمجتمع نوع صدقةٍ جارية، وهي الّتي تنفع الإنسان فيما بعد موته، ففي الحديث عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا عن ثلاث: ولدٍ صالح يدعو له، وعلمٍ يُنتفع به، وصدقةٍ جارية**»[1].

فإذا ما فكّر الإنسان فيما هو خالد، ونافع له ولدينه ومجتمعه، فلن يسمع كلام صديق ينفّره عن العمل الدّينيّ، مهما كان هذا الصّديق، والصّدقة الجارية ليس بالضّرورة أن تكون مالاً من درهم أو دينار، بل ربّما يكون العمل الدّينيّ أكثر أثراً من المال بلحاظ ما يتركه من أثر، فتربية الأجيال وهدايتهم وتعليمهم علوم آل محمّد عليهم السلام، كم له من الأجر العظيم الّذي به يعمّر الإنسان آخرته!، فإذا ما منع

(١) مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل؛ ج١٢، ص٢٣٠، باب ١٥ (استحباب إقامة السنن الحسنة وإجراء عادات الخير والأمر بها وتعليمها وتحريم إجراء عادات الشر)، ص ٢٢٨.

الإنسانَ صديقٌ أو غيره عن العمل في المؤسّسات الدّينيّة، أو عاتبه على العمل فيها لا يقف هكذا ويسلّم بما قال ويترك العمل، بل المؤمن الرّساليّ لا تأخذه في خدمة الدّين والنّاس لومة لائم.

٥ـ جعل الدين هو الميزان، فمن يجعل الإسلام هو ميزان الرّفض والقبول، فإنّه لا تأخذه في الله لومة لائم، أيّاً كان هذا اللائم؛ لأنّه إذا كان العمل الدّيني مطلوباً من الدّين -وهو كذلك-، فلا يهمّه أيّ قول على خلاف ذلك حتّى لو لامه أغلب المجتمع.

وما قد يذكر من أنّ الجوّ العامّ والعقل الجمعيّ، أو نظر المجتمع يؤثّر في الإنسان المؤمن، فيرى كثيراً من النّاس يعزف عن العمل الدّينيّ فهو بتبعهم، فإنّه يمكن أن يجاب على ذلك بأن يقال من يصنع المجتمع؟ أليس أنا وأنت؟، فعندما تشيع بين أفراد المجتمع ظاهرة غير حسنة، فهل يعني ذلك أنّنا ننجرّ معهم في كلّ شيء؟!، كلّا ليس صحيحاً، فينبغي للمؤمن أن يجعل الدّين والشّريعة هي الميزان، في الرّفض والقبول لأيّ فكرة وأيّ ظاهرة كانت، بل يعرضها على الدّين والشّريعة المقدّسة، الّتي هي من خالق الكون، الذي لا يأتي إلّا بما هو صحيح وفيه مصلحة للبشر، وأمّا إذا جعلنا الميزان للقبول والرّدّ هو العرف والنّاس، دون الشّرع فإنّه لا يعلم أنّ قبولنا لهذه الظّاهرة أو تلك، هل هو في مصلحتنا أم لا، ولا نعلم أنّ رفضنا لهذه الظّاهرة هل هو في مصلحتنا أم لا، فينبغي للمؤمن أن يجعل الميزان والضّابط في كلّ شيء هو الدّين، وإذا جعل المؤمن الدّين هو الميزان، فلا شكّ أنّه إذا تعارض ما يقوله الدّين، وبين ما يقوله العرف والنّاس فإنّه يقدّم ما يقوله الدّين، ولا نشكّ أنّ العمل في المؤسّسات

الدّينيّة الّذي هو تقوية للدّين، هو مطلوب ومرغوب فيه من قبل الدّين.

٦ـ اعتقاد أهمّيّة العمل الدّينيّ وعدم نافليّته وإدراك الحاجة، فعندما يعتقد الإنسان عدم أهمّيّة عملٍ ما، وعدم الحاجة فإنّه لا يسعى إليه بجدّيّة، فلا يوجد عنده دافع ومحرّك نحو ذلك العمل، بخلاف ما إذا اعتقد أهمّيّة العمل وأدرك ضرورته والحاجة إليه، فإنّه يسعى إليه سعياً حثيثاً ولا يتوانى لحظة، بل يحثّ الآخرين على العمل فيه، فمن يرى بعين البصيرة تكالب قوى الاستكبار على الإسلام، وعملهم ليل نهار على طمسه بوسيلة وأخرى، فإنّه لا يألو جهداً في الدّفاع عنه ورفع رايته، وذلك بتقوية مؤسّساته والعمل فيها.

٧ـ العمل على نشر ثقافة العمل التّطوّعيّ في المؤسّسات الدّينيّة، وذلك بذكر أهمّيّة العمل الدّينيّ في خطب الجمعة والمحاضرات في المساجد والمنابر، ووضع ملصقات لأحاديث المعصومين عليهم السلام، في الحثّ على مساعدة الآخرين، وثواب قضاء حوائج المؤمنين وتعليم النّاس، فإنّ ذلك من شأنه أن يخلق ثقافة العمل التّطوّعيّ في المؤسّسات الدّينيّة.

٨ـ البحث عن مساهم من أهل الخير لدعم المؤسّسات الدّينيّة مع الإمكان، فأهل الخير كثيرون، وكثير ممّن يبحث عن صدقةٍ جارية.

وأمّا مع عدم وجود المساهم أو قلّته، فإنّه لا يعني إقفال المؤسّسات الدّينيّة وتعليق الشّمع عليها، بل ينبغي ألّا يوقف المؤمنَ الرّساليَّ العاملُ الماليُّ، وقد يكون العمل بدون مقابل أكثر إخلاصاً لله من العمل الّذي فيه المال، فالعمل الدّينيّ قائم بالأعضاء وإخلاصهم بالدّرجة الأولى لا بالمال وحسب.

٩ـ ينبغي جعل القيادة لكلّ المؤسّسات الدّينيّة للقرية؛ ليحصل التّنسيق بينها، وبالتّالي تنجذب النّاس للعمل التّنظيميّ المؤسّساتي، وهذه القيادة ينبغي أن تكون بتعيين من كبار علماء ذلك البلد؛ وذلك لأنّ من سيكون رئيساً فإنّه رئيس على مؤسّسات دينيّة، وبالتّالي فلا بدّ من معرفة الحلال والحرام، وأيّها أصلح من غيره، وأفضل ما يشخّصه هم أهل الاختصاص وهم العلماء، وإن لم يكن كذلك فعلى الأقل تكون هيئة تنسق بين المؤسّسات منتخبة من النّاس بقانون عصريّ، والأمر المهمّ هو عدم استئثار وتشبّث شخص أو عائلة بكرسيّ، إلّا إذا كان ذلك عن طريق العلماء أو انتخاب النّاس، والمؤسّسات الدّينيّة مع القيادة تختلف عنها لو كانت من غير قيادة موحّدة وهذا نشعر به بالوجدان.

١٠ـ وضع خطط إستراتيجيّة، فعندما تمتلك المؤسّسات الدّينيّة مشروعاً ومخطّطاً تسير على وفقه، فإنّ ذلك من شأنه أن يُقبِل النّاس أكثر على الاشتراك فيها، فإنّ الإنسان من عادته يحبّ أن يستشرف المستقبل ويرى نتائج عمله، فإذا ما وضعت خطط إستراتيجية فإنّ ذلك يشجّع الآخرين أكثر على المشاركة في العمل الدّينيّ.

١١ـ التّحفيز والتّشجيع، فمن الأمور الّتي تساهم في جعل الإنسان يستمرّ في العمل بجدّ وتجذبه للعمل في مؤسسة ما هو التّحفيز، وليس بالضّرورة أن يكون بالمال، فإن أمكن بالمال فبها ونعمت، وإلّا يكون التّشجيع بالكلام الحسن المشجّع، أو بالزّيارة لمقام دينيّ أو غير ذلك، فإنّ ذلك ممّا يسهم في جعل الأعضاء يعملون بنشاط أكثر.

١٢ـ تحلّي العاملين في المؤسّسات الدّينيّة بالأخلاق الحسنة، وهذا من شأنه جلب الآخرين وتشويق الآخرين في المشاركة معهم في العمل الدّينيّ، والعكس بالعكس، فكم من النّاس بسبب رؤيته لحسن أخلاق بعض العاملين في المؤسّسات الدينية، كان ذلك دافعاً لهم في المشاركة في العمل الدّينيّ.

١٣ـ علوّ الهمّة والنّشاط، فمن يدخل في المؤسّسات الدّينيّة، ينبغي عليه ألّا يتواكل ويتثاقل، بل عليه أن يكون نشطاً فعّالاً مجدّاً، فإنّ ذلك يكون عاملاً في نشاط الآخرين من الأعضاء، وبالتّالي وقوف المؤسّسة على قدميها، فلا يفكّر بالعزوف؛ لأنّ علوّ الهمّة إذا اعتاد عليه فإنّه يكون جزءً منه لا يستطيع مفارقته.

١٤ـ الإقدام وعدم الخجل، فلا بدّ أن يكون الإنسان المؤمن جريئاً في استلام بعض المهمّات الّتي توكل إليه في العمل الدّينيّ، وإن أدّى ذلك إلى الوقوف أمام النّاس؛ فما دام ذلك في رضا الإمام الحجة عجل الله تعالى فرجه الشريف فلا يبالي في الإقدام.

١٥ـ التواضع، وعدم الاستعلاء على المجتمع، فإنّ الإنسان بتواضعه يرتفع، بل يرفعه الله، فعن أبي عبد الله عليه السلام: «**من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبّر خفضه**»[1] وأما الاستعلاء فإنّه ينحدر بالإنسان من غير أن يعلم، فينبغي للإنسان المؤمن عدم التكبر ومساعدة المجتمع بمشاركته في العمل الديني لمنطقته.

١٦ـ تقديم مصلحة الدين والمجتمع، فإنّ من يرى مصلحة الدّين والمجتمع مقدَّمة على مصلحته ومصلحة حزبه، فإنّه يعتبر أنّ من يعمل معهم في مؤسّسة دينيّة ويتعاون معهم من المؤمنين هم إخوته، وما دام الدّين

---

(١) الكافي، الكليني، ج٢، ص ١٢٢، باب التواضع، ح٣، (طبعة – الإسلامية).

ومصلحته نصب عينه، فإنّه لن يصبح هناك تصادم، ولذلك قالوا إنّ الأنبياء لو جعلوا في قرية واحدة فلن يتنازعوا ولن يتعاركوا؛ لأنّ الهدف واحد وهو دين الله ﷻ.

والاختلاف في وجهات النّظر أمر طبيعيّ جدّاً، بل عدمه هو النّادر القليل، ولكنّ هذا الاختلاف لا ينبغي أن يكون حاجزاً ومبرراً لعزوفي عن العمل التّطوّعيّ، فينبغي أن يكون لديّ بُعد نظر، وأُقدِّم مصلحة الدّين وأتغاضى عن مصلحتي وهواي؛ باعتبار أنّ العزوف عن العمل الدّينيّ لمجرّد الاختلاف في وجهة النّظر السياسيّة أو الاجتماعيّة هو ليس في مصلحة الشّخص بالنّظر إلى المستقبل والحقيقة والواقع.

نعم لا ينبغي إشراك من يخالف ويحارب خطّ العلماء ولا ينبغي الاشتراك معه؛ لأنّ الواقع أنّ من يقف في وجه العلماء هو يقف ضدّ المؤسّسة الدّينيّة في الحقيقة، فهو في الظّاهر يخدم المؤسّسة الدّينيّة، ولكن في الواقع يقف ضدّها ويحاربها ويعمل على هدمها من حيث يشعر أو لا يشعر.

١٧ـ العمل التطوّعي مفتاح التوفيق، ينبغي أن يدرك الذي يتطوّع بالعمل في المؤسّسات الدّينيّة للمجتمع، أنّه بذلك تفتح له أبواب الخير من غير أن يعلم، ولعمري إنّ بعض من يتعذّر عن العمل في المؤسّسات الدّينيّة، بحجّة عدم الوقت والانشغال، لو يدرك أنّ هذا العمل هو الّذي يسهم في بركة وقته ويجعله مباركاً، وبالتّالي ينجز أموراً كثيرة، في وقت قد لا يتوقّع نفسه بعد انتهائها أنّه أنجزها، وما ذلك إلّا لأجل البركة في الوقت، الّتي هي مسبّبة ونتيجة لأجل تطوّعه وخدمته للدّين والمجتمع.

كيف لا، وقد جاء في بعض الرّوايات أنّ الله عزّ وجلّ في عون العبد ما دام في عون أخيه، وهناك بعض الرّوايات تذكر أثراً أُخرويّاً وهو الوقاية من ميتة السّوء.

وهنا تبركاً نذكر بعض الرّوايات في هذا الشّأن، فقد نُقل عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «**صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ**»(١).

وعن المفضل عن أبي عبدالله عليه السلام قَالَ: «**يَا مُفَضَّلُ، اسْمَعْ مَا أَقُولُ لَكَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ الحقُّ، وَافْعَلْهُ وَأَخْبِرْ بِهِ عِلْيَةَ إِخْوَانِكَ**، قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ وَمَا عِلْيَةُ إِخْوَانِي؟ **قَال**عليه السلام: **الرَّاغِبُونَ فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ إِخْوَانِهِمْ**. قَالَ: ثُمَّ قَالَ عليه السلام: **وَمَنْ قَضَى لِأَخِيهِ المؤْمِنِ حَاجَةً قَضَى الله** عزّ وجلّ **لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِائَةَ أَلْفِ حَاجَةٍ مِنْ ذَلِكَ، أَوَّلُهَا الجنَّةُ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنْ يُدْخِلَ قَرَابَتَهُ وَمَعَارِفَهُ وَإِخْوَانَهُ الجنَّةَ بَعْدَ أَنْ لَا يَكُونُوا نُصَّاباً**. وَكَانَ المفَضَّلُ إِذَا سَأَلَ الحاجَةَ أَخاً مِنْ إِخْوَانِهِ قَالَ لَهُ: أَمَا تَشْتَهِي أَنْ تَكُونَ مِنْ عِلْيَةِ الْإِخْوَانِ»(٢).

والعجيب أنّ الملاحظ في بعض المجتمعات –بحسب الاستقراء الجزئي– أنّ الذين يخدمون الدين والمجتمع هم الأكثر توفيقاً من غيرهم، بل قد ينجزون أعمالاً أكثر من الذين يدّعون الانشغال وعدم الوقت.

بل الذين يخدمون الدين والمجتمع هم عِلية القوم، وكما ورد عنه صلى الله عليه وآله: «**سيد القوم خادمهم**»(٣)، وبهذا المضمون أيضاً في روايات أخرى، وكما نقلنا رواية المفضّل عن الإمام الصادق عليه السلام المتقدّمة، وغيرها من الروايات.

---

(١) الكافي، الكليني، ج ٤، ص ٢٨، باب أنّ صنائع المعروف تدفع مصارع السوء، ح١.
(٢) نفس المصدر، ج ٢، ص١٩٢، باب قضاء حاجة المؤمن، ح١.
(٣) من لا يحضره الفقيه، الصدوق، ج ٤، ص٣٧٨، رقم ٥٧٩١.

الخاتمة

إنّ العزوف من أخطر الظّواهر الّتي تنخر في المجتمع، ولهذه الظّاهرة آثار مهلكة على المجتمع والأمّة، حاضرها ومستقبلها، وهذه الظّاهرة لها أسباب كثيرة، فينبغي الوقوف على أسبابها واقتلاعها، ولا بدّ من النّظر قبل ذلك في الآثار؛ لعلّ ذلك يكون دافعاً لرفع هذه الظّاهرة والوقوف دون انتشارها في المجتمع، وهناك حلول كثيرة لهذه الظّاهرة الخطيرة ينبغي السّعي الجادّ في العمل بها؛ لكي يتعافى المجتمع منها.

قل هو الله أحد
الله الصمد
لم يلد ولم يولد
ولم يكن له كفوا أحد
سورة الإخلاص

الموروث الاجتماعي وتحديات التغيير

الشيخ علي أحمد الجفيري

الملخّص:

يتعرّض المقال إلى مسألة مهمة وهي ما أسماه الكاتب بالموروث الاجتماعي الذي هو العادات والتقاليد المتوارثة، وقد بيّن أقسامها، ومدى تأثيرها على شخصية الفرد وفكره وجميع جوانبه، ثمَّ تطرّق إلى كيفيّة التعاطي الصحيح مع هذا الموروث، فلا يقبل بشكل مطلق ولا يرفض بشكل مطلق، بل يجب الفحص والتفصيل في ذلك.

قال الله تعالى في كتابه المجيد: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(البقرة: ١٧٠).

المقدمة:

تتطلَّبُ مسألةُ التحديد العملي الصحيح للمصير النهائي للإنسان دراسةَ العديد من الجوانب المؤثِّرة في شخصيته، والتي تقوم باتخاذ القرارات والمواقف وفق ما تتوفَّر عليه من صفات، وما تؤمن به من مبادئ نشأت من تأثير مزيج من تلك العوامل في العادة، وإنَّ من أهمِّ ما ينبغي تسليط الضوء عليه في هذا الجانب، هو عامل المحيط الاجتماعي، والبيئة الثقافية التي ينشأ أو يعيش فيها الإنسان، فربما أمكن القول: بأنَّه -في العادة- يمتلك هذا العامل بالخصوص الرصيد الأكبر في صياغة شخصية الإنسان من حيث الابتداء أولاً (التلقين)، والاستمرار ثانياً (المراقبة)، إلى درجة يكون تأثيرُه فيها خفياً غيرَ محسوس، جراء ما اعتاد عليه الإنسان من رضوخ لسلطة هذا العامل بنحو متعمّق جداً، حتى عاد كأنَّه غير موجود من شدّة اندماجه -في التأثير- مع الحياة!

من هنا تأتي أهمية هذا البحث الذي يحمل عنوان: (الموروث الاجتماعي وتحديات التغيير)، ويمكن بحثُه عبرَ ثلاث نقاط:

أولاً: ما هو معنى الموروث الاجتماعي؟

ثانياً: ما هي طبيعة التأثير التي يمتلكها هذا العامل؟

ثالثاً: كيف ينبغي أن نتعامل معه؟

أولاً: معنىٰ الموروث الاجتماعي

المقصود من الموروث الاجتماعي هو: ذلك الكمّ المتراكم الهائل من المفاهيم القيمية، ذات الجذور الفكرية المعينة، التي يتلقّاها الإنسانُ بالتدريج من المجتمع المحيط به، والتي تبدأ من أصول الفكر، منتهيةً إلى أدقِّ التفاصيل السلوكية المسماة بالعادات، وهي مفاهيم عملية متحرّكة، مؤثرة، نامية ببطء، تُتَناقل من جيل إلى جيل، وتشكِّلُ سلطةً مؤثّرة في طباع الفرد والمجتمع على نحوين:

إمَّا على طريقة التّلقين بفرض مقتضياتها، فلا يكون للطرف المتأثر بها إلا الاستجابة إلى حدّ الخدَر.

وإمَّا أن يكون تأثيرها بطريقة المراقبة؛ أي: على نحو الحائل دون تحقيق الرغبات، لوجودها كسلطة مراقبة ذات سطوة ونفوذ، هذا إذا اختار الإنسان أن يقاومها في بعض ما تعطيه من أفكار وقيم، أو في بعض ما تفرضه من سلوكيات..

ويتميَّز هذا الموروث بسعته الشمولية التي تطال جميع المجالات الإنسانية، فيفرض العقيدة، والأخلاق، والسلوك، والطباع، ويعطي سِمَةً بارزة تميِّز الشخصيةَ العامةَ لهذا المجتمع عن ذاك، فيمثِّل بذلك الهوية العامّة له، وهكذا يختلف من مكان لآخر، وفق اختلاف الظروف الزمانية، والمكانية، والبيئية، والثقافية، والعرقية، لكلِّ مجتمع..

ولكي نتعرَّف على حقيقة هذا الموروث الفكري والعملي أكثر فأكثر، لا بدَّ من

تركيز الحديث حوله من الناحية التحليلية أولاً، ومن ناحية الشواهد النقلية ثانياً..

أمَّا من الناحية التحليلية: فمن عادة هذا الموروث أنَّه يأتي في صورة مزيج متجانس، يصعبُ عملياً تفكيك عناصره بعضها عن بعض، إلا أنَّه من دون هذا التفكيك، فإنَّنا لن نتمكَّنَ من فهم حقيقته بالشكل المطلوب، والذي يعدُّ مقدمةً مهمَّةً لتحديد نوع تأثيره أولاً، وبيان كيفية التعاطي معه ثانياً، والموروث الاجتماعي عادة ما يكون -في كثير من المجتمعات- مزيجاً من التالي:

١ـ الدين (بمفهومه العام، أي: الدين الحق، والدين الباطل).

٢ـ القراءات والأفهام المحمَّلة على الدين، (وهو ما يشمل المذاهب الباطلة).

٣ـ خرافات وأساطير، (أي: الأوهام المختلقة لسبب ولآخر).

٤ـ طبيعة البيئة الجغرافية، ومنها خواص الجو، والتربة (أي: الجنبة التكوينية).

٥ـ مقتضيات السلطات الاجتماعية التي تتوفر في الأب، والأم، والأخ الأكبر، والمعلِّم..

وبذلك كلِّه يتشكَّل ما يُعرف بـ(الأعراف، والتقاليد)، وتصاغ الثقافة العامّة للمجتمع، وهو ما أسميناه بالموروث الاجتماعي.

وأمَّا الشواهدُ النقلية: فإنَّ النصوص الدينية المقدَّسة قد أشارت إلى هذا الموروث بتعابيرها الخاصة بنحو متكثِّر، منها مثلاً:

قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۞ إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾(نوح: ٢٧)، تلاحظ من

خلال هذا النصّ ما ألفتَ إليه نوح عليه السلام من أنَّ طبيعةَ بيئة الكفر -بما تحمله من ثقافة، وفكر، ونمط في تركيب المعادلات الفكرية، والاستنتاجات التي يصلون إليها- موصلةٌ إلى تفريخ هذا الفكر عبر الأجيال، وهكذا هو الأمر معكوساً، إذ لا يقتصر على بيئة الكفر، فحتى بيئة الإيمان لها هذا الأثر الطبيعي.

عن الأمير عليه السلام: «**لا ينبغي للمرء المسلم أن يؤاخي الفاجر؛ فإنّه يزيّن له فعله، ويحبُّ أن يكون مثله، ولا يعينه على أمر دنياه، ولا أمر معاده، ومدخله إليه ومخرجه من عنده شَين عليه**»[1]، تلاحظ أنَّ هذا النصَّ يشير إلى حضور عامل الموروث الاجتماعي من خلال أمرين:

الأول: الجانب التلقيني، أي في تأثير ما يلقيه الفاجر كجزء من الموروث الاجتماعي لمصاحبه، فنهى الحديث عن مثل هذه المصاحبة من أجل ذلك.

الثاني: جانب المراقبة، أي أنَّ المجتمع الإيماني -فيما يتوفَّر عليه من موروث اجتماعي- يرفض هذه المصاحبة لما لها من تأثير على الفرد والمجتمع، وهذا يدلُّ على أنَّ بعض المواريث الاجتماعية لها فضل كبير -في دور المراقبة- في تقويم الأفكار والسلوكيات، وأنَّه ليس كلّ موروث اجتماعي ينبغي أن ينظر إليه بعين الشك، والتوقف كما قد يظنُّ البعض!

عن خيثمة قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام أودعه، فقال: «**يا خثيمة، أبلغ من ترى من موالينا السلام، وأوصهم بتقوى الله العظيم، وأن يعود غنيهم على فقيرهم، وقويهم على ضعيفهم..، وأن يشهد حيُّهم جنازة ميتهم، وأن يتلاقوا في بيوتهم؛ فإنَّ**

(١) الكافي، الكليني، ج٢، ص٦٤٠.

لقيا بعضهم بعضاً حياةٌ لأمرنا»[١]، في هذا الحديث الشريف حثٌّ على ترسيخ حالة التواصل الاجتماعي بإدامتها ومواصلتها، من أجل تسهيل عملية تناقل الموروث الفكري الصائب، الذي يشكِّلُ الجزء الأهم في صياغة الموروث الاجتماعي..

وعن أبي عبدالله عليه السلام: «**تزاوروا، فإنّ في زيارتكم إحياءً لقلوبكم، وذكراً لأحاديثنا، وأحاديثنا تعطِّف بعضكم على بعض**»[٢]، وفي هذا الحديث إشارة إلى أنَّ الموروث الاجتماعي الصائب المتناقل بين أفراد المجتمع بحالة التواصل، له أثر كبير في تصحيح النّمط السلوكي بينهم.

وهناك نصوص أخرى، استقصاؤها يطيل الكلام..

النتيجة: تبيَّن من خلال ما سبق التالي:

أولاً: أنَّ الموروث الاجتماعي يعدُّ من العوامل الأساسية في التأثير على الفرد والمجتمع.

ثانياً: أنَّ هذا الموروث يعدُّ حقيقةً مركبةً لا بسيطة، وهذا يفرض نمطاً خاصاً في كيفية علاجه.

ثالثاً: من الموروث الاجتماعي ما يكون سلبياً محضاً، ومنه ما يكون إيجابياً كذلك، ومنه ما يكون مزيجاً من الاثنين، وهي الحالة الغالبة.

---

(١) الكافي، الكليني، ج٢، ص١٧٦.

(٢) نفس المصدر، ج٢، ص١٨٦.

ثانياً: طبيعة التأثير

وبعد اتضاح هذه النتائج المهمَّة، نأتي لنسأل: ما هي طبيعة تأثير سلطة هذا الموروث، بغض النظر عن إيجابيته أو سلبيته؟ فالموروث من حيث هو موروث كيف يشقُّ طريقه للتأثير بهذا النحو الواضح في حياة الناس؟! ونسأل عن ذلك من أجل أن نتمكَّن من تحديد الكيفية الصحيحة في مواجهة آثاره السلبية..

الجواب: لكي نفهم كيف يؤثِّر هذا الموروث في الإنسان، لا بدَّ من فهم مصطلح (التقليد)؛ لأنَّ التقليد يُعدُّ بوابةَ تمكين الموروث الاجتماعي من تأثيره الفاعل في شخصية الإنسان، وهذا ما يفسِّر تناول الآيات المباركة مفهومَ التقليد بالذمِّ في الغالب، حين تتكلَّم عن التأثيرات السلبية للموروثات الاجتماعية على حياة المجتمعات السابقة والحالية، ولنتناول هذا المفهوم ذي العلاقة الوطيدة بموضوعنا من خلال التأمُّل في الآية المباركة: قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾.

الآية المباركة هي الآية السبعون بعد المائة من سورة البقرة، وفي مضمونها الكثير من الآيات التي تتكلَّم عن حجة التقليد التي يحتجُّ بها الكثير من المجتمعات لقبول ما ورثوه من عادات، وأفكار، وتقاليد، وتعدُّ هذه الآية من الآيات التي عضد بها علماء الكلام مسألة معروفة عندهم، وهي: عدم جواز التقليد في أمور الاعتقاد، وأصول الفكر، وعدم الجواز هنا عقلي، يحكم به العقل؛ ذلك لأنَّ المقلِّد لغيره في أصول الاعتقاد، لا يمتلك الحجَّة فيما يؤمن به، ولا يمتلك المؤمّن من الأضرار المحتملة التي قد تكون وراء ما يعتقد به..

هذا أمر واضح، ويكاد يكون من المسلمات، ولكن الغريب كما تفيد به الآية، أنَّ التقليد الذي نقول فيه عقلا إنَّه ليس بحجة، وليس مؤمِّناً، يعدُّ هو بنفسه حجة لدى هؤلاء في قبولهم لما تلقّوه عن آبائهم من دون جهد من تمحيص، أو تقييم، أو تقويم!! ولذلك شبَّه اللهُ تعالى هؤلاء المقلِّدين بالبهائم التي تسمع الصوت والنداء، وتحسّ به، ولكنَّها لا تدرك المقصود منه، فهؤلاء من شدّة انغماسهم في التقليد، أصيبوا بسكرة التقليد، فلا يكادون يفقهون حديثا! ﴿**وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**﴾(البقرة: ١٧١)!

والسؤال هنا: كيف يمكن للإنسان أن يعيش هذه الغفلة الكبيرة، بيّنة البطلان؟!

هنا: لا بدَّ من توضيح أمور:

أولاً: إنَّ التبعيّة للآباء أمرٌ طبيعي في العادة، وذلك بلحاظ كبر سنّهم، وسبق وجودهم، ولزوم تجليلهم، وحفظ عنوانهم، ففي العادة: الإنسان يميل إلى تقليد آبائه منذ الصغر، وهو يفتخر بانتمائه إليهم بكلِّ ما حملوه من ثقافة تميِّزهم عن الآخرين، وهذا هو نفس ما أسميناه بتأثير الموروث الاجتماعي في النقطة الأولى، وعلى هذا ندرك أنَّ لهذا الموروث تأثيراً قد يغلب حتى على الأمور واضحة البطلان، وهو ما يبين مدى خطورته.

ثانياً: لا بدَّ من التفريق بين أنواع التقليد، فهل كلُّ تقليد غير صحيح؟ الآية المباركة أرشدت إلى حال الإنسان في تلقّيه للمعارف التي يؤمن بها: ﴿**أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾، فإمَّا أن يكون الإنسان صاحبَ اجتهاد ونظر،

بحيث يتمكَّنُ من الإدلاء برأي، كونه من أهل التخصُّص الذين يتوفَّرون على أدوات الفهم ﴿يَعْقِلُونَ﴾، وإمَّا أن يكون مقلِّداً لغيره بحجة ﴿يَهْتَدُونَ﴾، وإمَّا أن يكون مقلِّداً لغيره بلا حجة (وهم من تكلَّمت عنهم الآية في تقليدهم لآبائهم بغير حجة، وأنَّبَتْهُم ووبختهم كما يفهم من مدلول الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ﴾)، ولا حالة ثالثة لذلك، والتقليد المنبوذ هو الثالث لا غير، وعلى هذا: قد تختلط الأمور لدى الكثيرين من ناحية التطبيق، فيحسب ما هو غير مقبول من التقليد مقبولاً، والعكس كذلك..

وكيفما كان، فإنَّ الإنسان يرى نفسَه أمام موروث يكتسب قيمته من خلال ممارسة من تفرض عليه الأعراف الاجتماعية والدينية احترامهم، كالأب، والصديق، والجد، والأم، وغيرهم، فيميلُ إلى التأثُّر به بالمجاورة كحالة طبيعية جداً، وقد يكونُ هذا الموروث محملا بالحق، أو بالباطل، أو منهما كما في الحالة الأغلب، فيشتبه الأمر على المتلقّي، عن الأمير عليه السلام: «**فلو أنَّ الباطل خَلَصَ من مزاج الحق، لم يخفَ على المرتادين، ولو أنَّ الحق خَلَصَ من لَبس الباطل، لانقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يؤخذ من هذا ضغث، ومن هذا ضغث، فيمزجان، فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه، وينجو الذين سبقت لهم منا لله الحسنى**»[1].

ثالثاً: إنَّ التقليد المذموم يكون مقبولاً تحت وطأة تأثير العواطف والانفعالات البعيدة عن العقل، وهذا ما يفسِّر الحالة السابقة حين نقوم بتحليلها، يقول العلامة الطباطبائي: "**الآراء والعقائد التي يتخذها الإنسان: إمَّا نظرية.. وإمَّا عملية.. وأمَّا الاعتقاد بما لا علم له بكونه حقاً في القسم الأول،**

(١) نهج البلاغة، ج١، ص٩٩-١٠٠.

والاعتقاد بما لا يعلم كونه خيراً أو شراً، فهو: (اعتقاد خرافي)، والإنسان لمَّا كانت آراؤه منتهية إلى اقتضاء الفطرة الباحثة عن علل الأشياء.. فإنّه لا تخضع نفسه إلى الرأي الخرافي المأخوذ على العمياء، وجهلاً، إلا أنَّ العواطف النفسانية، والإحساسات الباطنية التي يثيرها الخيال –وعمدتها الخوف والرجاء– ربَّما أوجبت له القول بالخرافة؛ من جهة أنَّ الخيال يصوِّرُ له صوراً يستصحب خوفاً أو رجاء، في حفظها.. ولا يدعها تغيب عن النفس الخائفة، أو الراجية، كما أنَّ الإنسان إذا أحلَّ وادياً – وهو وحده بلا أنيس، والليل داج مظلم، والبصر حاسر عن الإدراك – فلا مؤمّن يؤمنه بتميز المخاطر من غيرها بضياء ونحوه، فترى أنّ خياله يصور له كلّ شبح يتراءى له غولاً مهيباً يقصده بالإهلاك، أو روحاً من الأرواح.. وربما هيج الخيال حسن الدفاع من الإنسان أن يضع أعمالاً للدفع شرِّ هذا الموجود الموهوم، ويحثُّ غيره على العمل بها للأمن من شرِّه، فيذهب سنةً خرافية"[1]..

وإلى هنا نخلصُ إلى النتيجة التالية: كيفَ يؤثِّر الموروث الاجتماعي في حياة الإنسان؟

الجواب: استجابةً للعادة، أو: اشتباهاً حين يختلط عليه التقليد السائغ الذي لا مشكلة فيه كونه عن حجة، والتقليد غير السائغ، أو: استساغةً للتقليد المذموم تحت تأثير قوّة الوهم، والخيال..

ومن هنا نفهم مدى خطورة الموضوع، حتى أسمى بعض العلماء ما يمتلكه الموروث الاجتماعي من قوّة التأثير بـ(حكومة القيم الاجتماعية)، وأدرجها بعض

(١) تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي، ج١، ص٤٢١.

آخر تحت المشهورات بمسمَّى الآراء المحمودة، والتأديبات الصلاحية، التي يرى بعضُ الأساطين أنَّها قيمٌ لا واقع لها -على مستوى الذمِّ والمدح- وراء نفس التواضع المجتمعي عليها بين العقلاء!

ثالثاً: كيفية التعاطي

هنا، من الضروري أن نسأل: كيف ينبغي التعاطي مع هذا الموروث؟ هل نرفضه مطلقاً، فنتعامل معه بحساسية وحذر شديدين دائماً؟ أم نقبله مطلقاً، ونحافظ عليه ما دام يشكِّلُ هويتنا المجتمعية التي تميّزنا بها عن غيرنا من المجتمعات؟ أم نحاكمه وفق الحجج العقلية، فنقبل ما كان منه متوافقاً معها، ونرفض ما كان منه ليس كذلك؟

نقول في الجواب: تبيَّن ممَّا سبق أنَّ الموروث الاجتماعي لا يعطي تأثيراً متّسقاً بحيث يكون ذا أثر واحد للجميع، فهو من حيث نفسه: قد يكون إيجابياً، وقد يكون سلبياً، وقد يكون مزيجاً منهما، ولكلِّ واحدة من هذه الحالات حكمها الخاص بها، ومن الظلم الفاحش أن يحاكَم الموروث الاجتماعي مطلقاً بطريقة واحدة، وهذا ما يقع فيه الكثيرون، فالناس في ذلك تنقسم إلى ثلاث اتجاهات:

الأول: من يقبل بكامل الموروث، ويدافع عنه مطلقاً، وهذا من الممكن أن يكون مقبولاً فيما لو كان جميع الموروث إيجابياً، منطقياً، معقولاً، أمَّا إذا لم يكن كذلك مطلقاً، أو في بعض جوانبه، فالدفاع عنه فقط من أجل كونه موروثاً هو نفسه التقليد الأعمى الذي تكلَّمنا عنه سابقاً، وهذا مرفوض بحكم العقل والنقل على حد سواء..

الثاني: من يرفض كامل الموروث، ويحاول القفز عليه، والتأسيس إلى مفاهيم يستبدل بها مفاهيمه، وذلك بحجة التحرُّر، والعقلانية، وغير ذلك، وهذا من الممكن أن يكون مقبولاً إذا كان الموروث بكامله سلبياً، أمَّا إذا كان من النوع الأول، أو الثالث، فهذه الطريقة من التعامل مع الموروث لن تكون مقبولة بطبيعة الحال؛ لأنَّه سيكون من باب رفض الحقّ.

الثالث: من يتعامل مع الموروث بانتقائية، فيقبل ما كان حقاً، ويرفض ما كان باطلاً، وذلك بعد أن يقيم بآليات الفهم الصحيح هذا الموروث، ويجعله على ميزان المحاكمة العقلية والنقلية، وهذا هو المنهج الصحيح في التعاطي مع الموروثات الاجتماعية، فإنَّ منها ما يشكِّلُ تراثاً فكرياً وسلوكياً قيِّماً، ومنها ما يعود إلى الخرافة، ومنها ما يمثَّل دينا حقاً، ومنها ما يعبِّر عن قراءة دينية غير صائبة، ومنها ومنها.

وهذه هي الحالة الأغلب في الموروثات، فهل من الممكن أن ترفض مطلقاً، أو تقبل مطلقاً والحال هذه؟!

أبداً، ما كان منها حقاً قُبِل، وما كان منها باطلاً رُفض، ومن هنا نفهم فلسفة الحكم الشرعي القائل بحرمة التعرُّب بعد الهجرة، فإنَّ هذا الحكم يؤسِّس إلى المحافظة على الموروث الاجتماعي الناشئ في بيئة الإيمان، المتأثِّر من أصولها الفكرية الأصيلة، فمثل هذا الموروث الصائب، ينبغي المحافظة عليه، ولو بتحريم ومنع السفر إلى منطقة أخرى ذات موروث آخر، تتضارب جذوره الفكرية مع الموروث الصائب، ومن هنا نفهم أيضاً حرمة قراءة كتب الضلال إلا في حالات استثنائية مذكورة في الفقه.

تنبيه: وتجدر الإشارة هنا إلى أنَّ هناك ما يشكِّل جزءاً من الموروثات الاجتماعية بحيث لا يمكن أن يُصنَّف في نفسه تحت الواجب أو الحرام، وهو ما يمكن أن نعبّر عنه بالعادات التي لا تكون عن أصول دينية أو عقلائية بحتة، بل هي تعدُّ تواضعاً ثقافياً بين أبناء المجتمع الواحد الخاص، فهذه يترك الأمر فيها إلى كلِّ مجتمع وخصوصياته، ففي خصوص هذا النوع من الموروثات، نجد أنَّ الإسلام يقرُّها في الجملة إذا ما أدت مخالفتها إلى ضرب عنوان هام، كضرورة أن يكون الإنسان عزيزاً مثلاً، وفي غير ذلك، فلا نفي ولا إثبات تجاهها، بل ربما أعطى الإسلام إلى الإنسان الحقَّ في التحرّر من هذا النوع من القيود الاجتماعية في ساحته الخاصة على الأقل..

يقول صاحب الأمثل: "**يضطر الإنسان في البيئة الاجتماعية إلى تحمّل قيود كثيرة من حيث اللباس، والحركة، ومواصلة الإنسان حياته على هذا النسق وحده.. متعب، ويبعث على الضجر؛ إذ أنَّه يرغب في أن يكون حرّاً خلال فترة من الليل والنهار ليستريح بعيداً عن هذه القيود، مع أسرته، وبين أولاده، لهذا يلجأ إلى منزله الخاص به، وينعزل بذلك عن المجتمع بشكل مؤقَّت، ليتخلَّص من قيوده، فيجب أن يكون محيط المنزل آمنا إلى حدٍّ كاف، وأمَّا إذا أراد كلُّ عابر الدخول إلى منازل الآخرين، فلا تبقى حرمة لمنازل الناس، ويسلب منها أمنها، وحرّيتها، وبهذا تتحوَّل إلى بيئة عامة، كالسوق والشارع، ولهذا السبب كانت بين الناس –على مر العصور– أعراف خاصة في هذا المجال، حتى أنَّ جميع قوانين العالم تمنع الدخول إلى منازل الآخرين دون استئذان، وتعاقب عليه، وحتى في حالات الضرورة القصوى..، ونصَّت الأحكام الإسلامية على تعاليم**

وآداب خاصة في هذا المجال، لا يشاهد نظيرها إلا نادراً، نقرأ في حديث أنَّ الصحابي الجليل أبا سعيد الخدري استأذن على الرسول ﷺ وهو مستقبل الباب، فقال ﷺ: «**لا تستأذن وأنت مستقبل الباب**»[١]، وجاء في حديث آخر أنَّ النبي ﷺ كان «**إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن، أو الأيسر**»[٢]"[٣]..

ويتبيَّن من خلال هذا الأدب الإسلامي الرفيع أنَّ هناك مساحة للخصوصية الفرديّة التي يتحرَّر بها الإنسان عن القيود الاجتماعية التي لا تشكِّلُ ديناً، فلا يلزم بها في نطاقه الخاص على الأقل..

ومن هنا نخلص في النتيجة العامة إلى أنَّ الموروث الاجتماعي قد يتشكَّل في العادة من ثلاثة أجزاء:

الأول: ما نسمِّيه بالموروث الاجتماعي الديني، والعقلائي.

والثاني: الموروث الاجتماعي الخرافي، الذي لا أصل له غير الوهم.

والثالث: الموروث الاجتماعي التواضعي، العادتي..

وحين نأتي لتقييم الحاصل في هذا الجانب، سوف نجد أنَّ هناك من يرفع من قيمة الموروث الاجتماعي التواضعي مثلاً، ليعطيه قيمة الموروث الاجتماعي الديني، بل هناك من يحاول أن يعطي الموروث الاجتماعي الخرافي قيمة الديني

---

(١) مجمع الزوائد، الهيثمي، ج٨، ص٤٣.

(٢) سنن أبي داود، ج٢، ص٥١٦.

(٣) تفسير الأمثل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، ج١١، ص٦٩-٧٠.

منه! وكثيراً ما يقع الخلط في طريقة التعامل مع كلٍّ واحد من هذه العناوين الثلاث، وهو ما يتسبَّب في صياغة نحوٍ خاص من الوعي العام لدى شخصية المجتمع، وبقدر ما يتمكَّن أفراد المجتمع من التمييز بين أنواع الموروثات، يتمكّنون من إيجاد مجتمعات قويّة، لا يصمد أمامها الطغاة والمتنفِّذون والمستغلُّون، والعكس بالعكس..

ومن هنا يمكن القول: إنَّ من يفهم هذه المعادلة الدقيقة في طبيعة التعاطي مع الموروثات الاجتماعية، فإنَّه سيمتلك مفتاح السعادة على المستوى الفردي والاجتماعي، خصوصاً أنَّنا نجد في بعض النّصوص أنَّ الجرأة على التمرُّد على خصوص الموروثات السلبية يعدُّ هو الطريق الأنسب للتأثير على السلطات الرسمية التي تتحكَّم في الواقع الاجتماعي بما تمتلكه من نفوذ، فبقدر ما يمتلك المجتمع من وعي اجتماعي، بقدر ما يمارسه من تصحيح لموروثه الاجتماعي، فيجعله صائباً، قوياً، عقلانياً، فكرياً، دينياً، بقدر ما تحسب السلطة العامة له ألف حساب، عن النبي صلى الله عليه وآله: «**لتأمرن بالمعروف، وتنهون عن المنكر، أو ليسلّطن الله عليكم سلطاناً ظالماً، لا يجلّ كبيركم، ولا يرحم صغيركم، وتدعو خياركم فلا يستجاب لهم، وتستنصرون فلا تنصرون، وتستغيثون فلا تغاثون، وتستغفرون فلا تغفرون**»[1].

وأوَّل خطوة ينبغي أن يخطوها الإنسان والمجتمع في هذا الصدد هي خطوة تمييز حقيقة الموروث الذي تلقّاه، والذي يعيش تحت تأثيره، وهذا هو الأمر الذي

(١) تفسير مجمع البيان، الطبرسي، ج٢، ص٣٥٩.

تمكَّن منه الحرُّ بن يزيد الرياحي بجدارة، فاستنقذه من الظلمات إلى النور في لحظات حرجة جداً.

الحر بن يزيد الرياحي، كان يعيش في بيئة، موروثها الاجتماعي فتح له طريق المجد الدنيوي، بما كان يتحلَّى بهِ من شجاعة، كان الحرُّ وجيهاً في قومه؛ لأنَّ ما فرضَه موروثهم الاجتماعي عليهم يؤسِّسُ إلى تمجيد الحر ولو خرج على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله! ولكنّه في لحظة استيقاظ، انتفض على ذلك الموروث بكلِّ شجاعة، حين خطى خطوته الأولى في تمييز قيمة هذا الموروث الفارغة، وإنّ موقفه مع الحسين حين تأدَّب معه بعدم ذكر أمِّه الزهراء بسوء، يكشف عن أنَّه كان في صراع حقيقي مع موروثه الاجتماعي، أو أنّ موروثه الاجتماعي كان مزيجاً من الصحيح والفاسد، فتارة تستجيب نفسه لهذا، وأخرى لذاك، إلى أن غلب الجانب النّفسي في تغلّبه على هذا الموروث الفاسد، ففاز بالسعادة الأبديّة الكبرى، بعد أن استنقذه الله بالحسين عليه السلام.

فنال بذلك مرتبة عظيمة، وما قبل غير الحسين حتى بعد موته، كما يذكر عن الشاه الصفوي إسماعيل الأول أنّه نبش قبر الحر، فظهر له رجل كهيئته لما قتل، على رأسه عصابة منسوبة إلى الحسين عليه السلام، فلما حلّها انبعث الدم ولم ينقطع إلا بشدها. وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.

أدب الأنبياء من القرآن الكريم

الشيخ مجيد عبد الرسول السهلاوي

الملخّص:

ابتدأ الكاتب بحثه في تقرير مقدّمات أربع ليخلص منها بيان الفارق بين الأدب والخلق، وأنّ للأدب أقساماً غرض البحث هو قسمها الثاني وهو الآداب الفعلية للأنبياء، وأنّ الأخلاق هي المنشأ للآداب... ثم شرع في ما هو غرض البحث لأجله وهو البحث في سيرة الأنبياء واقفاً على بعض تفاصيلها –السلوكيّات الشخصية لهم– ليستلهم منها دروساً وعبر متعدّدة، فسلّط الضوء في فصول ثلاثة على:

١ـ أدب الأنبياء مع الله كالخشوع والخضوع، والحزن واللجوء إليه وغيرها.

٢ـ أدب الأنبياء مع أنفسهم.

٣ـ أدب الأنبياء في الدعوة إلى الله.

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على المبعوث رحمة للعالمين أبي القاسم محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، واللعن الدائم المؤبّد على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

وبعد...فلقد صرَّح القرآنُ الكريم في مواطن عديدة أنَّ الغرض من خلق الإنسان هو العبودية لله ﷻ في أرضه فتتجلّى فيه آيات الله وأسمائه وصفاته، من هنا كان الله ﷻ منبع الخير والرحمة واللطف، فأرسل الأنبياء والرسل، وأنزل الصحف والكتب؛ ليقوم النّاس بالحقّ إلى غايتهم المقصودة، وكمالهم المنشود، فقام أنبياءُ الله العِظام بدورٍ محوريّ في حركة الشعوب، وكان حضورهم الفاعل وسط مجتمعاتهم بمثابة الحاجز الذي يمنع غلواء النّفوس الجهولة الظلومة من البطش والعدوان، ومع ذلك ﴿**وما أَكْثَرُ النّاس ولَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ**﴾(يوسف: ١٠٣).

ولا يزال شذى عطر سيرتهم المباركة يغمر أرجاء المعمورة؛ فبعد أكثر من ألف وأربعمائة سنة من رحيل سيِّد أنبياء الله وخاتمهم لا يزال النّور الذي أُنْزِل معهم مضيئاً طارداً للظلمة، ولم تستطع كلُّ الأطروحات الفكريّة البشريّة التي تنطلق من الأرض أنْ تحجب نور السماء؛ ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ ويَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ ولَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ**﴾(التوبة: ٣٢).

إنّ هذه السيرة التي هي النموذج الأبرز لحالة العبوديّة الخالصة لله ﷻ والتي اقترنت فيها الغاية بالعمل هي ذاتها التي سلكها الأنبياء، وهي نفسها الصراط المستقيم الذي يدعو به المسلم في صلاته سبعة عشر مرّة في اليوم على أقلّ التقادير،

وهو طريق واحد، طريق آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وسائر أنبياء الله العظام وأوصيائهم المنتجبين.

لذلك لا عجب من السيل الهادر من الآيات القرآنية التي تحدّثت عن الأنبياء وقصصهم التي إنْ تمعّنا فيها سنجد أنَّها لم تترك زاوية من حياتهم إلا وتناولتها وبيّنتها للناس، وكم فيها من تفاصيل قد يظنُّها المتلقّي غير ذات أهميّة، أو يظنّها لمزيد تشويق في القصة، بينما الحقُّ والصواب هو أنَّ كلَّ تفصيل يذكره الله عَزَّ وَجَلَّ من حياة أنبيائه لهو على درجة عالية من الأهمية، كيف لا وهداهم وطريقتهم هي الطريقة المثلى والنّموذج الأبرز التي قدّمها الله لنا؟! ونحن مكلَّفون بالسير على نهجها وهديها، كيف لا وهذه الطريقة والهداية هي التي أَمَر اللهُ رسولَهُ الخاتم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بالسير على هديها.

غرض هذا البحث:

إنّ المكانة الراقية التي وضع الله فيها أنبيائه، وحجم الثناء والتجليل الذي أسبغه عليهم لَيدفعنا للاهتمام بكلّ تفاصيل سيرتهم النّورانيّة؛ لما فيها من الخير الوفير الذي يأمله كلُّ من يرجو لقاء الله عَزَّ وَجَلَّ بصفحة بيضاء ناصعة، وهذا ما نلاحظه جلياً من خلال قوله تعالى:

﴿الَّذينَ آمَنُوا ولَمْ يَلْبِسُوا إيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وهُمْ مُهْتَدُونَ ۞ وَتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْناها إِبْراهيمَ عَلى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكيمٌ عَليمٌ ۞ وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ ويَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنا ونُوحاً هَدَيْنا مِنْ قَبْلُ ومِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وسُلَيْمانَ وأَيُّوبَ ويُوسُفَ ومُوسى وهارُونَ وكَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنينَ ۞ وَزَكَرِيَّا ويَحْيى وعيسى وإِلْياسَ كُلٌّ

مِنَ الصَّالِحِينَ ۞ وَإِسْماعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنا عَلَى الْعالَمِينَ ۞ وَمِنْ آبائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوانِهِمْ وَاجْتَبَيْناهُمْ وَهَدَيْناهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ۞ ذلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ ما كانُوا يَعْمَلُونَ ۞ أُولئِكَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً لَيْسُوا بِها بِكافِرِينَ ۞ أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرى لِلْعالَمِينَ﴾(الأنعام: ٨٢-٩٠) نعم.. ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُداهُمُ اقْتَدِهْ﴾.

وسنسلّط الضوء على بعض التفاصيل من سيرتهم العطرة، والتي قد يغفل عنها البعض؛ ذلك أنّ الكتابات القرآنية على كثرتها وخصوصاً التي تناولت قصص الأنبياء لم تستكمِل أجزاءً مهمة من الصورة الكليّة لسيرة الأنبياء، واقتصرت على بيان تفاصيل القصة، وتحليل المواقف فيها، ولم تسلّط الضوء على جهة مهمةٍ لها أعظمُ الأثرِ في توجيه الإنسان بما يكفل التكامل التدريجي الصحيح له، وهي السلوكيات الشخصية للأنبياء، والطريقة التي كانوا يعيشون بها.

وتسليط الضوء على كلّ التفاصيل مما لا تستوعبه هذه الوريقات القليلة، كما أنّ ذلك يحتاج إلى استعدادات خاصة في الكاتب وهي حتماً مفقودة، لذلك سيقتصر البحث على جهات ثلاث من سيرتهم العطرة الزاخرة بالعبر والدروس.

والجهات الثلاث هي:

١ـ أدب الأنبياء مع الله ﷻ.

٢ـ أدب الأنبياء مع أنفسهم.

٣ـ أدب الأنبياء في الدعوة إلى الله ﷻ.

مقدمات البحث

قبل الدخول في هذه الجهات الثلاث أرى من اللازم التذكير بمقدمات أربع وهي:

المقدمة الأولى: في تعريف الأدب وأهميته

الأدبُ لغةً: هو الظرافة وحسن التناول[١]، وأدَّبهُ بمعنى غيّرهُ[٢]، فعمليّة التأدّب هي عملية تغيّر على مستوى السلوك الخارجي؛ فيكون هذا السلوك مطابقاً لما ينبغي ومفارقاً لما لا ينبغي، وأدّبه فتأدّب يعني علَّمه فتعلّم، ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**أدّبني ربّي فأحسن تأديبي**»[٣]، والأدب هو كلّ رياضةٍ محمودةٍ يخرج بها الإنسان في فضيلة من الفضائل[٤]، والأدب هو نفسه حسن الأخلاق كما يذكر الطريحي في مجمع البحرين[٥].

وأمّا تعريفُ الأدب في اصطلاح أهل الأخلاق فهو ليس ضرباً من ضروب الأخلاق بل هو: الهيئةُ الحسنةُ المشروعة التي ينبغي أنْ يقع عليها القول أو الفعل المشروع[٦]، كما يقول السيد العلامة صاحب الميزان رحمه الله.

والهيئة الحسنة هي الحالة والكيفيّة الجميلة والسارّة التي تستقي مشروعيّتها من الدين أو العقل أو العقلاء بما هم عقلاء، أو من هذه المناشئ الثلاثة.

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده، ج٩، ص٣٨٥.
(٢) المغرب، ج١، ص٣٢.
(٣) بحار الأنوار، المجلسي، ج١٦، ص٢١٠.
(٤) المصباح المنير، الفيومي، ص٩.
(٥) مجمع البحرين، الطريحي، ج٢، ص٥.
(٦) تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي، ج٦، ص٢٥٦.

فالكذب أو السرقة أو الخيانة بما هي سلوكيّات قبيحة وممنوعة لا يمكن أنْ تُؤدّى بأدب، وهكذا الأمر في كلِّ ما قبَّحه الدّين أيَّ دين كان، أو ما قبّحه العقل المستقل أو العقلاء بما هم عقلاء.

ثمَّ إنَّ مورد الآداب هي الأقوال والأفعال الاختياريّة التي لها مراتب وأفراد عديدة؛ فيكون هذا الفرد متحلٍّ بصفة الحُسن والظرافة، بينما الفرد الآخر فاقد لهذه الصفة، كما أنّ للفرد الواحد مراتب عديدة أيضاً.

وقد اعتنى علماء الأخلاق وعلماء الاجتماع بمجموعة من الموضوعات التي كانت محوراً لكثيرٍ من الآداب، وعلى ضوئها قرروا ما ينبغي فعله، وما لا ينبغي، وما هو أدب حسنٌ مطلوب، وما هو مجافٍ للأدب.

المقدمة الثانية: في أقسام الأدب

ينقسم الأدب بلحاظ متعلّقاته إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الآداب الباطنية

وهي الصور الباطنية التي تقع عليها النّفس في حال صيرورة الإنسان بين يدي الله ﷻ، كما هو في حال الصلاة والذّكر؛ فإنَّ الصلاة معراج يصعد بها المؤمن إلى الله، ولا يكون هذا الصعود إلا بحالات تترقَّى بها النّفس من مرتبة إلى مرتبة، ويطلق على هذه الأحوال بالآداب المعنوية التي تكفّل علم العرفان بدراستها وبيان كيفياتها.

وسيأتي أنّ متعلّق الآداب هل هي خصوص الأفعال الظاهرية أم يشمل الحالات الباطنية للنّفس.

القسم الثاني: الآداب الفعلية

هي الصورة الظاهرية التي يقع فيها الفعل وهو ما يطلق عليه الآداب السلوكيّة أو الصلاحيّة، وهي ما وقعت محلاً للبحث عند علماء الأخلاق وعلماء الاجتماع حيث دُوِّنت مقرّرات عديدة في آداب تناول الطعام، وما ينبغي أنْ يتحلَّى به التلميذ مع أستاذه من آداب، وآداب المجلس، والمسجد، وغيرها.

القسم الثالث: الآداب اللفظية

وهي التي تتَّسِم بالحسن والظرافة سواء في وجودها الكتبي أم القولي؛ من قبيل الشعر، والنثر، والقصة، وغيرها ممَّا اهتم به علماء الفصاحة والبلاغة.

والقسم الثاني من الآداب هو محور بحثنا، وإنْ كان التداخل والترابط بين الأقسام الثلاثة غير خاف.

المقدمة الثالثة: في الفرق بين الآداب والأخلاق

والنّقطة الجديرة بالبحث هنا تتركَّزُ في ماهيّة الفرق بين الآداب والأخلاق، فهل هما أمرٌ واحدٌ أمْ بينهما تباينٌ تامٌ أم عمومٌ وخصوصٌ؟

وللجواب نقول: إنّنا تارةً نفهم الآداب على أنَّها حصّة خاصة من الأخلاق كما ذكره الطريحي حيث قال: «**إنَّ الأدب هو الأخلاق الحسنة**»[1]، فنعرفُ أنَّ الأدب حصَّة خاصة من الأخلاق، وهي التي تمتاز بعنصر الحُسن والمقبوليّة؛ إذ أنّ الأخلاق كما تُستخدم للسجايا الحسنة تُستخدم أيضاً للقبيح من الهيئات النّفسية؛ فالبخل خُلُق، والجُبنُ خُلُق، والشَّرَهُ والحسدُ والغِلُّ كلُّها من

(١) مجمع البحرين، الطريحي، ج٢، ص٥.

الأخلاق المذمومة، فلا تنحصر الأخلاق بالحسن من الصفات.

وتارة نجد أنَّ بينهما تغاير حقيقي؛ فقد ذكر الغزالي في كتابه المشهور إحياء علوم الدين تعريفاً لطيفاً للأخلاق حيث قال: "**الخَلْق والخُلُق عبارتان مستعملتان معاً، يقال: فلان حسن الخَلْق والخُلُق، أيْ حسن الباطن والظاهر، فيراد بالخَلْق الصورة الظاهرة، ويراد بالخُلُق الصورة الباطنة، وذلك لأنَّ الإنسان مركَّب من جسد مدرَك بالبصر، ومن روح ونفس مدَركة بالبصيرة. ولكلّ واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة، فالنّفس المدرَكة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرَك بالبصر، ولذلك عظّم الله أمره بإضافته إليه إذ قال تعالى: ﴿..إِنِّي خالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ۝فَإِذا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ﴾**(ص: ٧١،٧٢)"[١].

ثم شرح الغزالي التعريف، وقرَّر أنَّ الأخلاق هي الملكات الراسخة في النفس، وليس هي نفس فعل الكرم ونفس فعل الشجاعة مثلا.

وقال العلامة الطباطبائي رحمه الله: "**علم الأخلاق هو الفنّ الباحث عن الملكات الإنسانية المتعلّقة بقواه النباتيّة والحيوانيّة والإنسانيّة**"[٢].

والملَكات إنّما تكون في النّفس، وما الأفعال الخارجية إلا ترشّحات طبيعيّة لهذه الملكات يؤدّيها الإنسان بسهولة ويسر، وإنْ كانت أخلاقاً لغةً وعرفاً إلا أنّها ليست أخلاقاً بالاصطلاح.

---

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي، ج٨، ص٩٦.

(٢) تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي، ج١، ص٣٧٠.

فتلخّص من ذلك أنّ الأخلاق: عندهم هي ملكات نفسيّة، والآداب: هي هيئات خارجية حسنة من قبيل آداب المائدة، أو ما يتعلّق بآداب الباطن كما هو في حال المصلّي الخاشع، وكلُّ هذه الصفات تكون مؤقتةً عارضةً بينما الأخلاق تستقر في النّفس وتستحكم فيها.

وأمّا عند علماء اللغة فالآداب: هي حصّة خاصة من الأخلاق وهي المتصّفة بالحسن فتكون متعلّقاتهم واحدة من قبيل السخاء فهو أدب وأخلاق في نفس الوقت.

المقدمة الرابعة: الأخلاق هي منشأُ الآداب

وبما أنَّ الأخلاق ملكات تستولي على النّفس ناسَب أنْ تكون هي المنشأ الذي تصدر عنه الآداب، يقول العلامة الطباطبائي في تفسيره: "**وليست الآداب هي الأخلاق؛ لما أن الأخلاق هي الملكات الراسخة الروحيّة التي تتلبّس بها النّفوس، ولكنّ الآداب هيئات حسنة مختلفة تتلبّس بها الأعمال الصادرة عن الإنسان عن صفات مختلفة نفسية، وبين الأمرين بون بعيد**"[1].

فتحصَّلَ أنَّ الملكات النّفسية الحسنة هي التي تولّد الآداب الحسنة، فالكرم لا يقتضي أكثر من البذل والإعطاء، وأمّا عدم المنّ والشعور بالتقصير تجاه الفقير والمحتاج فهو أدب.

(١) تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي، ج٦، ص٢٥٧.

المتلقّي بين الشك واليقين:

وهنا نشير على نحو الاستطراد إلى نقطة وهي أنّ المعلّم المربّي عليه أنْ يكون عاملاً بعلمه؛ لأنّه لا تأثير في العلم إذا لم يقترن بالعمل؛ لأنَّه إذا تخالفت هيئة الفعل وهيئة القول دلَّ ذلك على ثبوت هيئة في النّفس مفادها أنَّ المراد من القول مكيدة، ونوع حيلة بها يعمد القائل إلى التغرير بالنّاس واصطيادهم، أو لنقل إنَّ للقول المخالِف للفعل هيئة في النّفس تكشف عن تكذيب للقول، وبالتالي فإنّ المخاطب يجد أمامه دلالتين متخالفتين، فيعلمُ أنَّ المراد من دلالة اللفظ هي الخداع والدجل.

ولهذا السبب لم يقتصر الأنبياء عليهم السلام وهم أرباب الشرائع والأديان على إرجاع النّاس إلى عقلهم وفطرتهم للحكم على القضايا، بل شفّع القول بالعمل فلم يتخلّف القول عن العمل في حالة من الحالات، بل أكثر من ذلك فقد قامت سيرتهم العطرة على العمل بها قبل بيانها للنّاس، فمثلاً رسولنا الخاتم صلى الله عليه وآله هو الصادق الأمين في قومه وهو بعدُ لم يبعث.

فكان أنبياء الله العظام هم أكثر النّاس إيماناً وتصديقاً وامتثالاً لما يقولون ويأمرون به ﴿**وجَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وأَوْحَيْنا إليهمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وإِقامَ الصَّلاةِ وإيتاءَ الزَّكاةِ وكانُوا لَنا عابِدينَ**﴾(الأنبياء:٧٣)، فيدلّ على أنّ سلوك الأنبياء كان تجسيداً للتوحيد فالله قد هداهم للتوحيد وهو نفس هذه السلوكيات والآداب.

الفصل الأوّل: أدب الأنبياء مع الله ﷻ

الأدب الأول: الخشوع والخضوع لله

إنّ القرآن الكريم بعد أنْ ذكر أنّ الله اصطفى من خلقه أنبياء ورسل -﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفى آدَمَ ونُوحاً وآلَ إِبْراهيمَ وآلَ عِمْرانَ عَلَى الْعالَمينَ﴾(آل عمران: ٣٣)-جاء على ذكر صفتين جميلتين، وأدبين استثنائيين، وكأنَّ هاتين الصفتين هما علَّة الاصطفاء قال تعالى: ﴿..إذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيًّا﴾(مريم: ٥٨)، فيا له من تعبير جميل، يسلِّط النّور على صفتين مهمّتين، وهما استيلاء الشعور بعظمة الله على كلِّ كيانهم، ممَّا يفقدهم التوازن فيخرّون إلى الأرض سجّداً، وهو ما يطلق عليه الخشوع، والصفة الثانية هي حالة البكاء من خشية الله ﷻ جرّاء الحبّ والشوق إليه، ولا شكَّ في أنَّ هاذين الفعلين الطبعيين يكشفان عن استيلاء صفة العبوديّة لله على بواطنهم.

والخشوع صفة تحلَّى بها الأنبياءُ، وهي حالةٌ من الفناء الناشئ من الحبّ والمعرفة الكبيرين لله ﷻ، فبمجرَّد ذكر آيات الله عليهم يخرّون سجّداً لله، قال تعالى: ﴿إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيًّا﴾.

إنّ سقوط النّبي على الأرض ساجداً باكياً حالة طبيعية تلقائية، وهو بمقتضى خشوع وخضوع كلِّ ذرَّةٍ من كيان هذا النّبي الله ﷻ وكما في مورد آخر: ﴿إِنَّهُمْ كانُوا يُسارِعُونَ فِي الْخَيْراتِ ويَدْعُونَنا رَغَباً ورَهَباً وكانُوا لَنا خاشِعينَ﴾(الأنبياء:٩٠).

وكما أسلفنا إنّ للآداب مراتب مشكّكة فتكون حالة الخشوع بين يدي الله ﷻ أرقى من حالة الإخبات﴿...وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتينَ ۞ الَّذينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ

والصَّابِرِينَ عَلى ما أَصابَهُمْ والْمُقيمِي الصَّلاةِ ومِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ﴾(الحج: ٣٥، ٣٤) مع أنّ نفس الإخبات أدب جميل ممدوح صاحبه فقد فسَّر الطريحي معناه بأنّه الطمأنينة وسكون القلب والخشوع والتواضع بين يدي الله ﷻ[١]، ﴿إِنَّ الَّذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وأَخْبَتُوا إِلى رَبِّهِمْ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فيها خالِدُونَ﴾(هود: ٢٣)، كما أنّ الإخبات أرقى مرتبة من حالة لين القلوب واقشعرار الجلَد كما يقول تعالى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَديثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلينُ جُلُودُهُمْ وقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ ذلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدي بِهِ مَنْ يَشاءُ ومَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾(الزمر:٢٣).

ولا شكَّ في أنَّ العلم بالله والإيمان به هما الموجبان لهذه الصفة؛ إذ إنَّ عدم التوازن الظاهري حين سماع ذكر الله يؤشِّر إلى مستوى غير عادي من المعرفة، وقد يُفسَّر الخشوع بالانقياد التّام لأوامر الله ونواهيه، والعكوف على العمل بأحكامه من غير توانٍ ولا فتور[٢].

وهكذا كانت سيرة أئمتنا عليهم السلام الذين كانت وجوههم تصفرُّ، وأطرافهم ترتعد حين وقوفهم للصلاة بين يدي الله ﷻ، فإنَّ حالة الخشوع لله ﷻ، والرهبة لجلاله وجماله من الآداب العظيمة التي تسلك بصاحبها إلى أعلى مراتب القرب من الله.

روى السلمي عن أحمد بن أبي الحواري قال: بينما أنا في بعض طرقات البصرة إذ سمعت صعقة، فأقبلت نحوها، فرأيتُ رجلاً قد خرَّ مغشياً عليه فقلت: ما

(١) مجمع البحرين، الطريحي، ج٢، ص١٩٩.
(٢) تفسير روح المعاني، الآلوسي، ج٢٧، ص١٨٠.

هذا؟ فقالوا:كان رجلاً حاضر القلب فسمع آية من كتاب اللهّ فخر مغشياً عليه فقلت: ما هي؟ فقيل: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾ فأفاق الرجل عند سماع كلامنا فأنشأ يقول:

أمـــا آن للهجـــران أن يتـــصرّما ... وللغـصن غـصن البـان أن يتبـسّما
وللعاشـــق الـــصبِّ[1] الـــذي ذاب ... ألم يـــأن أن يبكـــي عليـــه ويرحمـــا
كتبـت بـماء الـشوق بـين جـوانحي ... كتابـاً حكـى نقـش الوشـى المنمـنما

ثم قال: إشكال إشكال إشكال، فخرَّ مغشياً عليه، فحرّكناه فإذا هو ميت[3].

وهذه القصة إنْ لم تكن من نسج بعض المتصوّفين أصحاب الطرائق وكانت قصة واقعية فإنّها تدلُّ على نمو صاحبها في بعض الجوانب الروحية ونقصه في جوانب روحية أخرى ممَّا سبب له الهلاك؛ بمعنى أنَّ استعداداته الروحية لا تؤهِّلُه لهذا المستوى من الخشوع والحضور بين يدي الله عز وجل، بينما نجد أنَّ أنبياء الله وهم الذين وصلوا لتلك المقامات السامية من الخشوع والعلم بالله وعشقه والفناء فيه ومع ذلك هم يعيشون حياة متوازنة.

وفي مقابل هذا الأدب الجمّ هناك من يجعل من الله أهون النّاظرين إليه فهو يخجل أنْ يراه طفل صغير على معصية، ولا يخجل من الله العظيم أنْ يراه، وهذا ما يعني أنَّ صفة الخشوع والعبوديّة تعادل صفراً في قلب هذا العبد وعلى تباينٍ تامّ مع أنبياء الله العظام.

---

(١) الصبّ: من صبا يصبو وهو الوجد الشديد والمحبّة. كتاب العين، الفراهيدي، ج٧، ص٩٠.
(٢) الوشيّ والمنمنم يعني المزخرف والمنقش بألوان مختلفة، الإفصاح في فقه اللغة.
(٣) تفسير روح المعاني، الآلوسي، ج١٤، ص١٨٠.

الأدب الثاني: الحزن

لقد كشفت الآية السالفة -وهي قوله عز وجل: ﴿إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ الرَّحْمنِ خَرُّوا سُجَّداً وبُكِيًّا﴾- عن أدبٍ استثنائي فريد اتصفَّ به الأنبياء عليهم السلام، ويمثّل المنشأ لحالة رقّة القلب، وكثرة النّوح والبكاء التي عُرف بها الأنبياء، ألا وهو الحزن، الذي هو حالة من الغمِّ والانكسار تعتري القلب فتسبب له التوجّع والألم.

ولنا أنْ نتساءل عن السبب الحقيقي لهذا الحزن العميق الذي صبغ سيرتهم العطرة حتى سُمي نبي الله نوح، وهو ذلك النبي العظيم وأحد أولي العزم من الأنبياء بهذا الاسم لكثرة نوحه وبكاءه.

لا شكَّ في أنَّ أسباب الحزن عديدة فقد يكون الدافع إليه ناشئاً من فوات محبوب بسبب تقصير في الطلب، أو لسبب قاهر يعجز الإنسان عن ردّه بحيث يكون هذا المحبوب لا يمكن تعويضه كما في موت عزيزٍ مثلاً، أو ذهاب فرصة بها تسعد النّفس، فهنا يصاب الإنسان بالحسرة والنّدم مما يخلق عنده حالة من الحزن.

وهذا السبب التكويني للحزن والبكاء مما يصيب الأنبياء أيضاً ولا حزازة ولا محذور في ذلك؛ فهو لعامّة البشر، وهو نظير ما حصل لآدم عليه السلام فقد جاء في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**الْبَكَّاؤُونَ خَمْسَةٌ: .. فأما آدَمُ عليه السلام فإنّه بكى، فَبَكَى عَلَى الجنَّةِ حَتَّى صَارَ فِي خَدَّيْهِ أَمْثَالُ الْأَوْدِيَةِ**»[1].

ولا شكَّ في أنّ الحزن لفوات هذه الفرص من الآداب الجميلة، وهي من الشوق للخير، والتأسّف على ما بدر من تقصير وهو مما يدفع الإنسان للكمال،

(١) الخصال، الصدوق، ص٢٧٢.

وخير مثال لما نحن فيه هو قصة نبي الله يعقوب فقد ورد أنّ سبب ما لاقاه من بلاء ومحن هو نتيجة مخالفته للأولى حيث جاء في رواية عن الثمالي، قال: صلّيت مع علي بن الحسين عليه السلام الفجر بالمدينة يوم جمعة، فلما فرغ من صلاته وسبحته، نهض إلى منزله وأنا معه، فدعا مولاة له تسمى سكينة، فقال لها: «**لا يعبر على بابي سائل إلا أطعمتموه فإنّ اليوم يوم الجمعة**».

قلت له: ليس كلّ من يسأل مستحقّاً؟ فقال: «يا ثابت، أخاف أن يكون بعض من يسألنا محقاً فلا نطعمه ونردّه، فينزل بنا -أهل البيت- ما نزل بيعقوب وآله، أطعموهم أطعموهم. إنّ يعقوب كان يذبح كلّ يوم كبشاً فيتصدّق منه، ويأكل هو وعياله منه، وإنّ سائلا مؤمناً صوّاماً محقّاً، له عند الله منزلة، وكان مجتازاً غريباً اعترّ على باب يعقوب عشيّة جمعة عند أوان إفطاره يهتف على بابه: أطعموا السّائل المجتاز الغريب الجائع من فضل طعامكم. يهتف بذلك على بابه مراراً، وهم يسمعونه وقد جهلوا حقّه، ولم يصدّقوا قوله، فلمّا أيس أنْ يطعموه وغشيه اللّيل استرجع واستعبر وشكا جوعه إلى الله عز وجل، وبات طاوياً، وأصبح صائماً جائعاً صابراً حامداً لله تعالى وبات يعقوب وآل يعقوب شباعاً بطاناً، وأصبحوا وعندهم فضل من طعامهم».

قال: «فأوحى الله إلى يعقوب في صبيحة تلك الليلة: لقد أذللت -يا يعقوب- عبدي ذلّة استجررت بها غضبي، واستوجبت بها أدبي، ونزول عقوبتي وبلواي عليك وعلى وِلْدك.

يا يعقوب، إنّ أحبّ أنبيائي إليّ وأكرمهم عليّ مَن رحم مساكين عبادي، وقرّبهم إليه، وأطعمهم، وكان له مأوى وملجأ.

يا يعقوب، أما رحمت ذميال عبدي، المجتهد في عبادته، القانع باليسير من ظاهر الدّنيا، عشاء أمس، لمّا اعترّ ببابك عند أوان إفطاره، وهتف بكم: أطعموا السّائل

الغريب المجتاز القانع. فلم تطعموه شيئاً، فاسترجع واستعبر وشكا ما به إليّ، وبات طاوياً، حامداً لي، وأصبح لي صائماً، وأنت -يا يعقوب- وولدك شباع، وأصبحت وعندكم فضل من طعامكم.

أو ما علمت -يا يعقوب- أنّ العقوبة والبلوى إلى أوليائي أسرع منها إلى أعدائي؟ وذلك حسن النّظر منّي لأوليائي، واستدراج منّي لأعدائي، أما وعزّتي لأنزلنّ بك بلواي، ولأجعلنّك وولدك غرضاً لمصابي، ولأؤدّبنّك بعقوبتي، فاستعدّوا لبلواي، وارضوا بقضائي، واصبروا للمصائب».

فقلت لعليّ بن الحسين عليه السلام: جعلت فداك، متى رأى يوسف الرّؤيا؟ فقال: «في تلك اللّيلة الّتي بات فيها يعقوب وآل يعقوب شباعاً، وبات فيها ذميال طاوياً جائعاً، فلمّا رأى يوسف الرّؤيا وأصبح يقصّها على أبيه يعقوب، فاغتمّ يعقوب لمّا سمع من يوسف وبقي مغتمّاً، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: أن استعدّ للبلاء. فقال يعقوب ليوسف: لا تقصص رؤياك على إخوتك فإنّي أخاف أن يكيدوا لك كيداً، فلم يكتم يوسف رؤياه وقصّها على إخوته».

قال: عليّ بن الحسين عليه السلام: «وكانت أوّل بلوى نزلت بيعقوب وآل يعقوب الحسد ليوسف لمّا سمعوا منه الرؤيا- قال- فاشتدّت رقّة يعقوب على يوسف، وخاف أنْ يكون ما أوحى الله عزّ وجلّ إليه من الاستعداد للبلاء هو في يوسف خاصّة، فاشتدّت رقّته عليه من بين ولده، فلمّا رأى إخوة يوسف ما يصنع يعقوب بيوسف وتكرمته إيّاه وإيثاره إيّاه عليهم، اشتدّ ذلك عليهم وبدأ البلاء منهم فتآمروا فيما بينهم[1]. حتى نهاية القصة المعروفة.

---

(١) علل الشرائع، الصدوق، ج١، ص٤٦.

كذلك ما حكاه القرآن عن أنّ بكاءه كان لفقده ولده الحبيب ولا يتعذر الجمع بين السببين فإنّ حزن يعقوب لم يكن حزناً عادياً بل صار مضرب الأمثال عبر التأريخ يقول تعالى: ﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ۞ قَالُواْ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ۞ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾(يوسف: ٨٤-٨٦) كذلك نجدُ هذا المعنى في قول رسول الله ﷺ عند وفاة ابنه عبدالله: «**إنَّ العين لَتدمع، وإنّ القلب لَيحزن، ولا نقول ما يغضب الربّ**»[1].

وقد يكون الحزن والبكاء هو لفوات ما يقبل التدارك بمثل القضاء والتوبة، وهو بكاء ممدوح صاحبه، والفرق بين هذا وذاك أنّ هذا ناشئ من التقصير الذاتي وليس لأسباب قهرية.

وهل أنّ بكاءهم حين سماع آيات الله تتلى عليهم هو بكاء فرح؟ فنقول: إنّه بكاء رهبة وطمع برضوان الله لا بكاء فرح.

على أنّ الاستعمالات القرآنية للفرح تأتي تارةً في مورد الذّم-وهي الغالبة- وتارة في مورد المدح، ويطلق على الفرح الممدوح السرورَ، والفرح المذموم البطرَ، ومثال الأول قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُون﴾(يونس: ٥٨) وكذلك قوله: ﴿....فَرِحينَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ويَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ....﴾(آل عمران: ١٧٠)، ومثال الفرح المذموم قوله تعالى: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذينَ يَفْرَحُونَ بِما أَتَوْا ويُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفازَةٍ مِنَ الْعَذابِ ولَهُمْ عَذابٌ أليمٌ﴾(آل عمران: ١٨٨) ومنه قوله: ﴿وَ لا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً

(١) المستطرف في كلّ فنّ مستظرف، الأبشيهي، ج٢، ص٨٢٨.

إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ ولَنْ تَبْلُغَ الْجِبالَ طُولاً﴾(الإسراء: ٣٧) حيث فُسّر المرح بالفرح.

وكذلك قوله فيما ورد في قارون: ﴿إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وآتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحينَ﴾(القصص:٧٦).

ولكنْ ألا يتعارض استيلاء صفة الحزن عليهم مع الروايات الواردة على أنَّ الإنسان المؤمن هش بش، وكذلك ما ثبت بالوجدان أنّ الحزن طاقة سلبية طاردة ومانعة من التواصل المثمر مع النّاس، والذي هو الوسيلة التي يتبعها النبي في دعوته؟

وفي الجواب نقول: إنَّ الأنبياء اتصفوا على مستوى الباطن بالحزن وذلك للأسباب المتقدّمة التي بيّناها، وأما على مستوى الظاهر فقد اتّصفوا بالبُشر، وطلاقة الوجه، وانفتاح الأسارير، وهذا أدب آخر جميل ومهم.

قال أمير المؤمنين عليه السلام في صفة المؤمن: «**المؤْمِنُ بِشْرُهُ فِي وَجْهِهِ، وحُزْنُهُ فِي قَلْبِهِ، أَوْسَعُ شَيْءٍ صَدْراً، وَأَذَلُّ شَيْءٍ نَفْساً، يَكْرَهُ الرِّفْعَةَ، وَيَشْنَأُ السُّمْعَةَ، طَوِيلٌ غَمُّهُ، بَعِيدٌ هَمُّهُ، كَثِيرٌ صَمْتُهُ، مشْغولٌ وَقْتُهُ، شَكُورٌ صَبُورٌ، مغمور بفكرته، ضَنِينٌ بِخَلَّتِهِ، سَهْلُ الخلِيقَةِ، لَيِّنُ الْعَرِيكَةِ، نَفْسُهُ أَصْلَبُ مِنَ الصَّلْدِ، وَهُوَ أَذَلُّ مِنَ الْعَبْدِ**»[1].

فإنّ قوله: «**بشره في وجهه وحزنه في قلبه**» لِسببٍ، وهو أنّ هاتين الصفتين تكاسر إحداهما الأخرى، وترفع الآثار السيئة الظاهرية للحزن وللفرح في آن واحد فتتولّد صفة البُشر.

---

(١) نهج البلاغة، ج٤، ص٧٩ ـ ٨٠، رقم ٣٣٣.

الأدب الثّالث: اللجوء إلى الله وطلب النّجاة

وهو من الأدب مع الله، وهو أدب مهم، وهو ناشئ من حالة اليقين بأنّ الفاعل الوحيد والحقيقي في عالم الوجود هو الله عَزَّ وَجَلَّ وحده، وأنّ كلّ ما سواه فقير ومحتاج إليه، بل كلّ ما سواه محض فقر وحاجة، ويشتدّ هذا اليقين عندهم في موارد الشعور بالخطر الداهم.

وليس المقصود هنا اللجوء وطلب العفو بعد ارتكاب المعصية والمخالفة التكليفية وارتكاب المحرّم التشريعي، بل هو التوبة على مخالفة الأوْلى وما فيه صلاح حالهم، فعندما يداهمهم خطر يكون الله وجهتهم وقبلتهم الوحيدة التي يطلبون منها كشف هذا الخطر، وهذا ما نراه جليّاً في قصة نبي الله آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وذلك بعد أنْ أكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها نهيَ إرشادٍ لا نهيَ فرضٍ، فظهر عليه أثر مخالفة ذلك النّصح والإرشاد الإلهي، وتحوّلت تلك الظروف النّموذجيّة التي كان فيها إلى ظروف أخرى لم يألفها آدم من قبل، وهنا أخذت آدم النّدامة على هذه المخالفة، لا لتبدّل النّعمة والخروج من الجنّة، بل لما يكشف عنه هذا التبدل من زوال المكانة الأولى لآدم عند الله عَزَّ وَجَلَّ، وهذه هي المحنة والمشكلة الحقيقيّة والعظمى التي ابتلي بها آدم.

يقول الله عن ذلك: ﴿يا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُما ولا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونا مِنَ الظَّالِمِينَ ۞ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطانُ لِيُبْدِيَ لَهُما ما وُورِيَ عَنْهُما مِنْ سَوْآتِهِما وقالَ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونا مِنَ الْخالِدِينَ ۞ وقاسَمَهُما إِنِّي لَكُما لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۞ فَدَلاَّهُما بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُما سَوْآتُهُما وطَفِقا يَخْصِفانِ عَلَيْهِما مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ

وناداهُما رَبُّهُما أَ لَمْ أَنْهَكُما عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وأَقُلْ لَكُما إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُما عَدُوٌّ مُبِينٌ ۞ قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وتَرْحَمْنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾(الأعراف: ١٩-٢٣) هنا نلاحظ لجوء آدم لله في مقابل الانكفاء والانزواء والقنوط من الرحمة الإلهية، ونلاحظ أنّ الطلب الأوّل من الله هو المغفرة، فبدونها لا قيمة حتى للجنّة التي كانا فيها، ومن ثم الرحمة التي هي اللطف فيما نزل بهما ولم يطلبا ردّ ما قضاه الله عليهما وإعادتهما إلى سابق عهدهما، وإنّما اللطف فيه، وهذه حالة راقية من التسليم لأمر الله.

ومن أدب اللجوء وطلب المغفرة من الله ما جاء على لسان نبي الله نوح عليه السلام: ﴿قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ ۞ قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لي بِهِ عِلْمٌ وإِلاَّ تَغْفِرْ لي وتَرْحَمْني أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ﴾(هود: ٤٦-٤٧) وهي قصّة عجيبة تحيِّر العقول ومؤدّاها أنّ الله عز وجل قد وعد نبيّه نوح بنجاة أهله إلا من سبق عليه القول، وكان ظاهر الحال أنّ الكافر من أهله هي خصوص زوجته فقط ولم يُحط نوح علماً بكفر ولده، فلمّا جاء الطوفان أخذ ابنه طريقه مع الكافرين ولم يركب مع أبيه إذ سبق ووعد الله بهلاك الكافرين ونجاة خصوص المؤمنين.

وعندما رأى نوح ابنه يغرق سأل ربه قائلاً: يا رب هذا ابني وقد وعدتني بنجاته، ووعْدك الحق وإرادتك نافذة في الأشياء فكيف يجتمع غرقه ووعدك بنجاته، فهل أنّ الابن قد كفر بعد إيمانه أو أنّ حكمك بنجاة المؤمنين قد تغيّر وتبدّل، ولعلّ هذا السؤال الذي حمل هذا المعنى الأخير هو السؤال الذي لم يقبله منه الله وعاتبه عليه.

وقد كان الله قد نهاه عن ذلك سابقاً بقوله: ﴿فَأَوْحَيْنا إليه أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا ووَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وفارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ ولا تُخاطِبْني فِي الَّذينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُون﴾(المؤمنون: ٢٧) وكأنّ خفاء كفر ابنه ونهي الله عن السؤال في نجاة أحد من المغرقين هي صورة من صور الابتلاء التي يبتلي بها أنبيائه ليرفع درجتهم، وهذا ما يبرّر المستوى الكبير من النّدم الذي أصيب به نوح في قوله تعالى: ﴿قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلينَ ۞ قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لي بِهِ عِلْمٌ وإِلاَّ تَغْفِرْ لي وتَرْحَمْني أَكُنْ مِنَ الْخاسِرينَ﴾(هود: ٤٦-٤٧).

وقد قال بعض المفسرين إنّ عاطفة الأبوّة قد أخذت نوح فطلب النّجاة لابنه لعلّه يؤمن، وهذا بعيد وغير متصوّر في حقّ نوح الذي هو من أنبياء أولي العزم، كما أنّ سياق الآيات يوحي بأنّ سؤال نوح كان بعد غرق ابنه لا قبل ذلك فيقول: ﴿وهِيَ تَجْري بِهِمْ في مَوْجٍ كَالْجِبالِ ونادى نُوحٌ ابْنَهُ وكانَ في مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا ولا تَكُنْ مَعَ الْكافِرينَ ۞ قالَ سَآوي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُني مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وحالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقينَ ۞ وقيلَ يا أَرْضُ ابْلَعي ماءَكِ ويا سَماءُ أَقْلِعي وغيضَ الْماءُ وقُضِيَ الْأَمْرُ واسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وقيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمينَ ۞ ونادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْني مِنْ أَهْلي وإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وأَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمينَ﴾(هود: ٤٢-٤٥).

الفصل الثاني: أدب الأنبياء مع أنفسهم

الأدب الأول: عدم الحرج والتكلّف

ضربٌ جميل من الأدب تحلّى به أنبياء الله عليهم السلام وهو عدم التكلّف وتحميل النّفس فوق طاقتها، والتكلّف من الكلفة وتعني: الإيلاع بالشيء والتعلّق به. وليس المقصود هنا ما يطلق عليه الفقهاء التكاليف الشرعية وهي أنْ يوجب الله عز وجل على عباده فرائض محددة وينهاهم عن أشياء محددة، وإنْ كان الأصل اللغوي واحد، وليس المقصود أيضاً بذل الجهد والكلفة لتحصيل الكمالات المحمودة التي هي في المتناول من قبيل طلب العلم والصبر عليه وتحمّل المشاق في تحصيله، وكذلك طلب المعيشة والرزق الحلال الذي هو متاح للطالب ويناسب شأنه، فكلّ ذلك مما ندب الشرع إليه، وقامت سيرة الأنبياء والأولياء عليه وعلى مدح المجد الكادح فيه، بل المقصود من عدم التكلّف هو العفوية وإرسال السجيّة وعدم حمل النّفس على أكثر مما تقدر عليه ومنه قول الله عز وجل على لسان نبيه المصطفى صلى الله عليه وآله: ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ**﴾ حيث وجد النّاس كلّ النّاس محمداً صلى الله عليه وآله بسيطاً، ترابياً في ملبسه، ومأكله، ومجلسه، لا يطلب المستحيل، ولا يجري وراء البعيد، يأكل مما يملك، وينفق مما عنده، حتى أنّ الرجل يدخل المسجد فينادي أيكم محمّد فلا يكاد يتميّز عن أيّ واحد من أصحابه، مما جعل الفقير والغني والجاهل والفاهم لا يستوحشون من الجلوس في مجلسه، ولا يتهيّبون سؤاله.

وهذا أدب على درجة عالية من الرقي، وفيه تسلية لخاطر الفقير والمحروم، فإذا كان سادات البشر ومن بيدهم أزمّة الأرض والسماء يعيشون وفق ما أعطاهم

الله ورزقهم ويتكلّمون بما يعلمون، ويصمتون عمّا لم يأذن الله بالكلام فيه، بل ويظهرون عدم الإحاطة به كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وما أُوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَليلا﴾(الإسراء:٨٥) وقوله تعالى حكايةً عن موسى عليه السلام: ﴿قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى ۞ قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي في كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي ولا يَنْسى﴾(طه: ٥١).

فهذا الأدب الرفيع يرفع الحرج والتكلّف عند الفقير البسيط بإمكاناته المادّية، مما يجعله قادراً على التفاعل الإيجابي مع مجتمعه بدون أنْ يشعر بالنّقص والدونيّة، فإذا كان أعلم النّاس وأفضلهم وأكملهم يقول: لا أعلم. وأنّ العالم الذي لا يجهل شيء هو الله عز وجل فالبسيط في قدراته أولى النّاس بالصبر والرضا.

ولعلّ منشأ هذا الأدب هو الكون على الفطرة الصادقة الصافية التي لا تطلب أكثر مما جهزه الله لها، فلا شك أنّ الجواب بدون علم خوفاً من انكشاف النّقص العلمي أو لُبس الغالي من الثياب مجاراةً لما هو شائع في المحيط وهو وضع للنّفس في غير موضعها الحقيقي، وهذا مما تنفر منه الفطرة السليمة ذلك أنّ فيه عبئ ومشقة على النّفس ويعد من حبّ الشهوات التي لا تليق بالأنبياء.

نظرة على زماننا:

ولكنّ داء التكلّف مما هو منتشر بين أبناء زماننا فلا تجد من ينصف نفسه فيضعها في موضعها الصحيح، فترى الجاهل يضع نفسه موضع العالم، وترى الحِرفي الذي لم يكتسب المهارات المطلوبة في مهنته يناطح الحرفيين المخضرمين، وهكذا المتواضع في دخله يعيش في أبهى المنازل ويتملّك أفضل الأثاث ولو بالاقتراض الذي يرهق كاهله وكاهل أسرته.

ولا شك في أنّ أهم أسباب هذا التكلّف المذموم هو حبّ الشهوات، وإطلاق العنان للنّفس، والخلود للأرض وملذّاتها، وطول الأمل الذي دأب الأنبياء والأولياء على التحذير منه.

الرغبة بالتوافق النّفسي:

كما أنّ هناك سبب آخر على درجة كبيرة من الأهميّة والخطورة وهو عمليّة التوافق النّفسي فكما أنّ البدن الذي يصاب بالحمى وترتفع درجة حرارته يقوم بتلقاء نفسه بعملية توافق مع الوضع الجديد فيأخذ بالتعرّق تدريجياً حتى تنخفض درجة حرارته، وهذا التوافق نفسه الذي يدفع الجائع للبحث عن الطعام ويدفع العطشان للبحث عن الماء، فإنّ البحث عن الملائم لدفع الضرر مستمر في حياة الإنسان سواء كان الضرر فعلياً حقيقياً أم وهمياً لا حقيقة له كالخوف من الغول مثلاً، فإنّه يدفع صاحبه للهرب مع أنّه لا وجود للغول أصلاً، كذلك النّفس تقوم بعملية التوافق.

فإنّ الفقير ومحدود الدخل الذي يرى من حوله يتنعّمون بملذّات هذه الدنيا ويتملّكون أفضل الأشياء لا شك في أنّ إحساسه بحسن الخروج من الدونيّة والعيش بكيفيّة متساوية مع الآخرين يدفعانه لركوب الصعاب وتكليف النّفس ما لا تطيق، وهذا هو التوافق بين المطلوب والمراد النّفسي من جهة وبين الوسيلة التي من خلالها يحقق مراده ومطلوبه من جهة أخرى، فتارة تكون الوسيلة صحيحة كما هو في الجاهل الطالب للعلم والمعرفة فيذهب ليتعلّم، وكذلك الطالب للمال فيذهب ليعمل ويحصل على الأموال، وتارة تكون الوسيلة خاطئة أو مزيفة كأنْ يسرق الفقير ليعالج فقره أو يتصنّع الغنى فيعيش حياة الأغنياء

ظاهراً بينما هو فقير حقيقةً، وهذا عين التكلّف، وعليه فالشعور بالغنى الباطني والقناعة بما قسم الله للإنسان هو السبيل الذي لا يخلق المتاعب للإنسان وهو سبيل الأنبياء والأولياء.

وفي هذا المقام نذكر كلمة للشيخ الطبرسي رحمه الله في تفسيره واصفاً حسن أخلاق نبيّنا الخاتم صلى الله عليه وآله وتواضعه وترابيّته مع أنّه في أعلى درجات العلى والهيبة فيقول: "**ومن عجيب أمره صلى الله عليه وآله أنّه كان أجمع النّاس لدواعي الترفّع، ثم كان أدناهم إلى التواضع، وذلك أنّه كان أوسط النّاس نسباً، وأوفرهم حسباً، وأسخاهم وأشجعهم وأزكاهم وأفصحهم، وهذه كلّها من دواعي الترفّع، ثم كان من تواضعه أنّه كان يرقع الثوب، ويخصف النّعل، ويركب الحمار، ويعلف النّاضح**[1] **ويجيب دعوة المملوك، ويجلس في الأرض، ويأكل على الأرض، وكان يدعو إلى الله من غير زأر، ولا كهر، ولا زجر، ولقد أحسن من مدحه في قوله:**

فما حملت من ناقة فوق ظهرها ... أبرّ وأوفى ذمّة من محمّد[2]

الأدب الثاني: الدعاء للوالدين وللمؤمنين

وهو من آداب الدعاء التي تكشف علاقة النبي بالله من جهة وعلاقته بالآخرين من جهة ثانية، والكلام عن الدعاء واسع ومتشعب ولكن نكتفي فيه بذكر نقاط قليلة حسب الحاجة.

لقد رافق الدعاء الإنسان منذ اليوم الأول لوجوده على الأرض ذلك أنّ الله يتحدّث في قرآنه عن الإنسان فيقول: ﴿**وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾.

---

(١) النّاضح: جمل يستقى عليه الماء. كتاب العين.

(٢) تفسير مجمع البيان، الطبرسي، ج٢، ص٨٧٠.

وكأنّ الإنسان في جزئه الروحي ينتمي لله ﷻ بنحو البعضيّة مما جعل العلاقة والرابطة بينهما علاقة فطريّة أكيدة مباشرة، وكأنّ الاتصال بينهما اتصال قطرات الماء فيما بينها.

فالعلاقة بين الروح الإنسانية وبين خالقها علاقة فريدة عجيبة حيّرت ولا زالت تحيّر عقول العلماء والفلاسفة، فقد يبتعد الإنسان في شقّه المادّي عن الله وقد يتمرّد على أوامره وأحكامه ولكنّه بجزئه الروحي المعنوي الباطني عاجز عن التمرّد؛ لأنّ في ذلك نكران لذاته وتخلياً عن أصل وجوده.

فقد يدّعي الإنسان الإلحاد ونكران وجود الله ﷻ ولكنْ لا يعني ذلك أكثر من التمرّد على الحقيقة والواقع الذي يشهدُ بوجوده أعماقُ قلبِه وروحِه.

إنّ الله يبين هذه الحقيقة في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿**وإذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وكانَ الْإِنْسانُ كَفُورا**﴾(الإسراء:٦٧)، كذلك قوله تعالى: ﴿**وإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**﴾(يونس: ١٢).

بل إنّ القرآن يترقّى فيقول بأنّ هؤلاء الضالّين المكذّبين ليس فقط يشهدون بفطرتهم على وجود الله ﷻ، بل ينفون عنه الشريك أيضاً فيقول تعالى: ﴿**إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وما تَخْرُجُ مِنْ ثَمَراتٍ مِنْ أَكْمامِها وما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى ولا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ ويَوْمَ يُناديهِمْ أَيْنَ شُرَكائِي قالُوا آذَنَّاكَ ما مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ**﴾(فصلت: ٤٧). أيْ: أعلمناك بأنّ ليس منّا من يشهد على وجود الشريك إليك.

وهذه كلمات آدم وزوجه ﴿**قالا رَبَّنا ظَلَمْنا أَنْفُسَنا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنا وتَرْحَمْنا**

لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرينَ﴾(الأعراف:٢٣) حيث لم يعمد إلى أيّ وسيلة أخرى لمعالجة النّقص الظاهر إلا بالدعاء، وقد تميّز دعاء الأنبياء بعدّة ميزات نذكر منها واحدة مراعاة للاختصار.

وهي الدعاء للوالدين وللمؤمنين والمؤمنات وهذا أدب جميل نابع من عرفان الجميل الذي يسبغه عادة الوالدان على وليدهم، ومن الشعور بوحدة المصير والانتماء الصادق للأمّة، كما أنّ ذلك دليل رقّة القلب والعطف التي يمتلئ بها قلب النبي، فتراه يبث دعاءه في الآفاق ليشمل كلّ مؤمن ومؤمنة في مختلف العصور والأزمان، وهذا ما نراه في دعاء نوح عليه السلام: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لي ولِوالِدَيَّ ولِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً ولِلْمُؤْمِنينَ والْمُؤْمِناتِ ولا تَزِدِ الظَّالِمينَ إِلاَّ تَباراً﴾(نوح: ٢٧).

وكذلك ما نراه على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام إذ يقول: ﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهيمُ رَبِّ اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً وارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ قالَ ومَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَليلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذابِ النَّارِ وبِئْسَ الْمَصيرُ ۞ وإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهيمُ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وإِسْماعيلُ رَبَّنا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّميعُ الْعَليمُ ۞ رَبَّنا واجْعَلْنا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ومِنْ ذُرِّيَّتِنا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وأَرِنا مَناسِكَنا وتُبْ عَلَيْنا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحيمُ ۞ رَبَّنا وابْعَثْ فيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ ويُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ والْحِكْمَةَ ويُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزيزُ الْحَكيمُ﴾(البقرة: ١٢٦-١٢٩).

وقد ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام الكثير من الروايات التي تحثّ على الدعوة للإخوان المؤمنين وخصوصاً بظهر الغيب.

الفصل الثالث: آدابهم في الدعوة والتبليغ

الأدب الأول: أدب الخطاب

تميّز خطاب الأنبياء بعدّة مميزات سواء على مستوى المادّة اللغوية أو على مستوى الكيفيّة التي كان عليها. وبعبارة أخرى؛ التميز كان على مستوى الشكل والمضمون، وهي واقعاً آداب راقية تناسب تلك الشخصية العظيمة للنبي، وتناسب المهمة الكبيرة التي أنيطت به، وسوف نتناول هذا الخطاب من عدة جهات.

الجهة الأولى: وضوح الخطاب وبلاغته

يمثّل الكلام الوسيلة المنطقيّة للتخاطب بين النّاس لما يمثّله من كشف صريح عن المراد المستقر في النّفس والاستفادة القصوى من اللسان والبيان، وهي الغاية المرجوّة لكلّ داعية سواء كان داعية خير أو داعية شرّ، وهذا ما جرت عليه البشر منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا، فلم تستطع الاختراعات والصناعات أخذ دور اللسان والبيان، لذلك نجد نبي الله موسى عليه السلام وبمجرد تكليفه بالدعوة والرسالة يطلب من الله القدرة على بيان مقاصده بأجلى الصور وأعلى المراتب؛ بحيث يكون اللفظ الصادر عن اللسان حاكياً ومطابقاً لما في الصدر بتمامه، بمعنى أنْ يمتلك القدرة على جعل اللغة طيعّة للمعاني الكبيرة المستقرّة في النّفس، والتي عليه بيانها للناس، فقال مخاطباً الله عز وجل: ﴿**قالَ رَبِّ اشْرَحْ لي صَدْري ۞ ويَسِّرْ لي أَمْري ۞ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِساني ۞ يَفْقَهُوا قَوْلي**﴾(طه: ٢٥-٢٨) ولعلّ موسى عليه السلام يقصد من طلبه هذا ما هو أكثر أهميّة من تذليل اللغة والكلمات على لسانه، ومحاكاتها لما في النّفس من معاني، فيطلب

الفصاحة والبلاغة أيضاً، وهو المهم؛ إذ ليأخذ اللفظ دوره وتأثيره في القلوب لا بدّ من مناسبته للظرف المقول فيه، وما لم يكن كذلك فلن يعدو أنْ يكون ألفاظاً تتردّد بلا تأثير، وهذا المعنى قد نستكشفه من مجموع الآيتين، الأولى قوله: ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانِي﴾، والثانية قوله: ﴿وَأَخِي هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِي رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾(القصص:٣٤) ولا شك في أنّ الكلام الذي لا يستقرّ في نفس المخاطب يكون صاحبه عرضة للتكذيب لذلك، فالكلام البليغ هو الذي وصل وبلغ غايته.

من هنا يتّضح الجواب على إشكال طالما تردّد عن الأصل في كلام الأنبياء، وهل هو الكلام المتّصف باللين كما في قوله تعالى: ﴿اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى ۞ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى﴾(طه: ٤٣و٤٤) أم الكلام المتّصف بالخشونة والصرامة كما في قول إبراهيم عليه السلام لذاك المحفل الذي أشرف عليه النمرود شخصيّاً، وعُقد لمحاكمة إبراهيم بعد حادثة تحطيم الأصنام، فقال الله على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً ولا يَضُرُّكُمْ ۞ أُفٍّ لَكُمْ ولِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(الأنبياء:٦٦و٦٧)، ولا شكَّ في أنّ الخشونة والصرامة التي تحلّى بها إبراهيم لم تقتصر على مستوى الفعل وتحطيمه للأصنام التي هي آلهةٌ مقدسةٌ عند هؤلاء، بل كان خِطابُهُ أيضاً يتميّز بالخشونة والصرامة، كيف لا وهو يقول للنمرود وحاشيته: بُعداً وسُحقاً لك ولما تعبد، أفلا تعقلون؟

فيكون الأصل هو الكلام المطابق لمقتضى الحال الذي به يتحقق الغرض، وليس هو الكلام اللين ولا الكلام الخشن، كما أنّه لا خصوصيّة للملوك والجبابرة

ليختصّوا بنوع من الكلام إنْ كان ليناً أو خشناً، بل يعمّ جميع الفئات.

وأمّا الضابطة التي تحدد نوع الكلام فتعود إلى تشخيص النبي نفسه، فتكون هذه الضابطة من متعلقات العصمة أيضاً.

الجهة الثانية: الخطاب البرهاني

لقد تميّز خطاب الأنبياء بالدقّة والرصانة والاعتماد في أحيان كثيرة على الاستدلالات المنطقية البرهانية، وشواهد ذلك كثيرة في القرآن الكريم، ولعلّ السبب في ذلك يعود لشمولية الدعوة لكلّ فئات المجتمع، بل لكلّ البشر كما في أنبياء أولي العزم عليهم السلام، ولكون كلماتهم واستدلالاتهم في معرض الخلود وتلقّي الأجيال لها جيلاً بعد جيل فيترتب على ذلك أنّ تبيّن هذه البراهين الكليات التي يحتاجها الإنسان، وتكون عابرة للزمان والمكان وصالحة لتكون جواباً شافياً للأسئلة المتكرّرة والمستحدثة التي تراود الإنسان دائماً.

كما أنّهم لم يُبعثوا لأناسٍ فارغي الذهن، فالمنطق والبرهان هو الذي يحكم سلوك النّاس بما فيهم عبدة الأصنام، أو عبدة قوى الطبيعة، أو عبدة الملوك والجبابرة، فإنّ معتقدات هؤلاء مبتنيّة على مقدّمات علمية وبراهين منطقية، وكلّ ما هنالك أنّ المواد العلمية وطريقة ترتيب المقدمات للوصول إلى النتائج التي يستخدمها هؤلاء في عقائدهم كانت خاطئة، فترتّب على ذلك عقائد وأفكار خاطئة.

من هنا كانت المفارقة بين المنطق الذي يستخدمه الأنبياء والمنطق الذي يستخدمه عبدة الأصنام أو غيرهم، فإنّ أوّل ما يعمد إليه النبي هو تذكيرهم بالأوليات الفطرية والعقلية التي يصدقون بها بداهة، ولا تحتاج لمزيد عناية من

التفكر والتأمل، ثم يبني عليها النتائج المنطقية الصحيحة.

ولنأخذ نموذج من ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن المحاورة التي جرت بين نوح عليه السلام وقومه فيقول تعالى:

﴿وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذيرٌ مُبينٌ ۞ أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلاَّ اللهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَليمٍ ۞ فَقالَ الْمَلَأُ الَّذينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلاَّ بَشَراً مِثْلَنا وما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبينَ ۞ قالَ يا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وآتاني رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوها وأَنْتُمْ لَها كارِهُونَ﴾(هود: ٢٥-٢٨).

فهنا قد جاء قوم نوح بثلاثة إشكالات وأجاب عليهم نوح بجواب مختصر يتميّز بالدقّة والشمول والإشكالات التي طرحوها هي:

١ـ إنّ النبي الذي يأتي برسالة من الله إلى البشر ينبغي أن يكون من جنس مختلف عن البشر، وإلا فلا فرق بينه وبينهم.

فكان الجواب: صحيح أنّه لا فرق من حيث جنس البشرية المشترك بيننا، ولكنّ هذا لا يجعلنا متحدّين من حيث الصفات أيضاً، فما المانع أنْ أتحلى بالعلم والمعرفة بالله فيكلفني الله بهدايتكم التي هي الرحمة المنزلة من الله إليكم.

٢ـ إنّ دعوتك هذه لم تلقى صدى إلا عند الطبقة الدنيا من المجتمع، والذين يتميزون بالسطحية في تفكيرهم، ويتأثرون بظواهر الأشياء.

فكان الجواب: ما المانع في أنْ يعي ويفهم هؤلاء الذين هم في الطبقة الدنيا من المجتمع خطابي ودعوتي، ويؤمنوا بالله، ويغيب عنكم الفهم والوعي، فتكفروا بالله، والحال أنكم تجهلون وتعمون عن الكثير من الحقائق.

٣ـ لا نرى لك يا نوح من فضل علينا فلست بذاك الغني الذي يغدق الأموال على الناس، ولست بذاك البطل المحارب الذي يذود عن قومه.

فكان الجواب: وأيّ فضل أعظم من أنْ يخصّني الله برحمته، ويجعلني نبياً ورسولاً إليكم.

ونموذج آخر نشاهده في قصة خليل الرحمن إبراهيمعليه السلام حيث يخاطب قومه بأسلوب علمي يرتجي منه رجوع المخاطب إلى فطرته، وتنبيه العقل، وإحداث ثورة في طريقة التفكير تكون بنفسها هادية ومرشدة لاستخلاص النتائج الصحيحة، فيأتي القرآن الكريم على بيان تلك المحاورة الجميلة بين إبراهيم وقومه فيقول: ﴿**واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْراهيمَ ۞ إِذْ قالَ لِأَبيهِ وقَوْمِهِ ما تَعْبُدُونَ ۞ قالُوا نَعْبُدُ أَصْناماً فَنَظَلُّ لَها عاكِفينَ ۞ قالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۞ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۞ قالُوا بَلْ وَجَدْنا آباءَنا كَذلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾(الشعراء: ٦٩-٧٤).

ثم يقرّر لهم النتيجة؛ بأنّ الإله الذي هذا حاله لا يستحق منكم العبادة، بل هذه الأصنام بمثابة العدوّ الذي يمنعني من النّهوض وتلقّي الكمالات.

ثم يبيّن لهم صفات المعبود الحقّ الذي يستحق أنْ يُعبد ويطاع فيقول:

﴿**قالَ أَفَرَأَيْتُمْ ما كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ أَنْتُمْ وآباؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ۞ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لي إِلاَّ رَبَّ الْعالَمينَ ۞ الَّذي خَلَقَني فَهُوَ يَهْدينِ ۞ والَّذي هُوَ يُطْعِمُني ويَسْقينِ ۞ وإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفينِ ۞ والَّذي يُميتُني ثُمَّ يُحْيينِ ۞ والَّذي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لي خَطيئَتي يَوْمَ الدِّينِ**﴾(الشعراء: ٧٥-٨٢).

وأيضاً يضرب لنا إبراهيم الخليل نموذجاً آخر غاية في الروعة، وهو المتمثّل في الحادثة الشهيرة لتحطيم الأصنام، فبعد أنْ رجع النّاس إلى معبدهم، ورأوا

الأصنام وقد تحطّمت وصارت جذاذاً، أصابتهم الدّهشة، وأخذتهم الحميّة على أصنامهم.

﴿قالُوا مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ۞ قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ ۞ قالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلى أَعْيُنِ النّاس لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ۞ قالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هذا بِآلِهَتِنا يا إِبْراهِيمُ ۞ قالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ ۞ فَرَجَعُوا إِلى أَنْفُسِهِمْ فَقالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ۞ ثُمَّ نُكِسُوا عَلى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ ۞ قالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً ولا يَضُرُّكُمْ ۞ أُفٍّ لَكُمْ ولِما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾(الأنبياء: ٥٩-٦٧).

وهنا نشاهد أمراً عجباً، وهو أنّ هؤلاء ومع أنّهم كانوا يعلمون بأنّ إبراهيم هو الذي حطّم الأصنام إلا أنّهم بمجرّد أنْ قال لهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هذا فَسْئَلُوهُمْ إِنْ كانُوا يَنْطِقُونَ﴾ لم يتّهموه بالكذب، بل نكّسوا رؤوسهم حياءً وخجلاً، ولربما تصبّب العرق منهم، وأخذوا ينظرون إلى بعضهم البعض بحثاً عن جواب أو حيلة للخروج مما وقعوا فيه.

مع أنّ مقتضى الظرف أنّهم في قوّة، وقد مسكوا بالذي ارتكب هذه الجناية في حقّ أصنامهم، ولكنْ مع ذلك ظهر أنّهم هم المهزومون، وهم المتّهمون الذين عليهم الدفاع عن التّهم التي وجهت إليهم بخصوص قواهم العقليّة، وما ذلك إلا لقوّة البيان والحجّة التي ألزمها إبراهيم إياهم، فهم الآن مجبرون على الاعتراف بأنّ هؤلاء الأصنام لا تضرّ ولا تنفع، ولا تستطيع دفع العدوان عنها فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ﴾.

الجهة الثالثة: الخطاب العاطفي

لقد ذكرنا سابقاً بأنّ الأصل في خطابات الأنبياء هو المطابقة مع مقتضى الحال انطلاقاً من أنّ لكلّ مقام مقال، إلا أنّنا نجد مجموعة كبيرة من الآيات التي تكفّلت بيان العواطف الجيّاشة التي كان عليها الأنبياء مع أرحامهم ومع عموم الناس.

فلم يشكّل المقام العبودي الراقي جداً للنبي حاجزاً عن الكلام اللطيف والهادئ مع أعتى النّاس وأبعد النّاس عن القيم المعنويّة.

لم يمنع استقرار نفوس هؤلاء في أعلى درجات العرفان والشهود -﴿**وَكَذلِكَ نُري إِبْراهيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ والْأَرْضِ ولِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنينَ**﴾(الأنعام: ٧٥)- من النزول إلى الأرض ومخاطبة عبَدة الأصنام، أو حتى عبَدة البشر أو المبتلون بقبائح السلوك كما هم قوم لوط أو قوم شعيب بكلام المحبّة والنّصيحة، فإنَّ المحبّة ولين القلب والخطاب مع أردأ النّاس وأحطّهم أخلاقاً كان السمة البارزة في الأنبياء ﴿**فبِما رَحمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُم وَلَو كُنتَ فَظًّا غَليظَ القَلبِ لَانفَضّوا مِن حَولِكَ فَاعفُ عَنهُم وَاستَغفِر لَهُم وَشاوِرهُم فِي الأَمرِ فَإِذا عَزَمتَ فَتَوَكَّل عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلينَ**﴾(آل عمران: ١٥٩)، فالناس عيال الله ووظيفة النبي إنّما هي هداية هؤلاء.

ذلك أنّ الأنبياء في مسير حركتهم ودعوتهم النّاس لا ينطلقون من أغراض شخصية ضيّقة، فلم يكن همّهم الحصول على المكاسب المادّية أو الوجاهات الاجتماعية، بل همّهم انتشال قومهم وأمّتهم من براثن الشرك، ومن ظلمة الجهل إلى نور الإيمان، لذلك اتسم خطابهم بالمحبّة والحنان.

ولا شك في أنّ الكفر بالله ﷻ هو كفر بكلّ قيم الخير في النّفس، فيتحوّل هذا الإنسان بسبب كفره إلى مشروع مجرم ومتغطرس، يؤذي غيره، ويكون مجلبة للمشكلات التي لا حصر لها، لذلك نجد الأنبياء ينطلقون بالنّصيحة والهداية، ولا يسأمون من ذلك لما فيها من مصلحة عامة.

لذلك نجد القرآن يعبّر عن مجموعة من الأنبياء بالأخ، كما في قوله تعالى في الآيات التالية:

١ـ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾(الشعراء: ١٦٠-١٦١).

٢ـ ﴿وإِلى ثَمُودَ أَخاهُمْ صالِحاً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُه﴾(الأعراف:٧٣).

٣ـ ﴿إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ﴾(الشعراء: ١٠٦).

٤ـ ﴿وإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُه﴾(الأعراف: ٨٥).

٥ـ ﴿وإِلى عادٍ أَخاهُمْ هُوداً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾(هود: ٥٠).

وهذا التعبير القرآني لا تخفى دلالته العاطفية، وهو كاشف عن نوع الخطاب الذي يعتمده النبي، ألا وهو الخطاب الأخوي الذي يقع في مقابل الخطاب السلطوي، أو الخطاب الاستعلائي وغيره من الخطابات التي يعتمدها المتجبّرون والمتغطرسون.

فلا شك في أنّ الخطاب الأخوي له سحره الخاص، وتأثيره المباشر في النّفس، فهو كاشف عن صدق النّية، وتمحّض النّصيحة والهداية، كما أنّه كاشف عن مستوى من رقّة القلب والحنان.

كذلك نقف على محاورة بين إبراهيم وعمّه الذي لا يفتر عن مخاطبته بالأب لأربع مرّات متتالية في مقطع واحد من المحاورة، وكأنّ القرآن يريد بيان حال إبراهيم مع عمّه، واللفظة الدارجة التي يخاطبه بها هذا، مع أنّ آزر كان عبداً وصانعاً للأصنام.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا ۞ إِذْ قالَ لِأَبيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ ولا يُبْصِرُ ولا يُغْني عَنْكَ شَيْئاً ۞ يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جاءَني مِنَ الْعِلْمِ ما لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْني أَهْدِكَ صِراطاً سَوِيًّا ۞ يا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطانَ إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلرَّحْمنِ عَصِيًّا ۞ يا أَبَتِ إِنِّي أَخافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذابٌ مِنَ الرَّحْمنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطانِ وَلِيًّا ۞ قالَ أَراغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتي يا إِبْراهيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ واهْجُرْني مَلِيًّا ۞ قالَ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كانَ بي حَفِيًّا﴾(مريم: ٤١-٤٧).

وهكذا حال نبينا الخاتم الذي قال:«**ما أوذي نبيّ مثلما أوذيت**»[١] مع ذلك يدعوا لقومه ويقول «**اللهم اهدِ قومي فإنّهم لا يعلمون**»[٢].

---

(١) بحار الأنوار، المجلسي، ج٣٩، ص٥٦.

(٢) نفس المصدر، ج١١، ص٢٩٨.

الخاتمة

في النهاية نقول: لا شك في أنّ ما تناولناه في هذه الوريقات لا يعدوا كونه نقطة في بحر مكارم أخلاقهم وآدابهم عليهم السلام، على أنّ الحاجة ملحّة للكتابة في هذا المجال لما لها من عظيم الفائدة؛ إذ الأنبياء هم الذين اختارهم الله بفضل رحمته وعنايته لتعليم وتأديب البشر فهم المتخلّقون بأخلاق الله التي فيها الهدى والرشاد[1].

---

(١) من مصادر البحث: ١.البرهان في تفسير القرآن تأليف السيد هاشم البحراني. / ٢. الميزان في تفسير القرآن، تأليف السيد العلامة محمد حسين الطباطبائي. منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ١٩٩٧م/ ٣. تزكية النفس، تأليف أية الله العظمى السيد كاظم الحائري. منشورات نور المصطفى للطباعة والنشر والتوزيع./ ٥. كتاب العين الخليل بن أحمد الفراهيدي نشر دار الهجرة / قم المقدسة ١٤٠٩ هـ/ ٦. مفردات ألفاظ القرآن / حسين بن محمد المسمى بالراغب الأصفهاني طباعة دار القلم بيروت١٤١٢ هـ/ ٧. لسان العرب محمد بن مكرم ابن منظور الطبعة الثالثة دار صادر بيروت١٤١٤ هـ/ ٨. مجمع البحرين / للفخر الطريحي/ ٩. التحقيق في كلمات القرآن الكريم / حسن المصطفوي الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي / طهران١٤١٦هـ/ ١٠. رحلة إلى أعماق النفس، تأليف السيد عبد الحسين القزويني. منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات /١٩٩٦ م/ ١١. القصص القرآنية / آية الله ناصر مكارم الشيرازي طباعة دار الكاتب / لندن ٢٠٠٤ ميلادية.

اللهم صل على محمد وآل محمد

المتشابه في القرآن

الشيخ محمود حسن آل الشيخ العالي

الملخّص:

يتعرّض الكاتب في مقالته أوّلاً إلى بعض الأقوال في معنى المتشابه، فيردّ بعضها ويتبنّى أنّ معنى المتشابه هو ليس ما كانت ألفاظه غير واضحة، بل ما كان غير منسجم مع كونه آية في القرآن مع الآيات الأخرى.

ثمّ يثنّي كلامه ببيان معنى الأموميّة للآيات المحكمة والأقوال فيها، فيختار بيانيّة الآيات المحكمة للمتشابهة، ثمّ يشير إلى موقف أهل البيت عليهم السلام المتشدّد من الآخذ بالمتشابه ولزوم الرّجوع إليهم، ثمّ يذكر بعض الآثار المدمّرة في الأخذ بالمتشابه من انحراف وفهم سقيم للدّين، ثمّ يختم ببيان العلّة من وجود المتشابه في القرآن الكريم.

بسم الله الرّحمن الرّحيم، والصّلاة والسّلام على أشرف أنبيائه المرسلين وحبيب إله العالمين محمّد وعترته الطّيّبين الطّاهرين الهداة المهديّين، واللعن الدائم على أعدائهم أجمعين من الآن إلى قيام يوم الدّين.

من البحوث المهمّة والمسائل المعقّدة هي مسألة المتشابه في القرآن، وقد تناول علم التّفسير وعلم علوم القرآن المسألة من القديم بالبحث والتّنقيب، ولأهميّة موضوع المتشابه من نواحي مختلفة فقد أفرد لها بعض العلماء رسائل بالبحث والتّحليل.

وجود المتشابه في القرآن

لا مجال للشّك في اشتمال القرآن على نوع من الآيات أسماها القرآن الكريم متشابهاً، وقد نصّ عليها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾(آل عمران: ٧).

والبحث حول المتشابه يقع في عدّة نقاط:

النّقطة الأولى: في معنى المحكم والمتشابه.

النّقطة الثّانية: ما معنى أموميّة المحكمات من آيات الكتاب؟

النّقطة الثّالثة: موقف أهل البيت عليهم السلام من المتشابه.

النّقطة الرّابعة: النّتائج والآثار المترتّبة على الأخذ بالمتشابه.

النّقطة الخامسة: لماذا وقع المتشابه في القرآن؟ ولماذا لم تكن كلّ آياته محكمات؟

النّقطة الأولى: معنى المحكم والمتشابه

أمّا الإحكام: فهو الإتقان، يوصف به الكلام لدلالته الواضحة بحيث لا يحتمل وجوهاً من المعاني الأخرى.

مثل قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾(الإسراء: ٢٣).

فإنّ هذه الآية واضحة الدّلالة على المعنى المراد، وهو حكمه وإلزامه ﷻ بأن لا تكون العبادة إلّا له، كما وألزم تعالى بالإحسان للوالدين، فهذه الآية من المحكمات وهي كثيرة جدّاً، بل هي الأساس والأصل في القرآن الكريم كما أخبر عن ذلك ﷻ بقوله: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

وأمّا المتشابه: فهو اللفظ المحتمل لوجوه من المعاني، وكان موضع ريب وشبهة، وهو مأخوذ من متشابه الوجوه، أي: تماثلها مع بعضها البعض بحيث يتحمّل وجوهاً من المعاني.

قال الرّاغب في مفرداته: "**فالمحكم ما لا يعرض فيه شبهة من حيث اللفظ ولا من حيث المعنى**"[١].

وقال أيضاً: "**والمتشابه من القرآن ما أشكل تفسيره لمشابهته بغيره، إمّا من حيث اللفظ أو من حيث المعنى، فقال الفقهاء: المتشابه ما لا ينبئ ظاهره عن مراده**"[٢].

وقد ذكرت كلمات العلماء عدّة تعاريف للمحكم والمتشابه والتّفريق بينهما،

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الرّاغب الأصفهاني، ص١٢٨.

(٢) نفس المصدر، ص٢٥٤.

حتّى أنّ بعضهم عدّ النّاسخ والمنسوخ من المتشابه، وبعضهم عدّ التّكرار كما في قصّة نبيّ الله موسى عليه السلام من المتشابه، وبعضهم قال إنّ المحكم ما يعمل به، والمتشابه الّذي يؤمن به ولا يعمل به.

وهذه الأقوال كلّها ضعيفة، فمثلاً: جعْل النّاسخ والمنسوخ من المتشابه غير واضح، ولا دليل عليه سوى أنّ المنسوخ بعد مجيء النّاسخ له لا يجوز العمل به كالمتشابه، وهذا المقدار من اشتراك المنسوخ مع المتشابه في النّتيجة وهو عدم جواز العمل به، لا يبرّر اعتباره من المتشابه؛ بعد وضوح المقصود من المتشابه واتّضاح دلالة المتشابه.

وهكذا جعل تكرار الآية لا يسوّغ عدّه من المتشابه؛ بعد اتّضاح دلالة الآيات المتكرّرة ولو خفي علينا وجه التّكرار.

وأمّا تعريف المتشابه بأنّه ما وجب الإيمان به دون العمل به فهذا ليس تعريفاً حقيقيّاً للمتشابه، بل هو أخذ النّتيجة من التّعريف، وأنّ نتيجة المتشابه أنّه لا يجوز العمل به ولكن يجب الإيمان به، وأنّ هذه الآيات المتشابهة في القرآن والوحي المنزل على قلب النّبي الأعظم صلى الله عليه وآله، وهذا ليس تعريفاً للمتشابه وإنّما هو نتيجة المتشابه هذه.

فإذاً ليس شيء من هذه الأقوال يصلح تعريفاً للمتشابه، والسّيّد العلّامة الطّباطبائي قدس سره أفاد أنّ معنى المتشابه – بعد أن تعرّض للأقوال في المتشابه وأنهاها إلى ستّة عشر قولاً في بيان معنى المتشابه –قال: "**وأنّ الّذي تعطيه الآية في معنى المتشابه؛ أن تكون الآية مع حفظ كونها آية دالّة على معنى مريب مردّد، لا من جهة اللفظ بحيث تعالجه الطّرق المألوفة عند أهل اللسان، كإرجاع العامّ والمطلق**

إلى المخصّص والمقيّد ونحو ذلك، بل من جهة كون معناها غير ملائم لمعنى آية أخرى محكمة لا ريب فيه تبيّن حال المتشابهة"[١].

وهذا التّعريف جيّد جدّاً وهو أصحّ هذه التّعاريف؛ وذلك لأنّ المعنى قد يكون واضحاً بحسب دلالة الألفاظ، وأنّ المعنى يتحصّل من الألفاظ، ولكن هذا المعنى مع وضوح دلالة اللفظ عليه إلّا أنّ المعنى فيه ريب.

وتوضيح رأي العلّامة الطّباطبائيقدس سره أنّ بعضهم اعتبر أنّ المتشابه هو ما كانت دلالة لفظه على المعنى غير واضحة، أو تردّد اللفظ بين عدّة معاني واحتمالات، والمحكم هو ما كانت دلالة الألفاظ على معانيها واضحة والمعنى المقصود واضحاً، مثل:﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ**﴾(البقرة: ٤٣)، فإنّ دلالة اللفظ على المعنى وهو طلب فعل الصّلاة واضح ولا إجمال أو تردّد فيه، فتكون هذه الآية من المحكم، أمّا مثل الحروف المقطّعة حيث إنّ دلالتها على المعنى غير واضح، وتردّد هذه الحروف بين عدّة معانٍ فتكون هذه من المتشابه.

ولكن السّيّد العلّامة الطّباطبائيقدس سره أفاد أنّ المتشابه من الآيات هو ما كان من اللفظ فيه ريب، من جهة عدم انسجام هذا المعنى الظّاهر مع الآيات القرآنيّة الأخرى، ولنضرب لذلك مثالين:

* **المثال الأوّل**: فقد جاء في القرآن قوله تعالى:﴿**لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**﴾(الأنعام: ١٠٣)، فهذه الآية تقرّ بأنّ الذّات المقدّسة لا يمكن أن يقع عليها البصر، لا من جهة مانع يمنع من الرّؤية بل ذاته لا يقع عليها

(١) تفسير الميزان، الطباطبائي، ج٣، ص٤١.

البصر ويمتنع رؤيته لذاته، وذلك لأنّه ليس بماديّ حتّى يرى، فهي تدلّ على تجرّده عن المادّة ولوازم المادّة فلذلك لا يكون قابلاً للرّؤية.

وهناك آيات دلّت بحسب ألفاظها على كون ذاته جلّ جلاله قابلة للرّؤية، كقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(القيامة: ٢٢ -٢٣)، ممّا يدلّ بظاهره على قابليّة الذّات المقدّسة للرّؤية.

أو قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾(طه: ٥)، ممّا يدلّ بظاهره على أنّه جسم وله استواء كاستواء الأجسام، وهذه الآية بحسب اللفظ واضحة الدّلالة لا غموض فيها من حيث الألفاظ، ولكنّها متشابهة؛ وذلك لأنّها لا تنسجم مع الآيات الدّالة على نفي الجسمانيّة عن ذاته جلّ جلاله.

فإذاً المتشابه ليس ما كانت ألفاظه غير واضحة، بل ما كان غير منسجم مع كونه آية في القرآن مع الآيات الأخرى.

* **المثال الثّاني**: أثنى ذات الحقّ جلّ جلاله على نبيّه صلّى الله عليه وآله بعظيم الثناء فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(القلم: ٤)، وترجمة هذه الآية: أنّه ليس في سلوكك وأفعالك يا رسول الله محلٌ ومورِدٌ للعتاب؛ فإنّك يا رسول الله على خلق عظيم.

وجاء في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ عتابٌ، فلو كان المقصود بالمخاطب هو شخص النّبي صلّى الله عليه وآله لم ينسجم ذلك مع توصيفه بأنّه على خلق عظيم، وأنّه ليس في أفعاله وسلوكه مورداً ومحلاً للعتاب، فتعتبر هذه الآية لو كان المقصود منها شخص النّبي صلّى الله عليه وآله متشابهة؛ لعدم انسجامها مع قوله تعالى وتوصيفه للنّبي صلّى الله عليه وآله بـ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾.

فالنّتيجة: أنّ المتشابه ليس هو ما لم يتّضح المقصود منه بحسب الألفاظ كأوائل السّور، بل المقصود منه مع كونه آية قرآنيّة لا ينسجم مع الآيات القرآنيّة الأخرى.

النّقطة الثانية: ما معنىٰ أموميّة المحكمات من آيات الكتاب؟

وهنا للعلماء ثلاثة أقوال:

* **القول الأوّل**: الأمومة بمعنى كون الآيات المحكمات أصلاً في الكتاب، وعليه تبتني قواعد الدّين وأركانه فيؤمن بها ويعمل بها، وليس الدّين إلّا مجموعاً من الاعتقاد والعمل، وأمّا الآيات المتشابهة فهي لِتزلزل مرادها وتشابه مدلولها، لا يعمل بها بل إنّما يؤمن بها إيماناً.

وملخّص هذا القول أنّ المتشابه يؤمَن به على أنّه من القرآن الكريم، ولكن لا يُعمل به، ولا يُؤسّس عليه معارف ولا أحكام، ولا يستنبط منه شيء.

* **القول الثّاني**: أنّ معنى أمومة المحكمات رجوع المتشابهات إليها، وقال سيّدنا العلّامة الطبطبائي قدس سره: "**وكلامهم مختلف في تفسير هذا الرّجوع، فظاهر بعضهم أنّ المراد بالرّجوع هو قصر المتشابهات على الإيمان، والاتّباع العمليّ في مواردها للمحكم، كالآية المنسوخة يؤمن بها ويرجع في موردها إلى العمل بالنّاسخة**"[1].

وسيّدنا العلّامة الطّباطبائي قدس سره أرجع هذا القول إلى القول الأوّل، وأنّه لا مغايرة كثيرة بين القولين، والنّتيجة بينهما واحدة، ومقصوده -أعلى الله مقامه

(١) تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي، ج٣، ص٤٣.

ورفع في الجنان أعلامه- أنّ النّتيجة من القولين هو أنّ المتشابه لا يمكن لنا أن نستفيد منه لا علماً ولا عملاً، أمّا عملاً فواضح حيث إنّه لا يجوز أن يعمل به، أو يؤخذ منه حكم، أو يؤسّس عليه معرفة، أو يستنبط منه شيء، وأمّا علماً فلماذا لا يمكن ألا يستفاد منه؟ وهل إجماله يعني تعطّل دلالته أصلاً؟

ومن هنا رجّح السّيّد العلّامة قدس سره الرّأي الثّالث وهو:

* **القول الثّالث**: أنّ معنى الأمومة -أي أمومة الآيات المحكمات- كون المحكمات مبيّنة للمتشابهات دافعة لتشابهها.

ثمّ يوضّح العلّامة قدس سره رأيه هذا بأنّ الأمومة تستبطن معاني، فهي قد تعني أصل التّنشئة، وقد تعني اشتقاق شيء من شيء، وقد تعني التبعّض أي كون الشيء بعضاً من شيء آخر، فيكون هذا الشيء الآخر هو الأمّ.

فالآيات المحكمات تنشأ من دلالتها المتشابهاتُ أو تشتق دلالتُها من المتشابهات، أو تكون المحكمات تتبعّض منها معرفة المتشابه.

فإذاً الأمومة للمحكمات على المتشابهات معناه أنّ للمتشابهات مداليل ترجع وتتفرّع على المحكمات، ولازمه كون المحكمات مبيّنة للمتشابهات.

والخلاصة: لا يعني كون الآية متشابهة تعطيل دلالتها، بل هي بعد إرجاع دلالتها للمحكم تتّضح دلالتها ويتّضح مفهومها، فمثلاً الآيات الّتي يظهر منها التّجسيم بعد إرجاعها إلى المحكم يكون لها معنى آخر، فيكون المراد من الاستواء في قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ (طه: ٥) هو الإحاطة التّامّة، كما في قول الشّاعر:

قد استوى بشر على العراق ... من غير سيف ودم مهراق

ومعنى اليد [في قوله تعالى: ﴿يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾] القوّة، ومعنى الوجه [في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ مثلاً] هو الرّحمة.

[مطلبٌ لطيف]

وهنا مطلب لطيف أشير إليه، قال قدس سره: "فللمتشابه مفسّر وليس إلّا المحكم، مثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(القيامة: ٢٣) فإنّها آية متشابهة، وبإرجاعها إلى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(الشّورى: ١١) وقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾(الأنعام: ١٠٣) يتبيّن: أنّ المراد بها نظرة ورؤية من غير سنخ رؤية البصر الحسّيّ، وقد قال تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۞ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾(النّجم: ١١ -١٢) إلى أن قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾(النّجم: ١٨) فأثبت للقلب رؤية تخصّه وليس هو الفكر؛ فإنّ الفكر إنّما يتعلّق بالتّصديق، والمركّب الذّهنيّ والرّؤية إنّما تتعلّق بالمفرد العينيّ، فيتبيّن بذلك أنّه توجّه من القلب، وليس المراد بالرّؤية هي الحسّيّة المادّيّة، ولا العقليّة الذّهنيّة، والأمر على هذه الوتيرة في سائر المتشابهات"[1].

النّقطة الثالثة: موقف أهل البيت عليهم السلام من المتشابه

للتعرّف على موقف أهل بيت العصمة والطّهارة عليهم السلام من المتشابه نرجع إلى الرّوايات الصّادرة عنهم، وذلك لأنّهم عليهم السلام حملة أسرار الكتاب، والعارفون به ناسخه من منسوخه، محكمه من متشابهه، العالمون بتأويله.

وقد جاء عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قوله: «... والله ما نزلت آية

(١) تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي، ج٣، ص٤٣ – ٤٤.

في كتاب الله في ليل أو نهار، إلّا وقد علمت في من أنزلت، ولا أحد ممّن مرّ على رأسه المواسي من قريش إلّا وقد نزلت فيه آية من كتاب الله، تسوقه إلى الجنّة أو إلى النّار...»[١]، وفي الكافي الشّريف: «**... إنّما يعرف القرآن من خوطب به**»[٢]، وقول الصّادق عليه السلام لأبي حنيفة بعدما سأله: «**.... يا أبا حنيفة تعرف كتاب الله حق معرفته؟ وتعرف النّاسخ والمنسوخ؟، قال: نعم، قال عليه السلام: يا أبا حنيفة لقد ادّعيت علماً، ويلك ما جعل الله ذلك إلّا عند أهل الكتاب الّذين أنزل عليهم، ويلك ولا هو إلّا عند الخاصّ من ذرّيّة نبيّنا صلى الله عليه وآله ما ورّثك الله من كتابه حرفاً ...**»[٣].

فمن الضّروريّ الرّجوع في المعارف القرآنيّة إلى أهل البيت عليهم السلام حتّى تكون لتلك المعرفة صورة متكاملة وصحيحة، لأنّهم العدل والمفسّر للقرآن، فمِن دون الرّجوع لهم تكون المعرفة المستنبطة ناقصة، وصورتها غير متكاملة.

وعند الرّجوع إلى روايات أهل البيت عليهم السلام في قضية المتشابه نجد الموقف المتشدّد من قبلهم عليهم السلام على الآخذ بالمتشابه، فروى الكلينيّ والعيّاشيّ عن الصّادق عليه السلام قال: قال أبي عليه السلام: «**ما ضرب رجل القرآن بعضه ببعض إلّا كفر**»[٤]، وقد صرّح بعض العلماء بأنّ المراد من ضرب القرآن بعضه ببعض تأويل بعض متشابهاته إلى بعض، بمقتضى الرّأي والهوى من دون السّماع من أهله ونور الهدى

---

(١) بصائر الدّرجات، الصفّار، ص٩، باب قول أمير المؤمنين عليه السلام بإحكامه بما في التّوراة والإنجيل والزّبور والفرقان.

(٢) الكافيّ، الكليني، ج٨، ص٣١٢.

(٣) علل الشّرائع، الصدوق، ج١، ص٩٠، ح٥، باب ٨١.

(٤) الكافيّ، الكليني، ج٢، ص٦٣٢، ح١٧، باب النّوادر. وتفسير العيّاشيّ، ج١، ص١٨، ح٢، باب كراهية الجدال في القرآن.

من الله، وهو صحيح لأنّ المراد من الضّرب هو إيجاد حالة من التّناقض في القرآن من خلال التّمسّك بالمتشابه من دون ردّه إلى المحكم، والأخذ بالمتشابه هو إيجاد صورة للتّناقض والتّعارض في القرآن.

وروى النّعمانيّ في تفسيره بإسناده عن إسماعيل، قال: «**سمعت أبا عبد الله جعفر بن محمّد الصّادق**عليه السلام **يقول:إنّ الله تبارك وتعالى بعث محمّداً**صلى الله عليه وآله **فختم به الأنبياء فلا نبيّ بعده، وأنزل عليه كتاباً فختم به الكتب، فلا كتاب بعده أحلّ فيه حلالاً وحرّم حراماً، فحلاله حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة، فيه شرعكم وخبر من قبلكم وبعدكم، وجعله النّبي**صلى الله عليه وآله **علماً باقياً في أوصيائه، فتركهم النّاس وهم الشّهداء على أهل كلّ زمان وعدلوا عنهم ثمّ قتلوهم، واتّبعوا غيرهم ثمّ أخلصوا لهم الطّاعة حتّى عاندوا من أظهر ولاية ولاة الأمر وطلب علومهم، قال الله سبحانه: ﴿وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ وذلك أنّهم ضربوا بعض القرآن ببعض، واحتجّوا بالمنسوخ وهم يظنّون أنّه النّاسخ، واحتجّوا بالمتشابه وهم يرون أنّه المحكم، واحتجوا بالخاصّ وهم يقدّرون أنّه العامّ، واحتجّوا بأوّل الآية وتركوا السّبب في تأويلها، ولم ينظروا إلى ما يفتح الكلام وإلى ما يختمه، ولم يعرفوا موارده ومصادره؛ إذ لم يأخذوه عن أهله فضلّوا وأضلّوا.**

واعلموا رحمكم الله أنّه من لم يعرف من كتاب اللهعزّ وجلّ **النّاسخ من المنسوخ، والخاصّ من العامّ، والمحكم من المتشابه، والرّخَص من العزائم، والمكّيّ والمدنيّ، وأسباب التّنزيل، والمبهم من القرآن في ألفاظه المنقطعة والمؤلّفة، وما فيه من علم القضاء والقدر، والتّقديم والتّأخير، والمبيّن والعميق، والظّاهر والباطن، والابتداء والانتهاء، والسّؤال والجواب، والقطع والوصل، والمستثنى منه والجارّ فيه والصّفة لما قبل ممّا يدلّ**

على ما بعد، والمؤكّد منه والمفصّل، وعزائمه ورخصه، ومواضع فرائضه وأحكامه، ومعنى حلاله وحرامه الّذي هلك فيه الملحدون، والموصول من الألفاظ والمحمول على ما قبله وعلى ما بعده، فليس بعالِم بالقرآن ولا هو من أهله، ومتى ما ادّعى معرفة هذه الأقسام مدّع بغير دليل فهو كاذب مرتاب، مفتر على الله الكذب ورسوله، ومأواه جهنّم وبئس المصير»[1].

النّقطة الرّابعة: النّتائج والآثار المترتّبة على الأخذ بالمتشابه

الآية الكريمة بيّنت موقف طائفتين من النّاس حول المتشابه:

موقف الرّاسخين في العلم: فهم يؤمنون به ويقولون هو من عند الله.

موقف من في قلوبهم زيغ: فهم يعملون بالمتشابه لسببين:

* **الأوّل**: فتنة المؤمنين وإيجاد حالة الاختلاف بينهم.

* **الثّاني**: أخذهم دوراً ليس لهم وهو تأويله.

والآية المباركة تشير إلى نتائج خطيرة مترتّبة على العمل بالمتشابه، وأنّ من يعمل به ينطلق من دوافع سيّئة وليست دوافع بريئة وسليمة.

ولا شكّ أن الأخذ بالمتشابه، والإصرار على تأسيس معرفة قرآنيّة عليه ينشأ منه مفاسد كثيرة، وتترتّب عليه أزمات وينتج عنه تعقيد لواقع الأمّة، ممّا يؤدّي إلى تشتّتها وتفرقها، واختلافها في كتاب ربّها، ووصول الأمر إلى حالة التّحزّب، قال تعالى: ﴿**كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ**﴾(الرّوم: ٣٢).

---

(١) تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي، ج٣، ص٨١ – ٨٢.

* النّتيجة الأولى: الاختلاف الفكريّ والعقديّ

من الواضح لمن يتتبّع ظهور الاتّجاهات الفكريّة العقديّة، يجد أنّها في مقولاتها ومبانيها الفكريّة تتمسّك بالآيات القرآنيّة، وترجع إلى القرآن في الاستدلال على صحّة عقيدتها وفكرها، فالقائل بالتّجسيم يجد في ما ظاهره ذلك مبتغاه وحجّته، والقائل بالتّفويض يجد في بعض آيات القرآن متمسّكه، ومن ينقص الأنبياء عن مقامهم يرى بعض الآيات ما يثبت زعمه، وهكذا كلّ الفرق الّتي انحرفت عن جادّة الحقّ ونور الهدى، أخذت بآية متشابهة وبنت عليها وأسّست عليها أصول مذهبها، ممّا نتج عن ذلك تعدّد الفرق وتنوّع المذاهب مع كون الدّين واحداً والرّبّ واحداً والرّسول واحداً، وما هذا الاختلاف جاء من الدّين، وإنّما الاختلاف في أمر الدّين الّذي نهى عنه القرآن الكريم ﴿**وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾(الأنعام: ١٥٣)، وفي الأخذ بالمتشابه من دون ردّه إلى المحكم بمقتضى أمومته على المتشابهات ينشأ منه الاختلاف والتّمزّق، ففي عيون الأخبار عن الرّضا عليه السلام أنّه قال: «**من ردّ متشابه القرآن إلى محكمة هدي إلى صراط مستقيم، ثم قال: إنّ في أخبارنا متشابهاً كمتشابه القرآن ومحكماً كمحكم القرآن، فردّوا متشابهها إلى محكمها، ولا تتّبعوا متشابهها دون محكمها فتضلّوا**»[1].

وهنا كلام جميل لسيّدنا العلّامة الطّباطبائي قدس سره قال: "**أنت إذا تتبعت البدع والأهواء والمذاهب الفاسدة، الّتي انحرفـ[ت] فيها الفرق الإسلاميّة عن الحقّ القويم، بعد زمن النّبي صلى الله عليه وآله سواء كان في المعارف أو في الأحكام، وجدت أكثر مواردها من اتّباع المتشابه والتّأويل في الآيات بما لا يرتضيه الله سبحانه، ففرقة**

(١) عيون أخبار الرّضا عليه السلام، الصدوق، ج١، ٢٦١.

تتمسّك من القرآن بآيات للتّجسيم، وأخرى للجبر، وأخرى للتّفويض، وأخرى لعثرة الأنبياء، وأخرى للتّنزيه المحض بنفي الصّفات، وأخرى للتّشبيه الخالص وزيادة الصّفات، إلى غير ذلك، كلّ ذلك للأخذ بالمتشابه من غير إرجاعه إلى المحكم الحاكم فيه"[1]. فهذا هو أحد معان الفتنة.

*** النّتيجة الثّانية: الغواية والضّلال**

أحد عوامل النّهي عن اتّباع المتشابه هو الإيقاع في الضّلال والزّيغ، وهو الميل عن الاستقامة، ولا شكّ في ترتّب هذه النّتيجة إذا أخذ بالمتشابه، فتنتهي به إلى الاعتقاد بالتّجسيم والجبر والتّفويض والقول بمعصية الأنبياء عليهم السلام وعثرتهم.

*** النّتيجة الثّالثة: تضييع أحكام الشريعة**

وهي أنّ في عملية الأخذ والعمل بالمتشابه، من دون إرجاعه إلى محكمات الكتاب تمييع وتضييع لأحكام شريعة الدّين، وتُكوِّن فهماً خاطئاً للكثير من تفاصيل الشّريعة، فهناك من يحاول أن يفهم الدّين من خلال مرحلة من الزّمن، ونقصد بذلك أنّ بعضاً يحاول أن يفهم الدّين أنّه قد جاء لمرحلة من حياة الإنسان، وهو إنسان ماؤه الشّرب، ووسيلته الحمار، وسلاحه السّيف والرمح، وليس إنسان المكيف والثّلاجة، وإنسان الطّائرة، والمركبة الفضائيّة، والصّاروخ وغيرها، فإنّما جاءت الشّريعة لذلك الإنسان، وليس للإنسان الّذي وصل إلى المستوى المتقدّم من العمران والتّمدّن والحياة المتقدّمة ماديّاً.

يقول سيدنا العلّامة الطّباطبائي قدس سره: "**وطائفة ذكرت: أنّ الأحكام الدّينيّة إنّما**

(١) تفسير الميزان، العلامة الطباطبائي، ج٣، ص٤١.

شرّعت لتكون طريقاً إلى الوصول، فلو كان هناك طريق أقرب منها كان سلوكه متعيّناً لمن ركبه؛ فإنّما المطلوب هو الوصول بأيّ طريق اتّفق وتيسّر، وأخرى قالت: إنّ التكليف إنّما هو لبلوغ الكمال، ولا معنى لبقائه بعد الكمال بتحقّق الوصول فلا تكليف لكامل، وقد كانت الأحكام والفرائض والحدود وسائر السّياسات الإسلاميّة قائمة، ومقامة في عهد رسول الله ﷺ لا يشذّ منها شاذّ، ثمّ لم تزل بعد ارتحاله ﷺ تنقص وتسقط حكماً فحكماً يوماً فيوماً بيد الحكومات الإسلاميّة، ولم يبطل حكم أو حدٌّ إلّا واعتذر المبطلون أنّ الدّين إنّما شرّع لصلاح الدّنيا وإصلاح النّاس، وما أحدثوه أصلح لحال النّاس اليوم، حتّى آل الأمر إلى ما يقال إنّ الغرض الوحيد من شرائع الدّين إصلاح الدّنيا بإجرائها، والدّنيا اليوم لا تقبل السّياسة الدّينيّة ولا تهضمها، بل تستدعي وضع قوانين ترتضيها مدنيّة اليوم وإجراءها، وإلى ما يقال إنّ التّلبّس بالأعمال الدّينيّة لتطهير القلوب وهدايتها إلى الفكرة والإرادة الصالحتين، والقلوب المتدرّبة بالتّربية الاجتماعيّة، والنّفوس الموقوفة على خدمة الخلق، في غنى عن التّطهّر بأمثال الوضوء والغسل والصّلاة والصّوم، إذا تأمّلت في هذه وأمثالها وهي لا تحصى كثرة وتدبّرت في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ الآية لم تشكّ في صحّة ما ذكرناه، وقضيت بأنّ هذه الفتن والمحن الّتي غادرت الإسلام والمسلمين، لم تستقر قرارها إلّا من طريق اتّباع المتشابه وابتغاء تأويل القرآن، وهذا والله أعلم هو السّبب في تشديد القرآن الكريم في هذا الباب، وإصراره البالغ على النّهي عن اتّباع المتشابه، وابتغاء الفتنة والتّأويل والإلحاد في آيات الله، والقول فيها بغير علم واتّباع خطوات الشّيطان، فإنّ من دأب القرآن أنّه يبالغ في التشديد، في موارد سينثلم

من جهتها ركن من أركان الدّين فتنهدم به بنيته، كالتّشديد الواقع في تولّي الكفّار، ومودّة ذوي القربى، وقرار أزواج النّبيﷺ، ومعاملة الرّبا، واتّحاد الكلمة في الدّين، وغير ذلك"[1].

النّقطة الخامسة: لماذا وقع المتشابه في القرآن؟ ولماذا لم تكن كلّ آياته محكمات؟

قال الفخر الرّازي: "اعلم أنّ من الملحدة من طعن في القرآن لأجل اشتماله على المتشابهات، وقال: إنّكم تقولون إنّ تكاليف الخلق مرتبطة بهذا القرآن إلى قيام السّاعة، ثمّ إنّا نراه بحيث يتمسّك به كلّ صاحب مذهب على مذهبه، فالجبريّ يتمسّك بآيات الجبر كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾(الأنعام: ١٠٣)، والقدريّ يقول: بل هذا مذهب الكفّار؛ بدليل أنّه تعالى حكى ذلك عن الكفار في معرض الذّمّ لهم في قوله: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ﴾(الأنعام: ٢٥)، وفي موضع آخر: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾(الإسراء: ٤٦)، وأيضاً مثبّت الرّؤية يتمسّك بقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(القيامة: ٢٢-٢٣)، والنّافي يتمسّك بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾(الأنعام: ١٠٣)، ومثبّت الجهة يتمسّك بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾(النّحل: ٥٠) وبقوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾(طه: ٥)، والنّافي يتمسّك بقوله:﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(الشّورى: ١١)، ثمّ إنّ كلّ واحد يسمّي الآيات الموافقة لمذهبه: محكمة، والآيات المخالفة لمذهبه: متشابهة، وربّما آل الأمر في ترجيح بعضها على بعض إلى ترجيحات خفيّة ووجوه ضعيفة، فكيف يليق بالحكيم أن يجعل الكتاب الّذي هو المرجوع إليه في كلّ الدّين إلى قيام السّاعة هكذا، أليس أنّه لو جعله ظاهراً

(١) تفسير الميزان، العلّامة الطّباطبائيّ، ج٣، ص٤١-٤٢.

جليّاً نقيّاً عن هذه المتشابهات كان أقرب إلى حصول الغرض"[١].

ومن هنا ذكرت عدّة أجوبة:

* **الجواب الأوّل**: ما ذكره ابن رشد الأندلسيّ – الفيلسوف الكبير –، حيث صنّف النّاس إلى ثلاثة أصناف:

ـ صنف العلماء، وعنى بهم من في طبقته من أرباب الحكمة العالية.

ـ وصنف الجمهور، وهم عامّة النّاس ممّن لم يحظوا بحلى العلم شيئاً.

ـ وصنف لا هم في مستوى العلماء ولا مع العامّة، وعنى بهم أرباب المذاهب الكلاميّة من الأشاعرة وأصحاب الاعتزال.

قال في كتابه الكشف عن مناهج الأدلّة -بتصرّف منّا وتوضيح -: "**وهذا الصنف الأخير، هم الّذين يوجد في حقّهم التّشابه في الشّرع، وهم الّذين ذمّهم الله تعالى، وأمّا عند العلماء فليس في الشّرع تشابه، لأنّهم يعرفون من كلّ آية وجه تخريجها الصّحيح الّذي قصده الشّرع، وأمّا الجمهور لا يشعرون بالشّكوك العارضة، بعد أن كانوا أخذوا بالظّواهر واستراحوا إليها من غير ترديد**".

وخلاصة رأي ابن رشد: أنّ التّشابه ليس موجوداً في القرآن، وإنّما التّشابه حصل نتيجة تعامل شريحة من النّاس، وهم أرباب المذاهب الكلاميّة مع آيات القرآن الكريم فوقع التّشابه، ولكنّ هذا الرّأي يدفعه ظاهر القرآن الكريم حيث عبّر عن ذلك بقوله تعالى:﴿**مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ**

(١) التفسير الكبير، الرّازي، ج٧، ص١٨٣ – ١٨٤.

مُتَشَابِهَاتٌ﴾(آل عمران: ٧)، فظاهر الآية أنّ القرآن في نفسه توجد متشابهات لا نتيجة تعامل فئة من النّاس ولّد المتشابه.

* **الجواب الثّاني**: أنّها نوع من الامتحان للإنسان فهو كما يمتحن بالتّكاليف ليميّز المطيع من العاصيّ، والامتحان بالبلاء والمصائب ليميّز الصّابر من الجازع، كذلك وجد المتشابه كحالة امتحان للإنسان؛ ليميّز من يلتزم ما أمره الله به، من الرّجوع في المتشابه إلى المحكم، بعد ردّ ذلك إلى العلماء ليعرفوا ويردّوا متشابهات القرآن إلى محكماته، أو يُشغلوا من قبل أنفسهم بالعمل بالمتشابهات من أجل الفتنة والاختلاف.

* **الجواب الثّالث**: **وتوضيحه يحتاج إلى مقدّمة**: إنّ البشريّة لا يمكن أن يصلح شأنها إلّا بالمعصوم، ولا تستقيم شؤونها إلّا من خلال حجّة لله في الأرض وهو المعصوم، فيتّبعونه ويقتدون به ويمتثلون أوامره، ويأخذون منه معالم دينهم وأحكامه ومعارفه، ومن دونه يقعون في نتائج خطيرة، تخرجهم من الهدى والاستقامة إلى الضّلال والانحراف، ووجود هذا الإمام المعصوم مع القرآن هو سبيل سعادة الإنسان في الدّارين.

ومن أجل تأكيد الحاجة إلى الإمام المعصوم، وضرورة ارتباط النّاس به اقتضت الحكمة الإلهيّة إيجاد أكثر من مبرّر لربط الإنسان بهذه الحقيقة، ومن هذه الحقائق احتياج النّاس إلى الإمام في تفسير القرآن الكريم من حيث بيان العامّ والخاصّ، والمطلق والمقيّد، والنّاسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه، فلذا وجدت هذه الأمور في القرآن واشتمل عليها؛ لكي يدركوا ضرورة حاجتهم لوجود الإمام المعصوم عليه السلام، فيرتبطوا به ويسلّموا له، ويأخذون أحكامهم ومعالم دينهم

منه، ويطيعونه في ما يأمرهم وينهاهم وبذلك يسعدون في الدّنيا والآخرة.

وإلىٰ هذا المعنى أشارت جملة من الرّوايات وهي علىٰ أقسام ومجموعات:

* **القسم الأوّل**: ما دلّ على أنّ فهم القرآن مختصّ بأهل البيت عليهم السلام، ولا يدّعي أحدٌ علم القرآن إلّا كاذب وهي بألسنة متعدّدة، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «... **ومن فسّر القرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب**»[1]، وعن الإمام الصّادق عليه السلام: «... **وإنّما هلك النّاس في المتشابه لأنّهم لم يقفوا على معناه، ولم يعرفوا حقيقته، فوضعوا له تأويلاً من عند أنفسهم بآرائهم، واستغنوا بذلك عن مسألة الأوصياء، ونبذوا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وراء ظهورهم**»[2].

* **القسم الثّاني**: الرّوايات الدّالة على معرفة العامّ والخاصّ والمجمل والمبيّن والمحكم والمتشابه والمطلق والمقيّد، وهذا ما يظهر من احتجاج الإمام الصّادق عليه السلام مع أبي حنيفة:.. قال عليه السلام: «**يا أبا حنيفة تعرف كتاب الله حق معرفته؟وتعرف النّاسخ والمنسوخ؟، قال: نعم، قال عليه السلام: يا أبا حنيفة لقد ادّعيت علماً ويلك ما جعل الله ذلك إلّا عند أهل الكتاب الّذين أنزل عليهم، ويلك ولا هو إلّا عند الخاصّ من ذرّيّة نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله، وما ورّثك الله من كتابه حرفاً...**»[3].

وفي حديث احتجاج الإمام الصّادق عليه السلام على الصّوفيّة لما احتجّوا عليه بآيات من القرآن في الإيثار والزّهد، قال عليه السلام: «**ألكم علم بناسخ القرآن ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه، الّذي في مثله ضلّ من ضلّ وهلك من هلك من هذه الأمّة؟**، فقالوا: أو

---

(١) وسائل الشّيعة، باب ١٣ من أبواب صفات القاضيّ وما يقضي به، ح٣٧.

(٢) نفس المصدر، ح٦٢.

(٣) نفس المصدر، باب ٦ من أبواب صفات القاضيّ وما يقضي به، ح٢٧.

بعضه فأمّا كلّه فلا، فقال عليه السلام لهم: **فمن ههنا أتيتم، وكذلك أحاديث رسول الله صلى الله عليه وآله، إلى أن قال: فبئس ما ذهبتم إليه وحملتم النّاس عليه من الجهل بكتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله وأحاديثه الّتي يصدقّها الكتاب المنزل، وردّكم إياها لجهالتكم، وترككم النّظر في غريب القرآن، من التّفسير والنّاسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه والأمر والنّهي، إلى أن قال عليه السلام: دعوا عنكم ما اشتبه عليكم ممّا لا علم لكم به، وردّوا العلم إلى أهله تؤجروا وتُعذروا عند الله، وكونوا في طلب ناسخ القرآن من منسوخه، ومحكمه من متشابه، وما أحلّ الله فيه ممّا حرّم، فإنّه أقرب لكم من الله، وأبعد لكم من الجهل، دعوا الجهالة لأهلها، فإنّ أهل الجهل كثير، وأهل العلم قليل، وقد قال الله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾»**[1].

ومن ذلك كلّه يتّضح أنّ جعل القرآن بأسلوب خاص، يحتاج في جملة من مراداته إلى الإنسان المعصوم، وغيره لا يمكن أن يكون فهمه حجّة، ممّا يدلّ على أنّ الحكمة في ذلك ربط النّاس بالمعصوم، وعدم استغنائهم عنه في معرفة أحكام القرآن، كما يتّضح أنّ النّاس لا تستقيم أمورهم إلّا بوجود الإنسان المعصوم، وإلى ذلك يشير الحديث المرويّ عن أمير المؤمنين عليه السلام: «... **وقد جعل الله للعلم أهلاً وفرض على العباد طاعتهم بقوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾**(النّساء: ٥٩)، وبقوله: **﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾**(النّساء: ٨٣)، وبقوله: **﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾**(التّوبة: ١١٩) وبقوله: **﴿مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾**(آل عمران: ٧)، وبقوله: **﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾**(البقرة: ١٨٩)، **والبيوت هي بيوت العلم الّتي**

(١) وسائل الشّيعة، باب ١٣ من أبواب صفات القاضيّ وما يقضي به، ح٢٣.

استودعها الأنبياء عليهم السلام، وأبوابها أوصياؤهم، فكلّ عمل من أعمال الخير يجري على غير أيدي الأوصياء، وعهودهم وحدودهم وشرائعهم وسننهم، ومعالم دينهم مردود غير مقبول، وأهله بمحلّ كفر وإن شملهم صفة الإيمان، ثمّ إنّ الله قسّم كلامه ثلاثة أقسام: فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل، وقسماً لا يعرفه إلّا من صفا ذهنه، ولطف حسّه وصحّ تمييزه، ممّن شرح الله صدره للإسلام، وقسماً لا يعلمه إلّا الله وملائكته والرّاسخون في العلم، وإنّما فعل ذلك لئلّا يدّعي أهل الباطل المستولين على ميراث رسول الله صلى الله عليه وآله من علم الكتاب ما لم يجعله الله لهم، وليقودهم الاضطرار إلى الائتمام بمن ولّى أمرهم فاستكبروا عن طاعته»[1].

(١) وسائل الشيعة، باب ١٣ من أبواب صفات القاضي وما يقضي به، ح٤٤.

الله
لا إله إلا هو الحي القيوم

دية اللّطمة

الشيخ عليّ فاضل الصدديّ

الملخّص:

تقع هذه المقالة في (تسع) مسائل أوردها الكاتب حول أحكام (دية اللّطمة)، من قبيل: ما لو كانت اللَّطمة في الوجه، وافتراقها عمّا لو كانت في البدن، وافتراق الدية بين الاحمرار والاخضرار والاسوداد، وهل أنّ تغيّر لون نفس العين يساوي نفس دية التغيّر في الوجه أم لا؟، وهل يوجد فرق بين بقاء الأثر مدّة أم زواله بسرعة؟ وهل يوجد فرق بين كون اللَّطمة باليد مفتوحة أم مضمومة أو بغيرها؟، وهل يوجد فرق في ثبوت الدية بين كون اللَّطمة الواقعة قد كانت لغرض عقلائي كالتأديب أو لغرض شرعي كالنهي عن المنكر؟، وهل تترتّب الدية على التغيّر التقديري فيما لو كانت اللَّطمة على ذي البشرة السوداء؟ وعند كلّ حكم يقف الكاتب مع ذكر الأدلة التي يمكن أن يستدلّ بها، ومناقشة ما يراه في المقام.

مدخل:

روى الشيخ الكلينيّ رحمه الله في الكافي بسند صحيح عن أبي بصير قال: دخلت على أبي عبدالله عليه السلام فقلت له: جعلت فداك، إنّي أسألك عن مسألة، ههنا أحد يسمع كلامي؟ قال: فرفع أبو عبدالله عليه السلام ستراً بينه وبين بيت آخر فأطّلع فيه، ثمّ قال: «**يا أبا محمّد سل عما بدا لك**»، قال: قلت: جعلت فداك، إنّ شيعتك يتحدّثون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله علّم عليّاً عليه السلام باباً يُفتح له منه ألف باب؟ قال: فقال: «**يا أبا محمّد علّم رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً عليه السلام ألف باب يُفتح من كلّ بابٍ ألف باب**»، قال: قلت: هذا والله العلم، قال: فنكت ساعةً في الأرض ثمّ قال: «**إنّه لعلمٌ، وما هو بذاك**»، قال: ثمّ قال: «**يا أبا محمّد، وإنّ عندنا الجامعة، وما يدريهم ما الجامعة؟**» قال: قلت: جعلت فداك، وما الجامعة؟ قال: «**صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله صلى الله عليه وآله وإملائه من فلق فيه وخطّ عليّ بيمينه، فيها كلّ حلال و حرام وكلّ شيء يحتاج إليه الناس حتى الأرش في الخدش**»، وضرب بيده إليّ فقال: «**أتأذن يا أبا محمد؟**» قلت: جعلت فداك، إنّما أنا لك فاصنع ما شئت، فغمزني بيد هو قال: «**حتى أرش هذا**»[1].

والروايات في توفّر أهل البيت عليهم السلام وتوفّر الإسلام عن طريقهم على حكم الصغير كأرش الخدش[2]- كما الكبير- قد بلغت حدّاً يقطع معه بصدور هذا المضمون عنهم عليهم السلام، وفي بعض تلكم الروايات أنّهم عليهم السلام يحيطون حتى بما سوى ذلك ودونه بالجلدة ونصفها وثلثها وربعها[3].

---

(١) الكافي، الكليني، ج١، ص٢٣٨.

(٢) ويكفينا ما في بصائر الدرجات: ١٦٢- ١٨٦؛ فإنّ فيها ما يزيد على ٣٠ رواية.

(٣) المحاسن١: ٢٧٣ ح٣٧٣، بصائر الدرجات: ١٧٠، ب١٤ ح١، الكافي١: ٢٤٠، باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام ح٣، عيون أخبار الرضا عليه السلام٢: ١٩٢، ب١٩، ح١.

وبعد هذا، فالكلام في دية اللَّطمة يقع في مسائل:

(المسألة ١): في احمرار الوجه باللّطمة دينار ونصف، وفي اخضراره بها ثلاثة دنانير، ويشهد لذلك- وراء الإجماع بقسميه عليه، كما في الجواهر[١]-صحيحة إسحاق بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «**قضى أمير المؤمنين عليه السلام في اللَّطمة يسودّ أثرها في الوجه أنّ أرشها ستّة دنانير، فإن لم تسودّ واخضرّت فإنّ أرشها ثلاثة دنانير، فإن احمارّت (احمرّت) ولم تخضارّ فإنّ أرشها دينار ونصف**»[٢].

وإنّما عبّرتُ عنها بالصحيحة لأجل إماميّة جميع رجال سندها حتّى إسحاق بن عمّار؛ فإنّه إسحاق بن عمّار بن حيّان الصيرفيّ، وهو- كما قال النّجاشي رحمه الله-: "**شيخٌ من أصحابنا، ثقة.. وهو في بيت كبير من الشيعة**"[٣]، ولئن وجد شخصٌ آخر باسم إسحاق بن عمّار الساباطيّ فإنّ منصرف إسحاق بن عمّار عند الإطلاق وعدم التصريح بأنّه الصيرفيّ أو الساباطيّ- هو الأوّل، كيف لا؟! والحال أنّه لا توجد رواية واحدة تروى عن الثاني.

ثم إنّ الدينار وزناً أربعة غرامات وربع تقريباً[٤]، ولعلّ هذا التقدير بالالتفات إلى ما حكي عن نظر بعض المحقّقين في تحديده بـ ٢٤/ ٤ غرامات، وهو في نظر بعض آخر ٤٦/ ٤ غرامات[٥]، ولا بدّ من أخذ كون الدينار مسكوكاً

---

(١) جواهر الكلام٤٣: ٣٤٦.

(٢) وسائل الشيعة٢٩: ٣٨٤، ب٤ من أبواب ديات الشجاج والجراح، ح١.

(٣) رجال النجاشي: ٧١ (١٦٩).

(٤) منهاج الصالحين للسيّد محمّد سعيد الحكيم١: ٣٧٢- فصل زكاة النقدين-.

(٥) انظر: المسائل الشرعيّة للسيّد موسى الشبيريّ الزنجانيّ: ٤١٥ - زكاة النقدين م ١٩٠٣-.

في تحديد قيمته؛ فإنّ الدينار مادّةٌ، وهي الذهب بوزن معيّن، وسكّةٌ تزيد من قيمته كسبيكة.

(المسألة ٢): في اسوداد الوجه باللّطمة ثلاثة دنانير عند السيّد رحمه الله مدّعياً عليه الإجماع[١]، وللأصل[٢]، ولكنّه مقطوع بها في الصحيحة، وهو ستّة دنانير، وعن الشيخ رحمه الله في الخلاف دعوى الإجماع عليه[٣]، ولما فيه من زيادة النّكاية، كما في الشرائع[٤].

(المسألة ٣): دية الاسوداد والاخضرار والاحمرار باللطمة في البدن على النّصف ممّا في كلٍّ منها في الوجه، ففي الاحمرار ثلاثة أرباع الدينار، وفي الاخضرار دينار ونصف، وفي الاسوداد ثلاثة دنانير أو دينار ونصف أيضاً على الخلاف المتقدّم، ويدلّ على التنصيف- وراء ما عن الانتصار والخلاف والغنية من دعوى الإجماع عليه-قوله عليه السلام فيما ذيّلت به الصحيحة بنقل الفقيه: «**وفي البدن نصف ذلك**»[٥].

وقد يُستشكل الاستدلال بهذا الذيل بعد خلو الكافي والتهذيب عنه، وأصالة عدم الزيادة العقلائيّة- المبنيّة على غلبة أن يسهو النّاقل فينقص لا أن يسهو فيزيد- إنّما تجري فيما لو أحرز أصل السهو ودار بين الزيادة للسهو والإنقاص له، وهو غير محرز، هذا فيما يرجع إلى موضوع الأصل المزبور، وكما

---

(١) انظر: الانتصار: ٥٤٩.

(٢) انظر: السرائر٣: ٤١٠.

(٣) الخلاف٥: ٢٦٢.

(٤) شرائع الإسلام٤: ٢٦١.

(٥) من لا يحضره الفقيه ٤: ١٥٨.

أنّ من البعيد جدّاً أن يتّفق السهو بزيادة مثلها من الصّدوق رحمه الله فإنّ من البعيد جدّاً أن يتّفق سهو الإنقاص من الكلينيّ والشيخ معاً، سيّما وأنّ نفس الصّدوق قد روى الصحيحة في المقنع غير مذيّلة بهذا الذيل[١]، كما أنّ احتمال التّقطيع -هو الآخر- بعيدٌ.

وبعد هذا، فإن تمّ إجماع على التنصيف فهو، ولكنّه لم يتمّ، فإنّ كلّ من تعرّض لهذه المسألة- فيما وجدت- وإن اختار التنصيف[٢]، إلا أنّ بعضاً لم يتعرّض لها وإن تعرّض لمسألة لطم الوجه[٣]، فلا يتحصّل معه الإجماع، اللهمّ إلا أن يقال بأنّ نفس معروفيّة التنصيف قديماً وعدم وجدان المخالف بين القدماء ممّا يكشف عن وضوح مستند التنصيف لديهم، وأنّه غير مستفاد من الصحيحة وإلا لما اختلفوا فيما ينصّف، وهو دية لطم الوجه، فلا مجازفة في القول بالتنصيف.

(المسألة ٤): في حكم الاحمرار والاخضرار والاسوداد باللّطمة على ما عدا الوجه من الرأس ففي الخلاف والسرائر أنّه كالوجه[٤]، والوجه في التعدّي عن مورد الصحيحة- وهو الوجه- إلى الرأس، ما في بعض الكلمات من أنّ الاقتصار على الوجه والبدن في نقل الصّدوق رحمه الله مع كونه في مقام بيان الحكم بالإضافة إلى

---

(١) انظر: المقنع: ٥٢٣، وعنه في مستدرك الوسائل١٨: ٤٠٨ ب٤ من أبواب ديات الشجاج والجراح ح٢.

(٢) انظر: المقنعة: ٧٦٦، الانتصار: ٥٩٤، الخلاف٥: ٢٦٢، النهاية: ٧٧٦، الكافي في الفقه: ٤٠٠، المراسم العلويّة: ٢٥٠، غنية النزوع: ٤٢٠، السرائر٣: ٤١٠، إصباح الشيعة: ٥٠٩.

(٣) انظر: الوسيلة: ٤٤٥.

(٤) الخلاف٥: ٢٦٢، السرائر٣: ٤١٠.

جميع الفروض- ظهوره في عدم خروجه عن الوجه والبدن، والظاهر هو الأوّل[١].

وفيه أنّا لا نحرز كون الإمامعليه السلام في مقام بيان حكم جميع الفروض بعد عدم ثبوت نقل الصّدوقرحمه الله كما تقدّم.

ولعلّ الوجه في التعدّي ما دلّ على مساواة الرأس للوجه في الشّجاج[٢].

ولكنّه بمجرّده لا يسعف في التعدّي والإلحاق بالوجه، كما لا وجه لإلحاقه بالبدن الّذي لا يشمله، فيصار إلى الحكومة، وهي آتية في الأذنين؛ لخروجهما عن الوجه.

ثمّ إنّه مع الشكّ في دخول الرقبة في البدن يصار إلى الحكومة كما لو قلنا بدخولها في الرأس.

(المسألة ٥): في حكم احمرار العين باللّطمة واحمرار أو اخضرار أو اسوداد محجر العين أو جفنيها، أمّا احمرار نفس العين باللطمة فلا تتناولها الصحيحة ليكون أرشها ديناراً ونصفاً؛ لخروجها عن الوجه، فيصار فيها إلى الحكومة، ولعلّ ديتها أكثر من دية أو أرش لطم الوجه، ويؤيّده ما في دعائم الإسلام عن أبي عبدالله عليه السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام: «**أنّ أمير المؤمنين عليه السلام قضى في الرجل يُضرب وجهه فيحمرّ موضع الضربة، ففيه دينار ونصف، وإن اخضرّ أو اسودّ فثلاثة دنانير، وإن كانت الضربة على العين فاحمرّت وشرّقت فثلاثة دنانير، وإن اخضرّت**

(١) تفصيل الشريعة (الديات) : ٣٨٨.
(٢) وسائل الشيعة٢٩: ٣٨٥ ب٥ من أبواب الشجاج والجراح.

وما حولها فستّة دنانير، وما اخضرّ فبحساب ذلك»[١].

وأمّا محجر العينين وجفناهما فهي من الوجه، وفيها ما فيه من الأرش المذكور في الصحيحة، ولا يؤخذ بها في رواية الدعائم؛ لضعفها ولو بإرسالها.

(المسألة ٦): لا فرق في ثبوت الأرش بين بقاء الأثر إلى مدّة أو مطلقاً وبين زواله سريعاً، وكذا لا فرق بين حصول الأثر فعلاً وتراخيه عن اللَّطمة أو تحوّله من الحمرة إلى الخضرة أو منها إلى السواد، كما لا فرق في الملطوم بين الصغير والكبير، وبين الذكر والأنثى؛ كلّ ذلك لإطلاق الصحيحة.

نعم، قد يناقش في إطلاق الصحيحة للأنثى؛ لكون الصحيحة حاكيةً لقضاء الأمير عليه السلام، فلعلّ مورده الرجل، وهو ما يعرف بقضيّة في واقعة، فلا يحرز الإطلاق لغير المورد.

ويتوجّه عليها- مضافاً إلى ما في بعض الكلمات من أنّ مورد قضائه عليه السلام وإن كان لا إطلاق له إلا أنّه يحرز الإطلاق بعد أن كان الحاكي لقضائه عليه السلام هو الإمام عليه السلام، وكان الغرض من الحكاية بيان الحكم الشرعيّ الكلّيّ[٢]- أنّ القضاء المحكيّ في الصحيحة ليس بالمعنى المتعارف منه، وهو فصله في القضيّة الشخصيّة، بل يراد فصله العامّ، وقد لا يكون في الخارج حينه إلا فرض من فروض اللَّطمة، وإن كان في تسميته قضاءً نوعٌ من التوسّع والعناية، هذا.

وفي كشف اللّثام دعوى اختصاص الصحيحة بالرجل، وأضاف: ولذا قيل:

---

(١) مستدرك الوسائل١٨: ٤٠٨ ب٤ من أبواب ديات الشجاج والجراح ح١.

(٢) انظر: تفصيل الشريعة (الديات): ٣٨٧.

إن كانت الجناية على المرأة فنصف تلك المذكورات[١]، ثمّ إنّ شيخ الجواهر قدس سره- هو الآخر- قال بأنّ الصحيحة مختصّة بالرّجل، ولكنّه ساوى بين الرّجل والمرأة في ذلك؛ لإطلاق الفتاوى[٢].

وفيه أنّه لا قرينة على الاختصاص بالرّجل من داخل الصحيحة، وهو قدس سره أعلم بما قال.

وأمّا ما دلّ على أنّ دية المرأة نصف دية الرّجل[٣] فإنّ ذلك في دية النّفس والجراحات، فلا يوجد ما يرفع به اليد عن إطلاق الصحيحة، بل إنّ قول الصادق عليه السلام في صحيحة أبان بن تغلب: «**إنّ المرأة تعاقل الرجل إلى ثلث الدية، فإذا بلغت الثلث رجعت إلى النصف**»[٤]- يقتضي تساويهما في مطلق الديات، ومنها دية اللَّطمة.

(المسألة ٧): لا فرق في ثبوت الدية بحصول الاحمرار أو الاخضرار أو الاسوداد بين أن يحصل بالضرب باليد بل الكفّ مفتوحة الأصابع- كما ظاهر عنوان اللَّطمة الوارد في الصحيحة- وبين أن يحصل بالضرب بها مضمومة الأصابع أو بالذراع أو بغيرها كالرّجل أو بمثل النّعل؛ وذلك لعدم احتمال الخصوصيّة عرفاً، نعم احتمال الفصل بين الجناية بمثل اللَّطمة وبين مطلق الجناية احتمال معتدٌّ به عرفاً، فيكون فيه الحكومة حيث لا مقدَّر لها شرعاً، كما لو حبسه في مكان حارّ فتغيّر لون بشرة وجهه مثلاً إلى الحُمرة أو السواد.

---

(١) كشف اللثام١١: ٤٤٢.

(٢) انظر: جواهر الكلام٤٣: ٣٤٨.

(٣) وسائل الشيعة٢٩: ٣٥٢ ب٤٤ من أبواب ديات الأعضاء ح١.

(٤) انظر: جواهر الكلام٤٣: ٣٤٨.

(المسألة ٨): قال أحد أعلام العصر قدس سره: لا فرق في الضرب الموجب لتغيّر العضو وحصول الألوان المتقدّمة بين أن يكون لغرضٍ عقلائيٍّ كالتأديب ونحوه، أو شرعيٍّ كالنهي عن المنكر، إن لم يكن مأذوناً في التغيير أيضاً كالحدّ الشرعيّ، أو لم يكن كذلك؛ كلّ ذلك للإطلاق، وأنّ الإذن الشرعيّ لا ينافي الحكم الوضعيّ[1]، وقال رحمه الله: إذا ولد المولود وتوقّفت حياته على ضربه -كما نقل عن بعض القوابل- بحيث لو لم يُضرَب لم يبق حيّاً، فإذا ضُرِب وتغيّر لون جسده وجبت الدية، وأنّه مقتضى ما تقدّم، إلا أن يقال بانصراف الأدلّة عن مثل المقام[2].

أقول: ومن مثل المقام ضرب ظهر من ابتلي بغصّة الطعام.

وأقول: مضافاً إلى ما أفيد من أمر الانصراف عن مثل ما تقدّم- إنّ تأديب الصبيّ والمملوك- الّذي دلّت الروايات على جوازه[3]- لا ينفك بما هو تأديب عن تغيير لون البشرة إلى الحُمرة ولو مع الرِّفق؛ إذ بدون ذلك لا يكون تأديب، فلو كانت تترتّب عليه الدية لبيّنته هذه الروايات، فمقتضى إطلاقها المقاميّ عدم ترتبها.

(المسألة ٩): في ترتّب الدية على التغيّر التقديري وعدمه، كما لو لطم وجه مَنْ بشرته سوداء بحيث لولا السواد لاحمرّت أو اسودّت، فيقال: لو كانت بشرته بغير السواد لتغيّرت، وهو المعبّر عنه بالتقدير للمانع، والظاهر ترتّبها؛ فإنّ عدم التغيّر بعد وجود المقتضي والشرط له مستند إلى وجود المانع من ظهوره وتبيّنه لا أنّه مانع من أصل وجوده وتحقّقه، فالتغيّر حاصل إلا أنّه ليس حسّيّاً، ومعه نستبعد جدّاً احتمال انتفاء الدية، بل مناسبات الحكم للموضوع العرفيّة تؤذن بثبوتها.

---

(١) انظر: مهذّب الأحكام٢٩: ٣٠٥، ٣٠٦.

(٢) نفس المصدر: ٣٠٧.

(٣) انظر: وسائل الشيعة٢٨: ٣٧٢، ٣٧٣ ب٨ من أبواب بقيّة الحدود والتعزيرات ح١- ٣.

Advisory Board :

Sh. Abdulla Ali Al daqaq

Sh. Ali Fadhel Alsadadi

General Superviser :

Sh. Abdulraoof Hasan Alrabeea

Editor in Chief :

Sh.mohammed ali khatam

Editor in Director :

Sh.Abbas Ali Alsayegh

The assistant manager :

Sh.Jaafar Abdulnabi Aljaboori

Editorial Board :

Sh. Aziz Hasan Salman

Sh. Jasim Bader almutawa

Sh. Ali Aqeel Aljamri

Sh. MAnsoor Ebrahim Hussain

sayed. Jalal Adnan Alawi

التعليم الديني

١- إنّنا بحاجة إلى الدّين للتوفّر على الأمن... وعلى العدل والحياة المستقرّة، ونحن بحاجة إلى الدّين في بُعد أهمّ من هذا البُعد بكثير وهو أن نبقى على خطّ إنسانيتنا، وأن تكتمل هذه الإنسانية فينا، وأن يكون لنا الدور الذي نخلد به في الآخرة خلوداً سعيداً كريماً.

٢- إنّكم تعرفون أنّ الأنظمة الرسمية في العالم كلّه وعلى الإطلاق لا تُعطي التعليم الدّيني حقّه، وأنّ الغالبية الكبرى جداً جداً جداً تستخفّ بالتعليم الدّيني...

٣- إنّ الهوية الدينيّة تتعرّض للتدمير مستقبلاً بصورة أكبر...

٤- التعليم الديني في الإسلام مسؤولية عامة، وتكليف لكلّ مسلم، فوظيفتان وضعهما الإسلام على كاهل العبد المسلم ذكراً كان أو أنثى، شاباً كان أو عجوزاً، وفي أيّ موقع من المواقع ألا وهما: وظيفة تعليم الجاهل ما يحتاجه من أموره دينه، ووظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

هذه مقدّمات أربع تفضي بنا حتماً إلى أن نتحمّل مسؤولية تعميم وتركيز الكلمة الدّينية، المفاهيم الدّينية، الأخلاقية الدّينية، الوعي الدّيني، الروح الدّينية.

وأن نبدأ تحركاً عملياً جاداً بأن نعمل على تحويل كلّ مسجد وكلّ بيت ما أمكن إلى مدرسة دينية...علينا وفي كلّ الأحوال أن ننطلق بالمسجد، بالبيت، بالمؤسّسة انطلاقة جديدة كبيرة منفتحة جادة رسالية على طريق الإسلام، وأن نوصل كلمة الإسلام بأقوى درجة ممكنة لأجيالنا الجديدة...

خطبة الجمعة (١٠٦) ٩ صفر ١٤٢٤هـ ١١ أبريل ٢٠٠٣م

رسالة القلم

مجلّة طلابيّة فصليّة

تهدف إلى نشر الثقافة الإسلامية

تصدر عن طلاب البحرين في الحوزة العلميّة

بمدينة قم المقدسة

www.ralqalam.com

info@ralqalam.com

ralqalam

الجمهورية الإسلامية في إيران ـ قم المقدسة

شارع جمهوري ـ شارع قيام ـ فرع ٨ ـ مبنى ١٠

+٩٨ ٢٥٣٢٨٩٨٤٧٠